خُطَبُ الشَّيْخ

سَعِيد عَبْد العَظِيم

بقلم

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار القمة

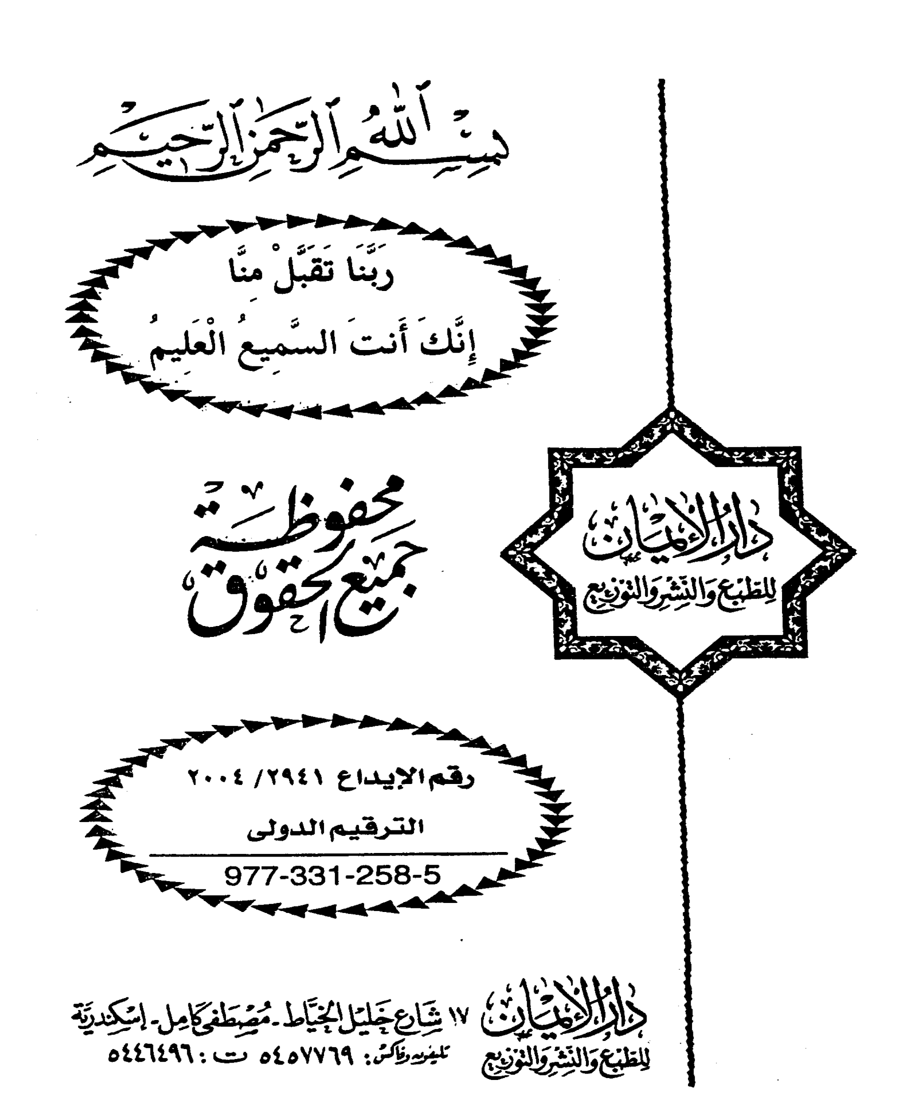
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

فاكس: ٥٤٥١٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



رقم الإيداع ٢٩٤١/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-258-5

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾[٣] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أثنى الله على هذه الأمة فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٤]، وهذه هى صفة هذه الأمة فى الكتب السابقة، ففى صحف شَيْعَا فى كلام طويل فى معاتبة لبنى إسرائيل وفيه : « فإنى أبعث إليكم وإلى الأمم نبياً أُمياً ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخاب فى الأسواق ، أسدّده لكل جميل ، واهب له كل خلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه ، والبر

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٢) .
(٢) سورة النساء الآية (١) .
(٣) سورة الأحزاب الآيتين (٧٠ ، ٧١) .
(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٩) .

شعاره ، والتقوى فى ضميره ، والحكمة معقوله ، والوفاء طبيعته ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى ملته ، والإسلام دينه ، والقرآن كتابه ، أحمدُ اسمه ، أهدى به من الضلالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأجمع به بعد الفُرقة ، وأؤلف به بين القلوب المختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس ، قرابينهم دماؤهم ، أناجيلهم فى صدورهم ، رهباناً بالليل ، لُيوثاً بالنهار » ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٢١) ﴾ [١] ، فالصالحون وأهل الفضل من هذه الأمة ، هم الشهداء على الناس يوم القيامة ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام ، وقال رسول الله ﷺ : « **أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله** » [٢] .

وقال تعالى فى وصف نبيه ﷺ : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٥٧) **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (١٥٨) ﴾ [٣] ، وقال : ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [٥] .

فذكر تعالى بعثته إلى الأميين وأهل الكتاب وسائر الخلق من عَربهم وعجمهم ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له .

---

(١) سورة الحديد (٢١) .
(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .
(٣) سورة الأعراف (١٥٧ ، ١٥٨) .
(٤) سورة الأنعام (١٩) .
(٥) سورة الأعراف (١٥٨) .

قال ﷺ : « **والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ولا يؤمن بى إلا دخل النار** » (١).

وهكذا فى قصة إسماعيل من السِّفر الأول: «أن ولد إسماعيل تكون يده على كل الأمم، وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن»، وهذا لم يكن لأحد إلا لرسول الله ﷺ، وأيضاً فى السِّفر الرابع فى قصة موسى: أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: أن قل لبني اسرائيل: سأقيم لهم نبياً من أقاربهم مثلك ياموسى، واجعل وحيى بغيه وإياه تتبعون ، والبشارات فى هذه المعنى كثيرة، فدعوته ﷺ دعوة عالمية ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ۝١ ﴾ (٢)، وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ۝١٠٧ ﴾ (٣)، وقال : ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ۝٨٨ ﴾ (٤) .

وقد تعددت هذه الدعوة الإنس إلى الجن، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** ۝٢٩ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ** ۝٣٠ **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ** ﴾ (٥)، قالت الجن : أنزل من بعد موسى ولم يقولوا أُنزل من بعد عيسى وذلك لأن التوارة شريعة مستقلة كالقرآن ، أما الإنجيل فهو بعض الأحكام والآداب المكملة للتوارة فالإنجيل ليست شريعة مستقلة ، وقد ظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الله منذ أن أكرمه الله بالرسالة إلى حين انتقاله إلى جوار ربه الكريم ، وما دعا إلا بإذن ربه ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ۝٤٥ **وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ۝٤٦ ﴾ (٦)، وكانت

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة الفرقان (١) .
(٣) سورة الأنبياء (١٠٧)
(٤) سورة ص (٨٨) .
(٥) سورة الأحقاف (٢٩ - ٣١) .
(٦) سورة الأحزاب (٤٥ ، ٤٦) .

دعوته على بصيرة ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾[١]، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأمته ﷺ يجب عليها أن تدعوا كما دعا، وهي داخلة في التكاليف تبعاً له، فقوله تعالى: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) ﴾[٢]، و ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) ﴾[٣]، لا يختص به ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾[٤]، وقد وردت الأحاديث ترغب في الدعوة وتحث عليها ، ففي الحديث: **« من دل على خير فله مثل أجر فاعله »**[٥] ، **«ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »**[٦].

وقال ﷺ لعليّ : **« فوالله لئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النعم»**[٧].

وعن أبي أُمامة الباهلي مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»**[٨].

---

(١) سورة يوسف (١٠٨).
(٢) سورة الحج (٦٧) .
(٣) سورة القصص (٧٨) .
(٤) سورة التوبة (١٢٢) .
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه مسلم .
(٧) متفق عليه .
(٨) رواه الترمذى وقال : حسن غريب .

لقد ضُيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبر أزمان متطاولة ولم يبقَ منه إلا رسمه، كما يقول الإمام النووى، وهذا على زمنه هو، فكيف بزماننا نحن؟!، فما زلنا بحاجة لدعوة المسلمين للرجوع لإسلامهم وتحكيمه فى حياتهم الخاصة والعامة، فى سياستهم واقتصادهم واجتماعهم وأخلاقهم وحربهم وسلمهم ومسجدهم وسوقهم... وإلا فما أبعد الفارق بين الإسلام كدين والمسلمين كواقع ، وما أبعد الهوية بين أمسنا ويومنا، حتى عاد الإسلام غريباً وسط أهله وبنيه كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء ، وإذا انتقلنا إلى أوربا وأمريكا وهنا وهناك ، وجدنا صورة مشوهة منفرة للإسلام ، فالكثرة لم تسمع عن الإسلام – إن سمعت – إلا أنه دعوة لقتل الأبرياء وترويع الآمنين ، وبغَضّ النظر عن السبب فى هذه الصورة ، هل هو سوء تصرفنا وانحرافنا عن ديننا أم هو الإعلام الغربى الفاجر ، فالأمر على كل حال يستدعى بذل الجهد فى إبلاغ الحق الخلق والإرتفاع إلى مستوى الإسلام ، علماً وعملاً وجهاداً ، وبذل النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ودعوة الخلائق جميعاً لإسلام الوجه لله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[1] ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2] ، فمهمة هذه الأمة إنقاذ البشرية من شقائها وتعاستها ، وهداية أهل الكتاب وأصحاب الحضارة المادية المزعومة إلى طريق مستقيم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

ولا يمكن للمسلم أن يهدأ له بال حتى ينفذ أمر الله ويكون الدين كله لله ، وهذا يتطلب علو الهمة وتكاتف الجهود ، ومعرفة الشرع والواقع ، وسلوك سبيل الأنبياء

(١) سورة آل عمران (١٨)
(٢) سورة آل عمران (٨٥)
(٣) سورة آل عمران (٦٤) .

والمرسلين فى الدعوة إلى الله ، والتخلق بأخلاق المؤمنين ، إذ الدعوة بالسلوك أبلغ من الدعوة بالقول ، ولا يكفى حسن النية أو ابتداع مناهج لم يأذن بها الله ، فلا بد من اتباع صادق لرسول الله ﷺ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾[١].

ونحن لا نخلق الفرص وأيضاً لا نضيعها، فلابد من حركة وعمل دؤوب ، نواصل به الليل والنهار ، ويؤدي كل منا دوره ومهمته ، التى لا تقل عن دور الهدهد فى حمل الأمانة عندما قال لنبيّ الله سليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾[٢]، وخصوصاً ونحن بإزاء أعداءٍ لا ينامون ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فإن لم ندعو صرنا محلاً وفريسة سهلة لدعواتهم المارقة لا ينبغي أن نفرط فى صورة أو وسيلة مشروعة من صور ووسائل الدعوة ، فالكل فى سباق، وإلى الله المرجع والمآب ، وغداً ينكشف الغطاء .

فاللهم انفعنا بهذا الكتاب وإخواننا وسائر المسلمين ، واجعله حجة لنا لا علينا ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه
سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

---

(١) سورة الأحزاب (٢١).
(٢) سورة النمل (٢٢) .

عناصر وحدة الأمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾[٣] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

عباد الله ، إخوانكم قصدوا البيت الحرام ، عقدوا الإحرام ، وقصدوا هذا البيت مُعظِّمين مُلبين بهذا النداء ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، خرجوا يُجيبون هذا الأذان ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

---

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١٠١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١) .

لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾[١] .

خرجوا يُعظّمون حرمات الله جل وعلا ، يحدوهم هذا الحنين يقول ربنا تبارك وتعالى على لسان إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٢] .

بل ودّ الواحد لو سار لهذا البيت ولو على رأسه ، لا يمنعه ذلك من أجل تلبية هذا النداء ، ولهذا الحنين الذي يعتمل في نفسه، طاعة لربه تبارك وتعالى تحدوه، كلهم يُلبي ، ولذلك لا عجب أن لبّى أنس بن مالك رضي الله عنه : « لبيك بحجة حقًا ، لبيك تعبدًا ورقًا » .

كلهم يتوجه لرب واحد ، كلهم يُؤمن بنبي واحد [٣] ، كلهم دينهم واحد ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[٤]، يسجدون لربهم ويحرصون على طاعته ، عناصر الوحدة بينهم كبيرة ، والأمل في اجتماع كلمتهم لا حدّ له ، لو استقاموا على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ .

وإن كنا نستبشر بعناصر الوحدة هذه ، إلا أننا لا يمنعنا الأمر من أن نتحدث عن بعض العلل ، عن بعض الأمراض التي تعتمل في هذه الأمة وفي جسدها من عناصر الفرقة ومن عوامل التحلل ، هذا الأمر تجده أيضًا بوضوح في هذا الجمع الكبير الذي أتى من كل واد سحيق وفج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات .

(١) الحج (٢٦ – ٣٠).
(٢) إبراهيم (٣٧).
(٣) أي أن نبي هذه الأمة واحد ، كل دعوى النبوة بعده فضلال وغي وهوى .
(٤) الحج (٧٨).

ومن بين هذه العوامل :

بل قل من أعظمها، فقدان اللغة الواحدة ، فهم يتكلمون بألسنة شتى، وبالتالي تقف في وسطهم تجد كثيراً من المنكرات ، ولا يتيسر لك أن تنصح هذا ولا ذاك ، فلسانهم غير لسانك ، على الرغم من أن لغة القرآن واحدة ، وكان الواجب عليهم أن يتعلموها ، وأن يتعرفوا عليها ، ولو تعلموا ذلك لتوحدت صفوفهم أكثر وأكثر ، ولكن هذا الأمر تلمسه بوضوح ، وبالتالي تجد كثيراً من المُخالفات الشرعية ، وكثيراً من الشركيات ، تحدث من هنا ومن هناك ، بل من عجيب الأمر أن هذه القضية لا تقتصر على هذه اللغات .

بل هناك أيضاً لهجات عامية حدثت حتى في صفوف العرب ، فأنت لا يتيسر لك أن تفهم مثلاً من مغربي أو من تونسي ، على الرغم من أنه عربي ، إلا أنه لا يحسن الحديث بها ، وبالتالي لا يتيسر لك أن تتحدث مع هؤلاء بسبب هذه اللهجات المحلية ، أو العامية التي شاعت .

بل انظر لهذا الأمر ودقق فستجد بعد ذلك أنه من صنع أعداء الإسلام والمسلمين، أعملوا كل سلاح في جسد هذه الأمة ، هي المُحاربة بكل سلاح، وأعداؤنا تفننوا في محاربتنا ، لم يتركوا سلاحاً من الأسلحة إلا استخدموه ، وكان من بين هذه الأسلحة هذا السلاح الفتاك ، هذه اللهجات العاميّة ، هذه النعرات القبلية ، هذه اللغات التي حرص أعداء الإسلام على غرسها ، أو على إعادتها مرة ثانية ، بعد أن كانت قد تلاشت ، وبعد أن تحدَّث كثير من هؤلاء باللغة العربية ، قل كأهل مصر هم تركوا الرومية وتكلموا العربية ، تعودوا هذه اللغة بعد الفتح الإسلامي ، ثم شاعت بعد ذلك هذه اللهجات العامية التي يحاول البعض يوماً بعد آخر أن يوثقها في أذهان الناس بكل وسيلة، أهل إفريقيا كانوا يتكلمون أيضاً العربية ، ثم تحولت الألسنة بعد ذلك إلى لغات أجنبية وإلى نعرات قبلية ، إلى لغات محلية .

حدث هذا الأمر في أفريقيا ، بل هذا الاحتلال الذي حدث في الجزائر طيلة مائة عام تمخَّض عن ماذا ؟! تمخَّض عن هذا اللسان الفرنسي ، فهم يتكلمون الفرنسية بطلاقة ، والواحد منهم لا يُحسن إخراج كلمة من كلمات العربية .

بل أيضًا ستجد كثيرًا من اللغات كُتبت بالعربية ، ثم تحول هذا الأمر كالتركية والفارسية والأردية ولغة الملايو ، كانت هذه اللغات أيضًا تُكتب بالعربية .

حدث تحول كبير ، وهذا التحول حدث لأسباب ، وأنت تتحمل هذه الدعوة يجب عليك أن تستبصر بواقع الحال من حولك ، وإلا فإذا كنا نفرح بعناصر الوحدة التي تحدث في هذه الملايين التي خرجت في طاعة ربها ، نحن أيضًا نئن ونحزن من عناصر فرقتها ، ولابد وأنت تُعالج أن تضع يدك على هذه العلل وهذه الأمراض ، أن تبحث في أسبابها وفي طرق علاجها ، لابد من هذا الأمر، دعوتك عالمية .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[1] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ ﴾[2] ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨ ﴾[3] .

حديث طويل وعريض يدور اليوم حول ترجمة القرآن ، هذا الأمر محكوم بحرمته وبالإضافة إلى ذلك فهو إن دلَّ على شيء ، فإنما يدل على مظهر من مظاهر ضعف هذه الأمة ؛ لأن الأمة عندما كانت تعمل بكتاب ربها وبسُنَّة نبيها ﷺ ، عندما أخذت بعناصر القوة كانت كلما انطلقت إلى هنا أو إلى هناك سارت اللغة في ركابها ، انتقلت معها اللغة العربية ، ولم يجد الأوائل حرصًا شديدًا على ترجمة حتى المعاني ، أو نقل هذه المعاني إلى اللغات الأجنبية ؛ لأن أهل هذه البلدان كانوا يحرصون على تعلم العربية والأمر الآن انعكس .

(١) الفرقان (١) .
(٢) الأنبياء (١٠٧) .
(٣) ص (٨٧ ، ٨٨) .

هم لا يجدون حرصًا حتى ترجمة كتبهم ، نحن الذين نترجم هذه الكتب، ونحن الذين نحرص على دراسة هذه اللغات ، هم لا يجدون حرصًا ، بسبب إحساسهم بالقوة ، وهذه الأمة قد آل أمرها إلى غربة أو إلى ضعف وإلى ذلة ، وهوان بعد أن تركت كتاب ربها تبارك وتعالى وسنة نبيها ، بعد أن تخلفت عن أسباب القوة الحقيقية ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[1] .

فأصبحت هذه اللغة كما يطلقونها الآن ، بإعجاب هي اللغة السادسة أو الخامسة، لماذا لم تكن اللغة الأولى ؟! هذا الأمر إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضعف هذه الأمة وعلى تحللها وعلى تفسخها عن دين الله تبارك وتعالى ، أهل الأمم جميعًا كانوا في وقت من الأوقات يحرصون على النطق بالعربية ، وعلى تعلم هذه اللغة؛ لأنها هي لغة القرآن ، وإلا فكيف يتفهمون دينهم ؟! ، كيف يتعرفون على توجيه ربهم ؟، كيف يتعرفون على العقيدة أو على سنة رسول الله ﷺ إلا بتعلم هذه اللغة وبالتعرف عليها ؟! .

هذه اللغة من شعار الإسلام وأهله ، وبالتالي لابد من الحرص عليها ولا يصلح لنا أن نظهر شعار العجمة ، لا يليق بنا ذلك ، ولا يصلح لنا أن نتحدث بكلمات أعجمية، بكلمات أجنبية، البعض يرى هذا الأمر من جملة صور المباهاة والفخر ، وكأن التمدن والتقدم والتحضر لا يحدث ولا يتم إلا بأن ينطق بكلمات أجنبية سواء كانت ألمانية أو فرنسية أو إنجليزية ، والبعض يتبارى في ذلك ، ولعلهم يقدمون ويؤخرون ، ومن تحدث بالفرنسية ، فهو عنده مزيد من التطور والتحضر عمن تحدث بالإنجليزية ، أمر غريب وحال مريب ، فلماذا نتحدث دون حاجة بغير هذه اللغة ؟! .

---

(١) الأنفال (٦٠)

ربنا تبارك وتعالى أنزل الكتاب بلسان عربي مُبين ، والنبيُّ ﷺ أوتي جوامع الكلم، سمع محمد بن سعد بن أبي وقاص رجالاً يتحدثون بالفارسية ، فقال لهم : «ما بال المجوسية بعد الإسلام!!» ، لماذا تتحدثون بهذه الكلمات الأجنبية بعد أن امتن عليكم ربنا تبارك وتعالى بنعمة الإسلام ، الواجب علينا أن نستشعر هذه النعمة ونظهرها، فإظهار شعائر الإسلام والمسلمين طاعة نتقرب بها لله تبارك وتعالى، والواجب علينا أن نحذر التشبه بهؤلاء فـ **«من تشبه بقوم فهو منهم»** [(١)]، و **«من أحب قوماً حُشر معهم»**.

واعتبار اللغة كما يقول العلماء ، يُؤثر - وهذا أمر واضح - في الخلق والدين ، وهذه اللغات تُؤثر في أخلاق أصحابها وفي دياناتهم ، تُؤثر في طبعهم، ولذلك انظر مثلاً لمن يحرص على الحديث باللغة الفرنسية ، ستجد نوعًا من الليونة ، ونوعًا من الخلاعة ، هؤلاء الذين يحاولون التشبه بهؤلاء ستجد فيهم نوعًا من قلة المروءة ، وهذا ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما تعلم أحد الفارسية إلا خف ، ولا خف رجل إلا نقصت مروءته .

هذا ما يُقرره عمر بن الخطاب رضي الله عنه حالٌ نُشاهده هنا وهناك ، فلماذا نترك هذه اللغة التي تكلّم بها رسول الله ﷺ ، وتكلّم بها صحابته الكرام وكانوا يحرصون عليها ويعودون عليها أبناءهم ، لماذا نستبدلها بغيرها ؟ لا يليق بنا ذلك ، أنستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟! ، حالنا مُريب كما ذكرنا ، وبعد ذلك نستغرب لماذا تنزل الهزيمة هنا وهناك ؟! ولماذا نعيش حياة المذلة والمهانة ؟!! ، أسبابها واضحة لو استقرأنا واقع الحال ، وقسناه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

عاب ربنا تبارك وتعالى على بني إسرائيل أنهم طلبوا الذي هو أدنى ، وكان قد امتن عليهم بالذي هو خير، امتن عليهم بالمن والسلوى، فقالوا: ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ

(١) صحيح، رواه أبو داود والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٤٩).

عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1] .

فإذا كان ربنا جل وعلا قد عاب على هؤلاء أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير في بعض أصناف الأطعمة ، فكيف بمن ارتضى الكفر بديلاً عن الإسلام ، واستبدل الجنة بالنار ، وطاعة ربه بمعصيته ، كيف بمن استبدل شريعة الله جل وعلا بنظم ودساتير ومناهج كفرية ، كيف أيضًا بمن ترك هذه الأشهر العربية ، واستبدلها بأشهر أجنبية فارسية أو قبطية ، أو غير ذلك .

كره الإمام أحمد كراهة شديدة تسمية الشهور بأسماء أعجمية كره هذا الأمر كراهة شديدة وأن تُسمى بأسماء فارسية ، ونهى عن هذا الأمر أيضًا في الصلاة ، وقال لسان سوء .

وانظر لما يترتب ، وما يحدث على ذلك ، سواء كنت تعرف معاني هذه الكلمات أو تجهلها ، فهذا أعظم ؛ لأنك قد تتكلم بكلمات لا تدري معناها ، وقد تنطوي على كفر عظيم ، بل حتى وإن كنت تعرف معناها ، فهذا تشبه بمن غضب الله عليه ، تشبه بهؤلاء الضالين ، فلا يصح لنا أن نتشبه بهم ، والواجب علينا أن نُعوّد ألسنتنا النطق بالكلمات العربية .

ثم انظر بعد ذلك لما يترتب على هذا الاستبدال ، استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير عندما تتعرف على شهر مارس وعلى شهر إبريل ، ماذا تكون النتيجة ، سنغفل عن أيام الفضل ، التي أودع ربنا تبارك وتعالى فيها من فضل وأحكام شرعية الواجب على من يؤمن بربه ، ويخاف سوء الحساب أن يتعرف عليها ، وأن يُتابعها بعمل صالح ، ولا أدلّ على ذلك من هذه الأيام المباركات التي نمر بها ، أشهر عربية ، نتعرف على شهر ذي القعدة ، نتعرف على شهر ذي الحجة بدلاً من أن نتعرف على مارس وإبريل وغيرها من أشهر العام .

---

(١) البقرة (٦١).

كرهها العلماء كراهة شديدة ، وأمرونا أن نتكلم بالعربية ، وأن نُتابع هذه الأمور التي وردت في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ، أهلّ علينا هلال ذي الحجة ، فهل قلنا «**اللهم أهلّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله، هلال رشد وخير**» (١) ؟ هل تعبدنا لله بهذا الدعاء ؟ .

لكي نعمل ذلك لابد أن نعرف أن الشهر قد أهلّ علينا ، نتعرف على هذه الأيام ، وأنه « **ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام** » يعني العشر الأول من ذي الحجة ، إذا كنا لا نعرف شهر ذي الحجة ، فكيف نتعبد لربنا تبارك وتعالى ؟! وكيف نغتنم فرصة هذه الأيام ؟! ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ، قال : « **ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثمّ لم يرجع من ذلك بشيء** » (٢) « **إذا أهل هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يُضحي فلا يأخذ من شعره ولا من ظفره حتى يُضحي** » (٣) ، نهيٌ لنا عن الأخذ من الشعر ، أو من الظفر إذا أراد أحدنا أن يُضحي ، ومعنى ذلك أننا إذا لم نتعرف على هذه الأيام المباركات ، سنُخالف هدي رسول الله ﷺ ونقع في محظور .

كان رسول الله ﷺ ، كما تروي السيدة حفصة رضي الله عنها : « **لا يدع صيام العشر** » ، يعني العشر الأول من ذي الحجة ، وهي تنتهي في اليوم التاسع يوم عرفات ، وهو يُكفر ذنوب سنتين ، سنة ماضية ، وسنة مستقبلة ، وصيام العيد محرّم ، وأيام التشريق بعده أيام أكل وشرب ، وذكر لله تعالى .

كان ابن عمر ، وأبو هريرة رضي الله عنهما إذا دخلت العشر يخرجان إلى السوق يُكبران ، ويُكبر الناس بتكبيرهما ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُكبر في خطبته بمنى ، فيسمع الناس، وترتج منى تكبيراً ، هكذا كان حرصهم على طاعة ربهم ، هم تعرفوا على هذه

(١) رواه الترمذي (٣٤٥١) وقال: حديث حسن.
(٢) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) رواه مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ : « **إذا رأيتم هلال ذي الحجة ، وأراد أحدكم أن يُضحي فليُمسك عن شعره وأظفاره** ».

الأيام المباركات ، وعلى ما فيها من فضل ، فتابعوها بعمل صالح ، هكذا كانوا ، وأين نحن من هؤلاء الأفاضل ؟! ، نحن لم نتعرف إلا على شهر يناير وفبراير وغير ذلك من الشهور .

كره الإمام أحمد كلمة « أعجمية » على الرغم من أن معناها غير محرم، ولكنه كرهها ؛ لأنها كلمة أعجمية ، ولا حاجة لنا في النطق بها .

هكذا كانوا ، وهكذا كان حرصهم على هذه اللغة أن تتغير أو أن تتبدل ، يجب علينا أن نتابعهم فيما كانوا عليه رضوان الله عليهم ، وأن نحذر هذه المخالفات على أنفسنا ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم » ، وكتب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقول له: «تفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، أعربوا القرآن فإنه عربي » .

فالواجب علينا أن نتعلم هذه اللغة ؛ لأننا يجب علينا أن نتفهم كتاب الله وأن نتعرف على الفرائض والسنن ، ولا سبيل لذلك إلا بأن نتعلم اللغة العربية ، وتعلمها أمر واجب ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والواجب علينا أن نتعلم هذه اللغة ، وأن نحرص على تعليمها للآخرين أمر واجب ، وإلا فأنت في مثل هذه المجامع العظيمة ، سترى ما يحزنك ، بقدر بل قل بأكثر مما ترى هذا الجمع وهو يحرص على طاعة ربه ، ستجد عناصر الفرقة تطل برأسها ، هذا يتكلم بلغة ، وهذا يتكلم بلهجة ، وأنت لا تفهم هذا ولا ذاك ، وإذا كنت تحسن لغة من اللغات ، فأنت لا تحسن بقية اللغات ، وعددها يفوق الحصر ، واللهجات كذلك ، فكيف إذن تتوجه بدعوتك ؟! ، أو كيف تتحقق هذه العالمية ، لابد أن تأخذ أسباب ذلك ؛ لأن هذه الدعوة لم تكن محلية في وقت من الأوقات ، هي دعوة عالمية ويجب أن تكون على مستواها .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (١).

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

---

(١) الفرقان (١).

الخطبة الثانية

الحمد لله ، حمداً يُوافي نعمه ، ويُكافئ مزيده ، لا نُحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

عباد الله ، حرب كما ذكرنا ، واستُخْدِمَ فيها كل سلاح ، المواجهة بين اللغة العربية ، وبين المستعمر من أول يوم وضع فيه قدمه في هذه الأمة ، هم حرصوا على بتر هذه اللغة ، وعلى إضعاف مكانتها في النفوس لعلمهم أن هذه اللغة هي لغة القرآن ، وأن الناس إذا ضعفت لغتهم ، ماذا ستكون النتيجة ؟! سيرون القرآن في مرتبة عالية ، هم قد يقرءونه ، ولكنهم لا يتعرفون على المعاني، يحتاجون إلى قواميس ، ويحتاجون إلى مترجمين ، لترجمة القرآن على الرغم من أنهم عرب وهكذا ، وصنعوا الحواجز بين هذه الألسنة وبين كتاب ربها .

حرب استُخدم فيها كل سلاح كما ذكرنا ، ولكننا في غفلة ، ويترآى للبعض أنْ ليس في الإمكان أحسن مما كان ، وأنه قد أدى ما عليه لكونه تكلم بكلمة هنا أو هناك ، الأمر أعظم من ذلك .

ويا له من دين لو أن له رِجالاً يتعرفون عليه وعلى طبيعته ، وعلى طبيعة خصومه، وعلى طبيعة هذه الحرب التي تُدار لإبعاد هذه الأمة عن كتاب ربها وعن سنة نبيها ﷺ .

حدث استهزاء باللغة العربية ، كانوا يُعطون مدرس اللغة العربية مُرتبًا أقل بكثير ممن يُدرس اللغة الإنجليزية ، وهذا من شأنه أن يُضعف قيمته ، وأن يضعه في المرتبة الدنيا ، في المرتبة الأقل بالنسبة لزملائه ممن يدرس اللغة الإنجليزية أو الفرنسية .

حرصوا على إيجاد الأذناب كحالة هذا الذي كان يخرج علينا كل يوم في الإذاعة ويقول لنا : اللغة نملكها كما كان القدماء يملكونها ، ولنا أن نُضيف إليها ما نحتاج إليه ، إلى غير ذلك من العبارات المسمومة ، التي تنطوي على السم الزعاف لهذه الأمة ، وفي هذه الكلمات البسيطة تبرير لهذه اللهجات العامية ، لإحلالها مكان اللغة العربية الفصحى ، مائة مليون مسلم عربي ، وألف مليون مسلم لا يمكن أن يجتمعوا اجتماعاً صحيحاً وتاماً إلا باللغة العربية الفصحى .

أما هذه اللهجات العامية ، فإنها تفرق بينهم ثم كانت بعد ذلك ، كانت البعثات وكانت الدراسات ، وكان خروج هؤلاء إلى الغرب وإلى الشرق ، وانبهروا بهؤلاء ، وترآى للبعض أنه لو تكلم بكلمة أجنبية ، لكان قد تقدم وتطور وتحضر ، ولأظهر للناس من نفسه نوعاً من التطور ، هكذا ترآى للبعض ، ترآى بهم أنهم لو وضعوا على المحلات كما نرى الآن كلمات أجنبية ، بل ما من محل إلا وهو يُغير اسمه ويُضيف له عبارة أجنبية أمر غريب ، الآباء يحرصون على تسمية أبناءهم بأسماء أعجمية وافدة، هكذا استشرى الحرص في وسط الناس ، علة كبيرة لها أسبابها ، ولها مُقدماتها عند هؤلاء ، فالواجب علينا أن نتعرف على ذلك .

أيضًا أقاموا الاحتفالات بالشعر العامي ، وبالأدب الشعبي ، وبثوا ذلك في كل أجهزة الإعلام ، من إذاعة وتلفزيون ، أدب شعبي ، وما هو إلا كلمات عامية ، يترتب عليها هدم كثير من الكتاب والسنة بسبب إشاعة هذه التحللات، وهذه اللهجات العامية ، بل هم وحرصًا منهم على إحلال هذه اللهجات مكان اللغة العربية ، ماذا صنعوا هنا وهناك ؟ ففي إفريقيا وغيرها ماذا فعلوه؟ كان الواحد في إفريقيا لكي يتعلم لابد أن يدخل الكنيسة ، ولابد أن يدرس تاريخ المستعمر ، بل ولابد أيضًا أن يتغير اسمه حتى يتسنى له أن يتعلم في هذه المدارس .

بل عندما رحل الاستعمار ، هو لم يرحل ويترك هذه الأمة هكذا لِتُسيِّر أمرها وفق

شرع ربها تبارك وتعالى ، أبدًا ، وكأنه امتن عليها مرة ثانية بالمدارس الأجنبية ومدارس اللغات ، وبكليات الألسن ، ثم يتخرج هؤلاء ليقودوا الأمة بعد ذلك ، عندهم ولاء لكل ما هو غربي ، حدث نوع من الإضعاف للأزهر ، وكان التدريس المادي للتاريخ ، ودخل هذا الأمر حتى فيما يتعلق باللغة .

حرب كما ذكرنا لا هوادة فيها ، فيجب علينا أن نكون على بصيرة من أمرنا ، فإذا ما أردنا أن نستعير كلمة من الغرب ، تتعلق باللغة ، فانظر لما يقوله الفرنسيون عن اللغة ، يقولون : هي الجنسية ، فهل فهمنا أقل من فهم هؤلاء ؟! .

وفي ألمانيا يُطلقون على اللغة : أنها مادة المواد ، فإنها المادة العليا ، انظر وقارن هذه الكلمات بما يحدث عندنا الآن ، أصبحت اللغة العربية في مرتبة بعد اللغة الإنجليزية ، وبعد غيرها من المواد .

حال مُريب كما ذكرنا ، بل هم في اليابان اشترطت عليهم أمريكا اشتراطات وافقوا عليها بعد هزيمتهم ، ولم يوافقوا على شرط واحد يتعلق بتغيير بعض اللغات عندهم ، وبعض الكلمات ، لم يُوافقوا على هذا الشرط حرصًا منهم على لغتهم ، فكيف نتنازل عن لغة القرآن الكريم؟! لا يليق بنا ذلك ، وإلا فكيف نتعرف على كتاب ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك ؟! .

يقول النبي ﷺ : « **من يُحسن العربية فلا يتكلم العجمية، فإنه يورث النفاق** » ، فالتكلم بغير العربية ، ولغير ضرورة صورة ومظهر من مظاهر النفاق ، يجب أن ينأى المسلم عنه .

نقول : نعم إن دعت الحاجة والضرورة للتكلم ببعض الكلمات الأعجمية، فلا مانع من ذلك ، كأن نحتاج إلى مُخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ، نحتاج لدعوة الخلائق الآن وبسبب حالة الضعف لابد أن نتكلم هذه اللغات للحديث إلى أهلها ، ولدعوتهم للدخول في الإسلام ، لابد من الرد على شبهات الاستشراق .

فلو تعلمنا من أجل هذا المعنى ، إذا تحدثنا بهذه الكلمات إذا دعت الحاجة والضرورة لذلك ، فلا مانع من هذا الأمر ، والنبي ﷺ قال : « **دونكم بني أرفدة** » للحبشة الذين كانوا يلعبون بالحراب في المسجد، وقال لأم خالد : « **هذا سنَه** » وكان قد أعطاها قميصًا ، وكانت صغيرة في السن ، وكانت قد ولدت بالحبشة ، فقال النبي ﷺ : « **يا أم خالد ، هذا سنَه** » والسنَه هو الحسن بلغة الحبشة .

أيضًا قال أبو هريرة ﷺ لمن اشتكى بطنه : أشكم دردم ، فقال له هذه الكلمة ، فإذا ما دعت الحاجة إلى ذلك فلا مانع .

والنبي ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود ؛ لأنه لم يستأمنهم عليه حتى يتكلم معهم ، وحتى يكتب لرسوله ﷺ .

الواجب علينا أن نتعلم لغتنا العربية ، وكل لغة سواء كانت الإنجليزية أو الفرنسية يجب أن تكون خادمة للإسلام والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه ، ولغة الإسلام أيضًا تعلو، ولا يُعلى عليها ، هي ستستمر بإذن الله تعالى ويتلاشى غيرها من اللغات و ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾[1] .

لغات كثيرة ظهرت وماتت بعد ذلك ، أما هذه اللغة العربية ، فإنها لغة القرآن ، وستستمر بإذن الله تعالى لن تموت حتى وإن حرص الغرب والشرق علي إماتتها وعلى إضعافها ، كما يصنعون الآن في إنجلترا وفي فرنسا وفي برلين ، هم يصورون لأبناء المسلمين غير العرب بأنَّ هذه اللغة لغة تليق بأهل البداوة لا تصلح للحضارة ، هم يحاولون ذلك .

بل من عجيب الأمر أن قامت كليات وجامعات عندنا على أساس غربي، وعلى أساس لغات أجنبية ، كل هذا يحتاج إلى وقفة يحتاج إلى تعريب ، وأن نرجع لكتاب ربنا ولسنَّة نبينا ﷺ ، وإلا فعمر بن الخطاب ﷺ قد نهى عن رطانة الأعاجم .

---

(١) الحجر (٩).

فلا يصح لنا أن نتكلم بكلمات لا نُحسن معناها ، وحتى لو كنا نُحسن معناها لا يصح لنا أن نتحدث بها حتى لا نتشبه بهؤلاء أو بهؤلاء ، أغنانا ربنا تبارك وتعالى ، وبين لنا ما فيه صلاحنا إن استمسكنا به .

فالواجب علينا أن نرجع لهذه اللغة ، نتعلم قواعدها ، ونُربي عليها أبناءنا، هذا هو الواجب علينا ، علاجًا لهذه الفرقة التي يبثُها الأعداء ، وهم يعملون فيها بسياسة فرق تسد .

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا ... وإذا افترقن تكسرت آحادا

نفرح لعناصر الوحدة ، ولابد أن نسعى في إضافة المزيد إليها حتى يلتئم الشمل وحتى تجتمع الكلمة ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[1] .

---

(١) الروم (٤ ، ٥).

كل الناس يغدو

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾(٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾(٣) .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عباد الله ، كل الناس يغدو منهم مُحسنٌ وظالم لنفسه مُبين ، ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾(٤)، منكم من هدي إلى صراط مُستقيم ، ومنكم من هو دون ذلك ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) ﴾(٥)، منكم البار والعاق، منكم المحسن والمسيئ منكم العادل والظالم،

---

(١) آل عمران (١٠٢).
(٢) النساء (١).
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).
(٤) آل عمران (١٥٢).
(٥) الملك (٢٢).

منكم من أحسن ومن أساء ، وكما افترقتم في الدنيا تفترقون أيضًا في الآخرة ، ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (١) ، لا يستويان عند الله ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾(٢) .

والكل يغدو ، ولا يستويان في غدوهما ، كما افترقا في الدنيا يفترقان في الآخرة، افترقوا في العمل والاستقامةعلى أمر الله تبارك وتعالى منهم من سابق الريح في مرضاة الله جل وعلا ، ومنهم من يمشي مشيًا ومن يحبو حبوًا ، ومنهم من يركض ركضًا فهل يستوون عند الله ؟ بالقطع لا ؛ لأن الله تبارك وتعالى هو الحكم العدل، ﴿ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ (٣) .

وكل هؤلاء لهم قضية ، أو هكذا يقولون ، لهم انشغالات ، ولهم أيضًا اهتمامات، أو هكذا يزعمون ، رغم التفاوت البعيد في قضاياهم ، وفي انشغالاتهم وفي اهتماماتهم، إلا أنهم يُضخمون قضاياهم ، ويُظهرون الهالة حول انشغالاتهم واهتماماتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة هذا الذي خرج يقول : لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا ، وخرج الثاني يُنازعه وقال : لو لم أكن سوريًا لوددت أن أكون سوريًا، وهكذا تنازعتهم الأوطان ، بل كان هناك من يغلو في هذه المسائل، فقال :

وطني إن شُغلت بالخُلدِ عَنْهُ لنَازَعَتْنِي إِلَيهِ في الخُلْدِ نَفْسِي

وكأنه حتَّى لو أدخل الجنة سيحن إلى وطنه ، هو منشغل بوطنه ، كان وطنيًا كما يقولون ، وكأنه نسي معالم دينه ، وأنه إذا ما انتقل إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض هي دار أجر وثواب ، من حن إلى الرجوع إلى الدنيا فحنينه أن يتزود من طاعة الله .

(١) الشورى (٧).
(٢) القلم (٣٥، ٣٦).
(٣) يونس (٤٤).

النبـي ﷺ يقول : «**وددت أن أُبعث فأقتل، فأبعث فأقتل، فأبعث فأقتل**»[١] أي يقتل في سبيل الله لمَا علم من أجر الشهيد ، وأراد أن يستحث أمته على ذلك ، ولكن هذا القائل وكأنه كان من جملة الشعراء ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾** ﴾[٢] .

مشاعر وأحاسيس كما يقولون يُتاجرون بها يُرسلونها على الملأ هكذا بلا ضابط ولا رابط حتى خالفوا بها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وإلا فأي وطن هذا الذي يحن إليه المرء بعد دخوله الجنة ، وقد نودي على أهلها إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا ، وأن تسعدوا فلا تبأسوا أبدًا، كيف يحن إلى وطنه ثانية ؟! .

ولكنها المغالاة ، اعتبر نفسه بعد ذلك صاحب قضية ، عنده اهتمام ، عنده انشغال ، فوطنه يؤرقه كما يقولون ، وصار الثاني على دربه وعلى شاكلته، وما أكثر القضايا ، وما أكثر الاهتمامات الشبيهة التي تنحطُّ بأهلها وبأصحابها ، هذا الذي خرج وقد سهد فكره وطار النوم من عينه بسبب محبوبه، خرج وكأنه يُناجي كلاب الحي ، وينشد الشعر في جدار المحبوب وفي الأطلال والآثار .

هذا الذي طار النوم من عينه بسبب ماذا ؟! هل قام يُناجي ربه تبارك وتعالى في فكاك رقبته أبدًا ، لمَّا خلا من معاني الإيمان جثم الشيطان على قلبه ، والشيطان جاثم على قلب العبد فإذا سها وغفل وسوس له الشيطان ، لما انشغلت القلوب بما سوى الله امتلأت خرابًا ودمارًا ، فكان الغرام وكان الهيام وكان الانشغال بالمحبوب على حساب دينه ، وكان هذا هو شأنه .

---

(١) «**والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل**» رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) الشعراء (٢٢٤ - ٢٢٦).

والفارق كبير بين انشغال وانشغال واهتمام واهتمام و ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [١] ، وكل قرين بالمقارن يقتدي والحيات مع الحيات ، والعقارب مع العقارب ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [٢] ، انشغل بصاحبة أو بصاحب ، انشغل بذلك عن دين الله جل وعلا ، وأين ذلك من انشغال الصالحين من عباد الله ؟، نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه قال : ﴿ هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ [٣] .

وما انتفع أخ بأخيه كما انتفع هارون بنبي الله موسى عليهما السلام ، صحبة تقرب من الله ترضي الله جل وعلا تعين على طاعة الله تبارك وتعالى، وما صحب الأنبياء مثل أبي بكر الصديق ﷺ ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [٤] .

هكذا كانت الصحبة ، ولكن البعض اعتبر قضيته وانشغاله هي هذا المحبوب أو هذه المحبوبة ، هذه هي قضيته ، هذا هو انشغاله ، هذه هي حياته ، على ذلك يكون مماته خرابًا ودمارًا يعيش به البعض ويعتبره قضية لابد أن ينشغل به ولابد أن يشغل الدنيا معه بهذه التفاهات ، وبهذه السفاهات ، انشغالات مريبة ، هذا الذي انشغل بالدرهم والدينار ، هذا الذي انشغل بالولد على حساب دينه ، هذا الذي انشغل بالمنصب وبالجاه والسلطان .

هرقل هذا لما علم ما علمه ، وكان قد سأل أبا سفيان هذه الأسئلة العشرة، قال :

---

(١) الزخرف (٦٧).
(٢) الفرقان (٢٧ ، ٢٩).
(٣) طه (٣٠ - ٣٥).
(٤) التوبة (٤٠).

إن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين ، ثُمّ أردف وقال : ولولا ما أنا فيه من الملك لرحلت إليه ولغسلت عن قدمه ، ويا ليته صنع ، ويا ليته فعل، لأنجى نفسه، لأخذ لنفسه بأسباب النجاة ، ولكنه شغله الملك عن الدين ، انشغل بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء ، تخوّف على ملكه، تخوّف على جاهه وسلطانه .

أين هرقل من النجاشي الذي لما سمع ما سمع من جعفر بن أبي طالب ﷺ، وكان قد تلا عليه آيات من سورة مريم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العودَ، وأمسكَ بيده عودًا ، علم أن ما جاء به رسول الله هو الحق فما انشغل بملكه العريض عن دين الله أسلم وجهه لله جل وعلا ، ولذلك صلّى عليه رسول الله ﷺ، وكبّر أربعًا بعد أن نعاه لأصحابه .

والفارق كبير بين اهتمام واهتمام، بين هذا الذي ينشغل بولد يتكثر به كحالة صاحب الجنتين الّذي قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، وقال لأخيه المؤمن : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[2] .

التكثر بالأموال والأولاد سيما موجودة عند المخالفين لدين الله تبارك وتعالى بعكس الصالحين من عباد الله كنبي الله زكريا عليه السلام الّذي قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾[3]، طلب ولداً يمتد به الصلاح ، يمتد به التقى ، تتوارث به معاني العبادة في دنيا الناس ، هذا هو دعاء الصالحين من عباد الله ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[4] .

الفارق كبير بين من سخّر الدنيا بدين الله ، امتلكها أخرجها من قلبه ووضعها في حقها كحالة الصالحين من عباد الله ، وبين من شغلته الدنيا عن الدين ، من

(١) الكهف (٣٦).
(٢) الكهف (٣٤).
(٣) مريم (٥، ٦).
(٤) الفرقان (٧٤).

امتلك شيئًا من أعراضها ، فكانت فتنته، كشأن فرعون الَّذي قال للمصريين: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾(١)، وقال: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾(٢)، كانت له قضية، كان عنده اهتمام وانشغال، ولكن بئس الاهتمام والانشغال الَّذي يصرف عن دين الله .

وكل ما شغلك عن طاعة الله فهو شؤم عليك، فكان ملكه شؤمًا عليه، وإلا فهو مات يوم مات أغرقه ربنا تبارك وتعالى في اليم، مات وهو يقول: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾(٣)، فقيل: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾(٤).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لقارون ، كان ماله شؤمًا عليه ؛ لأنه ضلَّ بسببه ، انصرف بسببه عن طاعة ربه تبارك وتعالى ، كحالة الكثيرين ، لا همة عندهم إلا العد وإلا الحساب ، مهموم مشغول ، مكدَّر الفكر ، بل هو حتى لم يتعم بماله، هذا قارون قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾(٥)، يقول سبحانه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾(٦).

أين هذه المنازل من الانشغالات الطيبة ، من الاهتمامات التي تعلمناها من دين الله ، والتي انصبغ بها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، أبو بكر الصديق ﷺ امتلك مالاً ، وتصدَّق بماله كله ، أعتق سبعة رقاب كلها كانت تُعذَّب في سبيل الله ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾(٧)، لَمَّا قيل له: ما أبقيتَ لأولادك ؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله . كان عندهم إيمان ويقين .

(١) غافر (٢٩).
(٢) الزخرف (٥١) .
(٣) يونس (٩٠).
(٤) يونس (٩١، ٩٢).
(٥) القصص (٧٨).
(٦) القصص (٨١).
(٧) الليل (١٩، ٢١) .

صُهيب الرومي هذا الرجل الذي دلَّ المشركين على ماله وهو في طريق هجرته لرسول الله ﷺ ﴿ ومِنَ النَّاسِ من يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ واللَّهُ رءُوفٌ بالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (١)، قال له النبيّ ﷺ: « ربح بيعك أبا يحيى » (٢).

عثمان بن عفان رضي الله عنه حافر بئر رومة، مُجهز جيش العسرة رضوان الله عليهم أجمعين، أخذوا المال من حله ووضعوه في حقه، علموا الغاية الَّتي من أجلها خلقوا، كانت لهم قضية، كان عندهم اهتمام وانشغال، والفارق كبير بين المسلم وغيره، لك شأن وللناس شأن.

هذا الذي يسهر الليل يعد النجوم ينتظر الصباح حتى يرى محبوبته، فارق كبير بين هذه النماذج الساقطة التي ضيعت دينها ودنياها في آن واحد، لم ينشغلوا بعمل صالح، وبين هذا الذي كان يترقب أمر ربه، فيقول: هل أصبحنا، فلما جاءوه في بعض الليل قالوا: قد أصبحت، قال: نعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، اللهم إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا لكرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر وقيام ساعات الشتاء الطويلة.

هكذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه وغيره من الصالحين، كان يقوم الليل يدعو ربه ويُناجيه، يقول: اللهم قد هدأت العيون ونامت الجفون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم، اللهم هب لي هدى ترده عليَّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد.

هكذا كانت مناجاتهم لربهم تبارك وتعالى، أظمأوا نهارهم، وأسهروا ليلهم، وقاموا يُناجون ربهم في فكاك رقابهم ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(٣).

والفارق كبير بين اهتمام واهتمام، وانشغال وانشغال، وبين قضية وأخرى، بين من عاش لدنياه، ومن عاش لدينه، الفارق كبير بين هذا وذاك، ﴿ وَفِي ذَلِكَ

(١) البقرة (٢٠٧).
(٢) أخرجه الطبراني وهو صحيح على شرط مسلم وله شواهد.
(٣) الذاريات (١٧، ١٨).

﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) ، ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢) .

هذا الذي كان ينشغل بفوات تكبيرة الإحرام مع الإمام، يؤرقه ذلك، يحزنه هذا الأمر، هذا هو الذي ينشغل به، إذا ما رأى جنازة لم يحدث نفسه إلا بما هي قائلة، وما سيقال لها ، هذا هو تحديثه لنفسه إذا ما رأى الجنازة ، هذا الذي كان يؤرقه إذا ما استيقظ بعد طلوع الشمس، إذا ما فاته قيام الليل إذا ما أعجب بأَمَةٍ عنده كان يقول: هي لوجه الله.

لم يرتضوا لأنفسهم أن ينشغلوا بشيء عن دين الله تبارك وتعالى ، رأوا الانشغالات والاهتمامات إذا كانت صارفة عن طاعة الله هي شؤم عليهم ، كانت عندهم كياسة ، كان عندهم فطنة ، علموا الغاية التي من أجلها خلقوا، وأن الكل يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، وأن الدنيا سوق قام ثم انفض ربح فيه من ربح، وخسر فيه من خسر .

الفارق كبير من باع نفسه لله ، وبين من باع نفسه للشيطان ، باع نفسه لدنيا لا بقاء لها ولا وفاء ، وهذا هو الخسران المبين ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾(٣) .

فارق كبير بين من عمل آناء الليل وأطراف النهار ، يخدم دينه ويخدم نفسه في المقام الأول ، وبين من انصرف عن مرضاة ربه سعيًا لشهوة يحصلها ، سعيًا لخدمة شياطين الإنس والجن ، يصد عن سبيل الله وينفر من طاعة الله تبارك وتعالى .

والكل يغدو فهل يستويان في غدوهما ؟ أبدًا ولا يستويان أيضًا في الجزاء المترتب على ذلك .

نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه في مرض موته وفي لحظاته الأخيرة ، أوصى بنيه ، فهل أوصاهم بالدرهم والدينار ؟! أبدًا ، قال تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ

(١) المطففين (٢٦) .
(٢) الصافات (٦١) .
(٣) الزمر (١٥) .

حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١)، وصية الأب الشفيق لأولاده، وصية المستبصر، الذي علم الغاية التي من أجلها خلق، وخلق أولاده لابد من وصيتهم بطاعة الله ، والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى .

انشغال بأمر الله هذه هي قضية الأنبياء والمرسلين ، ما من نبي إلا وقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٢)، ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٣)، شغلوا أنفسهم بطاعة الله ، وأرادوا للدنيا أن تسعد بدين الله تبارك وتعالى ، ولذلك كانت هذه الدعوات الصالحات .

تنكب البعض الطريق ، وخالفوا الصراط ، واعتبروا أنفسهم أصحاب قضايا واهتمامات ، وأصحاب انشغالات ينشغلون بمعصية الله ، والبعد عن دين الله ، لابد وأن نستقرئ دعوة الأنبياء والمرسلين ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٤) ، دخل نبي الله يوسف صلوات الله وسلامه عليه السجن على الرغم من ظهور براءته، هل جزع أو يأس من رحمة الله ؟! أبدًا ، هل انصرف عن مرضاة الله ؟! .

عبادة في العسر واليسر وفي المنشط والمكره، دعوة أرقتهم، انشغال بدين الله تبارك وتعالى ، قال: ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴿٣٩﴾ ﴾ (٥)، ومن قبل: ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴿٣٣﴾ ﴾ (٦)، ودخل من باب ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴿٢٣﴾ ﴾ (٧)، هكذا كانت عبوديتهم لله، هذا هو انشغالهم ، هذا هو اهتمامهم .

---

(١) البقرة (١٣٣).
(٢) الأعراف (٥٩).
(٣) النحل (٣٦).
(٤) الأنعام (٩٠).
(٥) يوسف (٣٩).
(٦) يوسف (٣٣) .
(٧) يوسف (٢٣).

ومن قبل كان نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، قال : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[1] ، أُخرج صلوات الله وسلامه عليه. وطُرد وحُورب، فثبت على طاعة الله، ابتلي فكان منه الإيمان واليقين صلوات الله وسلامه عليه ، دعوة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، علموا الغاية التي من أجلها خُلقوا وأنه لابد من صبر وثبات حتى يأتي اليقين ، والكل يغدو في النهاية ، وهم الأسوة والقدوة .

نبي الله صلوات الله وسلامه عليه جاهد في الله حق جهاده حتّى أتاه اليقين، تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فهل انصرف عن هذه الدعوة في لحظاته الأخيرة ، انصرف لهموم أو غموم اعترته لألم يعتصره؟! أبداً، وكأنه صلوات الله وسلامه عليه أراد أن يطمئن على هذه الأمة ، كانت السُّتُر مرخيَّة فرفعها ﷺ ونظر لصحابته ، حتى قال أنس بن مالك ﵁ : فرأيت وجه الرسول الله ﷺ كورقة مصحف ، ابتسم في وجههم ، ثُمَّ أرخى الستر، وفاضت روحه إلى بارئها .

في لحظاته الأخيرة مشغول بهذا الدين ، هذه هي الاهتمامات ، هذه هي القضية الَّتي نها تحيا ولها تموت ، ولم لا ؟! وربنا تبارك وتعالى قد امتن عليك ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[2] .

رب كل شيء ومليكه سبحانه ، فكيف ننصرف عن طاعته ، كيف لا ننشغل بأمره؟! كيف لا نحق الحق ونُبطل الباطل ، ونعيش لهذه الدعوة ، ومن أجلها يكون مماتنا . عمر بن الخطاب ﵁ في لحظاته الأخيرة ، وكأنه قد اغتم ، نظر إليه ابن عباس ﵄ فبادره عمر وقال: «أما ما تراه من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك» .

هذه هي القضية الَّتي عاش لها صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان هذه هي اهتماماتهم . وهذه هي انشغالاتهم ، ولذلك قال حاتم الأصم ، وكان قد سُئل

(١) الصافات (٩٩).
(٢) الشعراء (٧٨ - ٨٢).

عمـا يدخله في التـوكل ، قـال : « رأيت رزقي لا يأخـذه غيـري ، فاطمـأنت بذلك نفسي ، وعلمت أن عملي لن يعمله غيري فأنا مشغول به » ، هذا هو الذي انشغل به واجب العبودية ، عمله لن يقوم به غيره ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾[١] ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[٢] .

يقول : وعلمت أن عملي لن يعمله غيري فأنا مشغول به ، ورأيت أن الموت يأتي بغتةً ، فقلت أبادره ، ورأيت الناس ينظرون إلى ظاهري ، ورأيت الله ينظر إلى باطني ، فرأيت أن مراقبة الله أولى وأحرى .

وهكذا كانوا رحمة الله عليهم أجمعين ، انشغال بدين الله ، وعمل بطاعة الله ، خلقك وهداك صراطه المستقيم ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[٣] ، سبحانه لماذا لا نُسلم وجوهنا له ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[٤] ، الكل أسلم لخالق الأرض والسماوات، وكيف لا نُعَبِّدُ أنفسنا لخالق الأرض والسماوات ؟! كيف لا نستقيم على أمره ونعمل بشرعه ، وننشغل بما أمرنا بالانشغال به ، وبما انشغل به الصالحون من عباد الله .

والقلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، كان علي بن أبي طالب ﷺ يتأفف منهم ويقول: أفٍ لحامل حق لا بصيرة له ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة .

إن لم ننشغل بطاعة الله سننشغل بسفاهات ، وبتفاهات ، كحالة هؤلاء

(١) الطور (٢١) .
(٢) عبس (٣٤ - ٣٧).
(٣) الأعلى (٢ . ٣).
(٤) آل عمران (٨٣).

الذين ينشغلون بنعرات قومية واشتراكية ، وبغير ذلك من النعرات ، يعتبرون أنفسهم أصحاب قضايا ، أصحاب اهتمامات من دعاة الإصلاح يزعمون ذلك ، وهم في الحقيقة من المفسدين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١) ، هم يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، بانحرافهم عن القضية التي خلق الخلق من أجلها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢) .

أين هؤلاء من الذين ينشغلون ويظهرون أنهم مسهدون ومؤرقون بسبب نعرات جاهلية وفلسفات كفرية؟!، أين هؤلاء من أمثال صلاح الدين الذي كان لا ينام، ولكن من أجل تحرير المسجد الأقصى؟! قضايا إيمانية شغلوا أنفسهم بها، ونعم الانشغال أن تنشغل بطاعة الله تبارك وتعالى ، وأن تعمل الفكر في مرضاة الله، كيف تستقيم على أمر الله تبارك وتعالى أن تظل الليل تحاسب نفسك أو تقرأ آية ترددها؟، نعم الانشغال، والفارق كبير بين قضية وأخرى، والكل في النهاية يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها، فعليك أن تختار، ولا إخالك إلا ستختار طريق الاستقامة، طريق الهداية .

هؤلاء الأفاضل من شهداء أحد ، الذين قالوا بعد انتقالهم إلى الله : من يبلغ عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي الله عنا ورضينا عنه ، وكانت الآيات البينات التي نتلوها ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة (١١).
(٢) الذاريات (٥٦ - ٥٨).
(٣) آل عمران (١٦٩ ، ١٧٠).

انشغلوا بطاعة الله وبمرضاة الله تبارك وتعالى ، هذه هي القضية التي يجب علينا أن نحيا عليها ، وأنْ نموت عليها ، أن نُحقَّ الحقَّ ، وأن نُبْطِلَ الباطلَ ، وأن نُجردَ أنفسنا من أجلها ، هذه هي السعادة الحقيقية ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٥٨﴾ ﴾[١].

نسأله سبحانه أن يُلهمنا رشدنا ، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه ، **وأقول قولي** هذا وأستغفر الله لي ولكم .



(١) يونس (٥٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

عباد الله ، كل الناس يغدو ، ولكن لا ندري متى ينقضي هذا الغدو ، متى يكون الرواح ، لا ندري ونحن في غدونا مَنْ الفائز فنهنيه ، ومن الخاسر فنعزيه، من الرابح ومن الخاسر ، فالكل يغدو ، والذي نعلمه ونتيقنه أن فترة الغدو هذه قصيرة ، أعمارنا قصيرة إذا ما قورنت بأعمار من مضى ، هذا السوق الذي قام سرعان ما ينفض مرة ثانية ، فلا داعي لطول الأمل ، لابد من استعداد وإلا فسرعان ما ينفض هذا السوق ، وسرعان أيضاً ما ينتهي الغدو ، والرسول ﷺ بُعث بين يدي الساعة وقال : « **بُعثت أنا والساعة كهاتين** » وأشار بإصبعيه السباب والتي تليها » [١]، وقال : « **وإن كادت لتسبقني**» [٢] .

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ [٣]، وأنت ترى هذا وذاك قد ارتحل إلى الله تبارك وتعالى على الرغم من الصحة والقوة على الرغم من الشباب الذي كانوا يعيشونه ، على الرغم من طول الأماني ، فهذه الأماني التي تحيا أنت وتعيش بها ، تُمني نفسك بعمر طويل مديد .

هو الغدو سرعان ما ينتهي ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝١٨٥ ﴾ [٤].

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس .
(٢) صحيح الجامع (٢٨٢٩) .
(٣) الأنبياء (١) .
(٤) آل عمران (١٨٥).

كلكم يغدو ، أعمار مضروبة ، وأنفاس محسوبة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [١]، وسبحان من نوع بين خلقه، وفاوت بين عباده، والتفاوت واضح أمام أعينكم، وإلا ففترة الغدو هذه متفاوتة من شخص لآخر.

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [٢]، اعتبروا وخذوا درسًا ممن مضى ، الواجب علينا أن نرتحل ، وإلا ففترة الرواح – رضيت أم أبيت – ستأتي حتمًا لا محالة، ولذلك كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : « اغدوا فإنّا غادون، وروحوا فإنّا رائحون» .

موعظة بليغة وغفلة سريعة ، يروح الأول ولا يعتبر الآخر ، سرعان ما تروح كما جئت، جئنا وقد بصّرنا ربنا تبارك وتعالى ، بصّرنا لماذا خلقنا وإلى أين المصير ، **فأيها** الغادي، قف ساعة وتفكّر ، من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وإلى أين المصير ؟ أراحل أنت أم مُقيم؟ وإذا كنت مُرتحلاً فإلى أين ؟ إلى جنة أم إلى نار ؟ لابد من رواح، هذه ليست دارنا ، كلنا فيها غريب والواجب علينا أن نرحل « **كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » [٣] و« **إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح** » .

حالك كحالة التجار يدخلون السوق، هل يبيتون فيه ؟! ولو باتوا، هل يمكثون أبد الدهر فيه ؟ يعودون مرة أخرى إلى بيوتهم، وكذلك الأمر بالنسبة لك، لابد أن تروح إلى دارك، والجنة هي دار المتقين لها سبيل وطريق، ومن رحمة الله أن بصرنا بهذا الطريق، فالجنة سلعة غالية «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا أن سلعة الله الجنة**» [٤].

لابد من مُبادرة ومُسارعة « **بادروا بالأعمال سبعًا ، فماذا تنتظرون ؟! هل**

(١) الأعراف (٣٤).
(٢) الحشر (٢).
(٣) رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) رواه الترمذي وعبد بن حميد وأبو نعيم والقضاعي ، (٦٢٢٢) صحيح الجامع

تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرماً مُفنداً ، أو موتاً مُجهزاً ، أو الدجال ، فشرٌ غائب ينتظر أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر » [١] .

« اغتنم خمساً قبل خمس : اغتنم فراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » [٢] .

أنتم في عافية ، بادروا واعملوا بطاعة الله ، سارعوا في طاعة الله تبارك وتعالى ، لا يغرنكم بالله الغرور ، لابد من رواح إلى دورنا مرة ثانية والأمر يفترق، كما افترقت الأحوال في الدنيا ، فاختر لنفسك ، ثم أنت لا تدري متى يحين رحيلك ، متى تلقى ربك ، ربنا سبحانه لا تخفى عليه خافية ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴿٦﴾ ﴾[٣] .

أقام لك ربنا تبارك وتعالى أدلاء على الطريق ، أدلاء يُبَصرونك ، استيقظوا مُبكراً، والبكور كما هو معلوم فيه الرزق، فارق كبير من سمع « حي على الصلاة ، حي على الفلاح » ، فقام ينفض غبار الغفلة ، وبين من هو نائم، بال الشيطان في أُذنيه ، وقال : عليك ليل طويل فارقد ، متى يستيقظ مثل هذا؟ ، يفوته هذا السوق ، سوق الأرباح والتجارات قد فات بسبب نوم طويل ، بسبب غفلة والناس في غفلاتهم ، ورحى المنية تطحنُ .

وانظر لحالة التجار ، إن لم تلتفت لكتابٍ أو لسنةٍ ، ستأخذ درساً وعظة وعبرة ، البعض منهم يتناول طعامه وهو في مكتبه ، يقولون لا يجد وقتاً لكي يتناول الطعام مع أولاده ، ترى هل هو انشغل بدعوة ، انشغل بصلاة أو بصيام؟ أبداً ، انشغل بتجارات ونحو ذلك ، وأنت في رحيلك إلى ربك أنت بحاجة لحسنة تثقل الميزان، ﴿ **وَنَضَعُ**

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن (٩٤) رياض الصالحين، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» رقم (٢٣٠٦) ، و«الضعيفة» (١٦٦٦) .

(٢) **صحيح** ، رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس، «صحيح الجامع» (١٠٧٧) .

(٣) المجادلة (٦) .

الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾[١] .

أنت تستاجر مع الله ، وما خاب ولا شقي من تعامل مع الله جل وعلا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾[٢].

الأدلاء من الأنبياء ، ومن تبعهم من الصالحين يُبَصِّرونك بمواطن الردى، وإلا فهذه الأسواق قد يتواجد فيها غش وتدليس ، وبالتالي لابد من حذر ، حذورك من الربويات وغيرها ، وبصّروك بمواطن الربح ، وكيف تكون فائزاً في تجارتك إذا ما دخلت هذا السوق ، ولا سبيل للنجاح والفلاح إلا باقتفاء آثارهم إلا بالعمل بطاعة الله تبارك وتعالى .

النبي ﷺ ما ترك خيراً يُقرب الأمة من ربها إلا ودلّهم عليه ، ولم يترك شراً يُباعد الأمة عن الله عز وجل إلا وحذرها منه ، فأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾[٣].

احذر مواطن الردى كما تحذر الصفقات الخاسرة ، ومواطن الردى تكمن في المعاصي وفي المُخالفات، كيف نُشرك بالله ما لا يخلق شيئاً ، ما لا يملك لنفسه خيراً، ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾[٤] ، أنُسلم رقابنا لحكم وضعي ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[٥]، سبحانه يحكم لا مُعقّب لحكمه ويقضي ولا رادّ لقضائه ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ

---

(١) الأنبياء (٤٧).
(٢) البقرة (٢٦١).
(٣) النساء (٦٥).
(٤) الأعراف (١٩١).
(٥) الأعراف (٥٤).

﴿إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾[1] ، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾[2] .

إن كنت لا تتزحزح عن تجارات الدنيا الرابحة ، تحتال لأخذها بالحلال وبالحرام، الأمر في دين الله أهون ، لو عجلت بطاعة الله ، لو استقمت على أمر الله حتّى وإن صدك ومنعك من منعك ، لابد من ثبات على أمر الله حتى وإن شُهِّرَ بك ، حتّى وإن شوّهَتْ صورتك ، لابد من استقامة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ حتى يأتيك اليقين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[3] .

لابد من عمل بطاعة الله ، واستقامة على أمر الله في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى ذلك بايع رسول الله ﷺ صحابته الكرام ، فقال عبادة رضي الله عنه : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، وفي المنشط والمكره، وعلى أثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم فيه من الله برهان ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[4] .

عباد الله ، الكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، فاحرصوا على طاع الله، نفس تُنجيها خير من إمارة لا تُحصيها ، والأمر يسير إن عملت بطاعة الله، هذا يتوافق مع العقول السليمة، هذا يتوافق مع الفطر المستقيمة، هذا يتوافق مع الكتب المنزلة ، ومع الرسل المرسلة .

نعمة امتن بها ربنا تبارك وتعالى عليك ، فلا تجحد نعمته ، هي الفرصة لابد من اغتنامها ، هذه هي الفرصة الحقيقية .



---

(١) يوسف (٤٠) .
(٢) الكهف (٢٦) .
(٣) الأحقاف (٣٥) .
(٤) رواه البخارى ومسلم (١٨٩) «رياض الصالحين»، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

صور من العناد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾[٣] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

عباد الله ، العناد آفة مهلكة توعد ربنا تبارك وتعالى وتهدد أهلها ، فقال سبحانه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾[٤]، وقال سبحانه : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾[٥] .

ونعى على هؤلاء الذين عصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، نعى عليهم هذا

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١) .
(٤) ق (٢٤) .
(٥) إبراهيم (١٥) .

العصيان هذا الجحود هذه المخالفة والمُجاهرة بها عن علم ، أعرضوا عن أمر الله تبارك وتعالى وكان إعراضهم بالقول تارةً وبالفعل والسلوك تارةً أخرى .

كان هذا هو شأنهم ، هذا العناد كم من إنسان أورثه الكفر ، كم من بيت تخرب ، وأسرة تهدّمت بسبب هذا العناد ، كم من معصية ارتكبت ومخالفة وقعت في الناس بسبب هذا العناد كم من آصرة تقطعت ، وقد أمر ربنا تبارك وتعالى بها أن توصل ، ولا سبب لتقطعها إلا هذا العناد الذي يسيطر على العقول وعلى القلوب ، فيورد الإنسان موارد الهلكة دون اتعاظ ، ودون اعتبار لهؤلاء الذين قصّ علينا ربنا تبارك وتعالى قصصهم ، وفيها عظة وعبرة لأولي الألباب .

■ **قال سبحانه :**

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾، قال : **﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾**[(١)].

جزاءً وفاقًا ، وما ربك بظلام للعبيد ، تهدده سبحانه قال : **﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾** وكان يدعي أنه الوحيد ابن الوحيد لا نظير له في العرب هو الوليد بن المغيرة، توعده ربنا على صلفه وغروره وعناده كان يصد عن سبيل الله، كان يؤذي رسول الله ﷺ ، وهو الذي سمع الآيات البينات ، فقال : والله إنّ أعلاه لمُثمر ، وإنّ أسفله لمُغدق، وما هو بقول البشر ، ثم نكث على عقبه القهقرى ، فقال : إن هذا إلا قول البشر ، فتوعده سبحانه فقال : **﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾** .

يقول : **﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) ﴾** مالا

(١) المدثر (١١ - ٢٦).

امتدّ بين الشام وبين اليمن ، عاش حياة الرفاهية ، كان مُطمئناً في بلده إلا أنه جحد نعمة ربه عليه ، ما واجه هذه النعم بشكرٍ وإيمانٍ ، وإنما بجحود وطغيان ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ فما زال في نقصان في المال والولد بسبب كفره وطغيانه وانحرافه عن منهج الله ، ولا سبب لهذه الهلكة في الحال والمآل إلا العناد ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ عناد أورثه نيران الجحيم .

▪ قصَّ علينا ربنا تبارك وتعالى قصة ابني آدم فقال :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾[١] .

قصة عظيمة النفع والقدر ، قصة بليغة تحكي لك حالة من حالات العناد وكيف أنَّ الإنسان مع رؤيته للحق ومعرفته به قد لا يرتدع عن غيه ، قد لا يُنيب إلى ربه ، وإلا فقابيل قدم قرباناً لم يتقبل وكان عادتهم إذا ما تقبل القربان أن تنزل نار فتأكله وهذه آية بينة ، هذه علامة راجحة لا تحتاج إلا أن تراها لكي تُؤمن بالله ، ولكي تتعرف على وجه الخطأ من الصواب ، فقربانه لم يتقبل ، هل تاب وأناب إلى الله تبارك وتعالى ؟ هل ارتدع عن غيه ؟ هل عاد على نفسه باللائمة ؟ ، لا ، تطاول في غيّه ، وكان منه العناد ، تهدد أخاه المؤمن ، فقال : ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فقال له أخوه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، أي ما أوتيت إلا من قبل نفسك فعد عليها باللائمة لا

(١) المائدة (٢٧ - ٣١) .

أن تتهددني ، ورغم هذا النصح ، وهذا البيان ، هل ارتدع عن قتل أخيه ؟ لا ، أقدم على قتل نفس بريئة ، ولذلك ما من إنسان يُقتل ظلمًا إلا وكان على ابن آدم الأول كفل من دمه [١] .

هذا قتل عمد، عظّم ربنا تبارك وتعالى الحرمات، فقال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾[٢] .

أقدم على هذه الجريمة على الرغم من معرفته بالحق ورؤيته له ، نوع من العناد، قد يُجرأ العبد ، قد يتطاول على حدود الله تبارك وتعالى ، يُسرف على نفسه في الذنوب وفي المعاصي ، رغم معرفته ورغم مشاهدته لهذه الآيات البينات ، ولذلك يكون الذنب أعظم والجرم أكبر .

■ **انظروا فى سورة المائدة فى هذه القصة التى ساقها لنا ربنا جل وعلا وختم بها هذه السورة :**

سأل الحواريون نبيهم عيسى صلوات الله وسلامه عليه ، قالوا : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) ﴾

وانظروا فى هذه الخاتمة: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾[٣] .

---

(١) روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ : « لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل».

(٢) النساء (٩٣).

(٣) المائدة (١١٢ – ١١٥).

هذه هي السنن ، هذه هي السنن الشرعية والسنن الكونية ، إذا ما كانت المعجزة وطلبتها ورأيتها ثم استمر الإنسان على غيه وعلى عناده لا تنتظر إلا العذاب الأليم ، أنت عاينت آثار القدرة ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وقابيل رأى هذه الآية ، النار نزلت فأكلت قربان أخيه ، وامتنعت عن أكل قربانه ، كان الواجب عليه أن ينيب إلى ربه ، أنْ يعلم أنه ما أوتي إلا من قبل نفسه ، ولكن العناد جعله يتطاول ، فسفك الدم الحرام .

■ **العناد الذى قصّه ربنا تبارك وتعالي فى قصة إبراهيم مع النمرود:**

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (١) .

هل بعدما بُهت الذي كفر آمن بالله ، أسلم وجهه لله تبارك وتعالى ؟! أبداً ، ظهر عِواره وبواره ، ومع ذلك استمر مع صلفه وغروره وإعراضه عن أمر الله وجحوده ، كان مُعانداً ، ولذلك تهدد ربنا تبارك وتعالى كل جبار عنيد مأواه جهنّم خالداً فيها جزاءً وفاقًا ، وما ربك بظلام للعبيد .

■ **انظروا فى سيرة رسول الله ﷺ ستجدون صور العناد قد حدثت من المشركين:**

صور كثيرة ، لما رأوا القمر قد انشطر سألوه الآية ، فانشقّ القمر، فكان فرق منه على جبل أبي قبيس والثاني على الجبل المُقابل له ، هل آمنوا وقد طلبوا هذه الآية فرأوها ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ ﴾ (٢) .

(١) البقرة (٢٥٨) .
(٢) القمر (١) .

هل آمنوا بالله ؟ أبداً ، انطلقوا للبادية يسألون أهلها هل رأوا ذلك الأمر ؟ فقال أهل البادية : رأينا انشقاق القمر ، فقالوا : سحر مستمر ، أي في البادية وفي الحاضرة سحر ، وما رفعوا بذلك رأسًا ، وما آمنوا بالله تبارك وتعالى، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (١) ، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (٢).

هو الإعراض والجحود هو التجاهر بالباطل هذا شأن المعاندين في كل عصر ووقت، حكى لنا ربنا عن أهل الكتاب : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ (٣)، بشارة رسول الله ﷺ موجودة في كتبهم يعلمون صدق رسول الله ﷺ، وأنّ المستقبل لدين الله نحواً من مائة وخمسين بشارة موجودة في التوراة والإنجيل .

وكان عبد الله بن سلام يقول : والله إني لأعرف نعته أكثر من معرفتي بابني ، وقد صدق عبد الله بن سلام ، كان حبراً من أحبار اليهود ، كان على معرفة بالكتاب الأول، قرأ خبر رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وجفل إليه الناس ، كان فيمن جفل يقول: فرأيتُ وجهًا ليس بوجه كذّاب ، أماراتُ الصدق تبدو في وجهه الشريف صلوات الله وسلامه عليه ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة، إلى غير ذلك من النعوت والأوصاف التي ذُكر بها رسول الله ﷺ في كتبهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (٤).

---

(١) الأعراف (١٤٦) .
(٢) الأعراف (١٧٩) .
(٣) البقرة (١٤٦).
(٤) الأعراف (١٥٧).

وعلى الرغم من ذلك - على الرغم من أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم- إلا أنهم امتنعوا عن تصديقه ، امتنعوا عن إسلام الوجه لله ، ما الذي منعهم من ذلك إلا العناد .

هل هم عندما جحدوا وأعرضوا كان ذلك حتى عن جهالة ؟ لا ، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، بل والمشركون كأبي جهل ، كلهم كان يعلم صدق وأمانة رسول الله ﷺ، ولذلك لما سُئل أبو جهل هل يشك في صدق رسول الله ﷺ، فأجاب بالنفي، يعلم أنه صادق ، ولكن ماذا يفعل كانوا كَفَرَسَي رهان .

كانوا يعلمون صدقه ، بل لما سأل هرقل أبا سفيان ، وكان في تجارة بالشام ، سأله أسئلة عشرة ، قال له من جملة هذه الأسئلة : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أنْ يقول مقالته هذه ؟ فقال له أبو سفيان : لا ، فقال له هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ، فيكذب على الله تبارك وتعالى، وعلم أن رسول الله سيملك موضع قدميه، قال: «ولولا ما أنا فيه من الملك لرحلت إليه ولغسلت عن قدمه»[1].

هكذا كانت المعاني ، ولكنه العناد ، لكنه الإسراف على النفس في الذنب وفي المعاصي .

▪ حكى لنا ربنا تبارك وتعالى قصة فرعون :

قال : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [2]، انظر كانوا عالمين بأن نبيّ الله موسى على حق ، وأنهم على باطل ، كانوا يعلمون أنهم مخلوقون ومربوبون ، ولكنه العناد ، ولذلك قال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[3] .

كانت المناظرة بين نبيّ الله موسى عليه السلام ، وبين فرعون ، ظهر عوار وبوار هذا

---

(١) رواه البخاري.
(٢) النمل (١٤).
(٣) الإسراء (١٠٢).

الفرعون ، انظروا لما خرجت العصا حية تسعى ، وظهر إفك فرعون ، وانقلبت السحرة صاغرين ، قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (١)، هل آمن فرعون ؟ لا ، رأى هذه الآية البينة ، هو الذي دعا إلى اللقاء، فظهرت حجة نبي الله موسى ﷺ ، لم يؤمن فرعون، ما الذي منعه إلا العناد، عنادٌ مهلكٌ وجب علينا أنْ نحذره .

يحكون عن لينين مؤسس الشيوعية هذا ، وهو على فراش الموت جعل يقول : يا رب يا رب ، فجعل شياطين الإنس ممن حوله ، أتقول يا رب ، فقال لهم : إنما هو هذيان الموت .

ما الذي منعه من أن يُؤمن ؟ من أن يستمر على هذه الكلمة الطيبة ؟ من أن يُسلم وجهه لله تبارك وتعالى بدلاً من الإلحاد والكفر ؟ ولكنه العناد والإصرار على الغي والجهر بالباطل، جحود وإعراض وانحراف عن منهج الله جل وعلا يزيد هنا وينقص هناك يتفاوت من شخص إلى آخر .

وأنت قد لا تخلو من عناد ، وقد تُسميه بغير اسمه ، وما أكثر الكلمات والتعبيرات التي استُعيرت واستُخدمت في غير مواضعها ، صرنا نُسمي العناد باسم الاعتداد بالرأي والشخصية ، واعتزاز بالنفس ، والثبات على الرأي والقول ، وكلها صور من صور العناد ؛ لأنك تعلم أنك قد خالفت الحق والشرع ، كان الواجب عليك أن تتوب لا أنْ تُسمي الأشياء بغير اسمها ، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال: « ليأتين أناس من أمتي يشربون الخمر ، يسمونها بغير اسمها ، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات » (٢).

وهذا الذي يعق والديه ، تُرى ألم يقرأ حديثًا ، ألم يسمع كلمةً عن عيد الأم

---

(١) الشعراء (٤٧).
(٢) روى ابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ « ليكوننّ في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ ، وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف » صحيح (٥٤٦٧) صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة (٢٢٠٣) ، ورواه الإمام أحمد والترمذي .

مثلاً (١) ، إن لم يسمع شرعاً ولا ديناً ، حتى المشاعر الفطرية والعقل وكل شيء يقوده إلى البر بوالديه ، لماذا ضرب أمه ؟ ولِمَ يشتم الثاني أباه ؟ والعصر الذي نعيشه هو عصر العقوق ، لماذا صَنَعَ ما صنع؟ ولماذا يستمر على غيه؟ يُشاهد أنين الأم ويسمع بكاء الأب إلى غير ذلك مما يُشاهد ، نوع من العناد يَلُمُّ بالنفوس ويوردها موارد الهلاك .

لا يصح أبداً أنْ تحقر من المعروف شيئًا فمعظم النار من مستصغر الشرر ، هذا الذي يسيء معاشرة زوجته ، ضرب وشتم إلى غير ذلك من صور الانتقاص لماذا صنع ما صنع؟ أنت اعتقدت اعتقاد الحق ، فهذا هو الذي تثبت عليه لا يقبل أبداً التزحزح، لا يقبل أبداً التلون ، ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ (٢).

طلبوا من رسول الله ﷺ أن يعبد إلههم عامًا ، ويعبدوا إلهه عامًا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ ، هذه قضية لا تقبل المساومة ، لا تقبل المُفاصلة ، لما طلبت ثقيف من رسول الله ﷺ أن يستمهلهم في تكسير الأصنام ثلاث سنوات رفض ذلك ، فاستمهلوه شهراً، فرفض ذلك ، ثم طلبوا منه أنْ يَعْفيهم من تكسير الأصنام ، فكسرها هو صلوات الله وسلامه عليه ، هذا مطلب لو حدث فيه اجتهاد ، تكسر أنت الأصنام أو أكسرها أنا ، المهم أن تكسر الأصنام .

فهناك مواطن يسوغ فيها الاجتهاد والنظر ، فيها سعة ، أما مسائل العقيدة فلا تقبل ذلك .

---

(١) ليس هذا إقراراً من فضيلة الشيخ لعيد الأم ، إنما المقصود أنه لم يسمع كلمة عن الأم وفضلها على أقل تقدير في هذا الوقت من المتحدثين الذين يحتفلون بذلك اليوم ، فيستشعر تقصيره وتضييعه وعقوقه .
(٢) الكافرون.

منهج الدعوة والتربية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾[٣] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

عباد الله ، ما كان للنفس أن تتقطع حسرات على هذه الأجيال ، وعلى هذا الشباب الذي أصبح يتيه في ظلمات الشهوات من زنا ومن لهو ، ومن عبث وفجور ومجون ، ما كان للنفس أن تتقطع حسرات على هؤلاء الذين تربوا على مناهج الإلحاد والكفر ، سواء كانت شيوعية أو علمانية ، أو غيرها من المناهج التي أصبح الناس يتربون عليها ، ما كان للنفس أن تتقطع حسرات على هذه الأمور ، بل عليها أن

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠ ، ٧١) .

تعمل وأن تسعى ، وأن تدعو ، وأن تمتثل نهج الله الذي أمرنا به في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وكان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يقول : « وددت لو أن الخلق أطاعوا الله ولو قُرِضَ لحمي بالمقاريض » ، هذا ما كان يتمناه عمر بن عبد العزيز ، هؤلاء الناس يحتاجون منا أن نقترب منهم ، وأن نتودد إليهم ونتحبب، أن نُزيل هذه الشبهات التي راجت في أوساطهم ، أن نَرفُق بهم ، وأن نمد إليهم أيدينا كي ننتشلهم من بحار الرذيلة، ومن بحار الشهوات التي تردّوا فيها ، هذا الأمر يحتاج منا إلى رفق ولين، بدلاً من أن نتباعد عنهم ، ونتقوقع ، فهذه ليست من شيمة المسلم، فهو صاحب وظيفة وصاحب دعوة، وأساليب الدعوة الناجحة تقوم على أسس، فلابد أولاً من تشخيص الداء، ثم تعيين الدواء، ثم إزالة الشبهات التي تمنع هؤلاء المرضى من رؤية الدواء، ثم ترغيبهم في أخذه، وترهيبهم من تركه ، ثم تعهُّد المُستجيبين منهم بالتربية، حتى لا ينتكسوا مرة أخرى إلى حمئة الرذيلة التي كانوا يُمارسونها في يوم من الأيام.

فالداعية ما هو إلا طبيب ، ولكن طبيب الأرواح والقلوب ، يُشخص الداء ويُعيِّن الدواء ، ولا يقتصر ولايكتفي بأعراض المرض محاولاً علاجها ، بل يبذل وسعه وجهده في تغيير أصل هذه الأعراض التي على أساسها نشأت ، فما هو أصل الداء ، وما هو أصل الدواء ؟!.

إذا ما بحثنا ونظرنا سنجد أن الداء واحد على مر العصور والدهور ، وهو الكفر بالله تبارك وتعالى ، والانسلاخ عن أمره ، هو الركون للدنيا والكفر باليوم الآخر ، وأصل الدواء يكمن في الإيمان بالله ربًا وإلهًا ، لا رب غيره ، ولا معبود بحق سواه ، أصل الدواء يكمن في معرفة هذه الدار وحقيقتها ، وما هي الدار الآخرة التي يجب على كلٍ أن يسعى لها سعيها وهو مؤمن بها ، هذا هو أصل الدواء ، والذي يُحتم علينا أن

(١) الرعد (١١).

نُركز على أمر العقيدة ، يجب علينا أن نُركز على هذا الأمر الخطير ، فالعبادات كلها يجب أن تصرف لله تعالى ، سواء كانت مالية أو بدنية أو قلبية ، فكل طاعة وكل عبادة لا تصرف لغير الله ، وإن صرفها إنسان لغير الله ، فهو مُشرك بالله تعالى .

المؤمن يُنزه ربه تبارك وتعالى، يصفه بصفات الكمال التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، يُحَكِّم شريعة ربه ، فلله الأمر والنهي يحكم لا مُعقِّبَ لحكمه، ويقضي ولا رادَّ لقضائه، إذا ما تأصلت العقيدة في النفوس، سهل على الإنسان بعد ذلك أن يمتثل معاني الإسلام، وإذا لم يُسلِّم لهذه العقيدة سهل عليه أن ينسلخ عن أمر ربه تبارك وتعالى .

ومن هنا وجب علينا أن نُركِّز على هذا الجانب الخطير ، وليس معنى ذلك أن نُغفل هذه الأمور الخطيرة التي تردَّى إليها المجتمع ، فنربط هذه الآثار الخطيرة بالتهاون في ترك العقيدة .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾[(١)]، فربط لوط بين هذه الفاحشة التي شاعت في قومه ، وهي فاحشة اللواط ، وبين التباعد عن دائرة الإيمان.

وهذا ما بينه ربنا تبارك وتعالى في سورة المطففين ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾[(٢)]، فربط ربنا تبارك وتعالى تطفيف المكيال والميزان بأمر الإيمان باليوم الآخر والقيام لرب العالمين للحساب .

---

(١) الشعراء (١٦٠، ١٦٦).
(٢) المطففين (١ – ٦).

فيجب علينا أن نُبين هذا التمرد ، وهذه المخالفات التي تحدث بجوانب العقيدة وشمولها ، لكل شيء يحدث في الحياة ، فلو استقام الإنسان على أمر ربه ورسخت العقيدة في نفسه لم يسرق ولم يزني ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها، وهو مؤمن** » [(١)] إلى آخر ما عدد النبي ﷺ ، فالإيمان بالله ربًا وإلهًا يقتضي منا أن نستقيم على شرع الله تبارك وتعالى .

وقد يهوى الداعية هذه الآراء التي يتحاكى بها الناس ، فيتباعد عن تطبيق قضية العقيدة في النفوس ، يُحلل الأمور تحليلات بعيدة عن جوانب الإيمان ، وحينئذ تكون النتيجة أن يناقشه الناس فيما يقول ، فهو حينئذ لم يأت بجديد لا يعرفه الناس ، فينجر انجراراً إلى مُعالجة الأمور من السطح تاركًا الأساس، وسُرعان ما ينهار هذا البناء على أصحابه ، ومن هنا وجب علينا أن نُركّز على هذه القضية الخطيرة ، أن تكون هي المقدمة ، وتقديم الأهم على المهم أمر واجب كما يقول العلماء .

بيّن ربنا تبارك وتعالى أنه ما من نبي أو رسول إلا ودعا قومه لإخلاص العبودية لله تبارك وتعالى ، هكذا صنع نوح وهود عليهما السلام، وهكذا صنع رسولنا ﷺ ، كلهم قال لقومه : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [(٢)] .

على الداعية أن لا يتناسى هذه الشبهات ، عليه أن يسعى وأن يبذل جهده في إزالة الشبهات التي يروجها الملأ وهم الكبراء والسادة ، حريصين كل الحرص على بث هذه الشبهات حتى ينصرف بها الناس عن دعوة الله ، وعن الدخول في دين الله ، يكررون هذه الشبهات ويزينونها على أدمغة الناس، فتكون النتيجة أن يتقبلها الناس ويتحاكون بها، وتكون في النهاية بمثابة الأمور المُسَلمة يندفعون في مُحاربة من

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي .
(٢) الأعراف (٥٩).

يُخالفها، والملأ يقفون يضحكون منهم ويسخرون لكون هذه الشبهات قد روجت عليهم.

الشبهات واحدة ، هي هي ، لا تكاد تتغير ، ولا تكاد تتبدل ، سُنَّة الله في خلقه وفي عباده ، فلابد من وجود هؤلاء يُروجون لهذه الشبهات على الناس ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [1] .

ولا تتباعد عن دعوتك بحجة أنهم سيقولون كذا وكذا ، وسيشيعون عنك كذا وكذا ، فلست أنت بأحسن حالاً من الأنبياء والمرسلين ، أنت لست أكثر إخلاصًا منهم ، ولا بأكثر تأييداً من الله لك ، هذا التأييد كان عليهم أتم، وإخلاصهم كان أكمل لله تبارك وتعالى ، وبالرغم من هذا وجهت إليهم هذه الشبهات ، يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [2]، وأنت سيُقال لك مثل ما قيل للرسل من قبلك ، ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [3] .

فقد أشاعوا هذه الشبهات على الأنبياء والمرسلين ، وقالوا ساحر أو مجنون ، هذه الشبهات قد تلحق الداعية ، وقد يُطلقونها على شخصه ، وأنه جاهل وأنه كذا وكذا، وقد يُطلقون الشبهات على دعوته ، أن هذه الدعوة دعوة مُخترعة ومُبتدعة وغير صالحة، وقد يُطلقون هذه الشبهات على رؤوس المدعوين أنهم حريصون على مصلحتهم، حريصون على دين الآباء والأجداد ، وأن هذه الدعوة ستحرفهم عن طمأنينتهم وعن راحتهم ، هكذا تُدار الشبهات ، وهكذا يطعنون في الدعاة .

انظروا مثلاً ما قالوه لهود عليه السلام ، قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ [4] ، فطعنوا في شخصه ، وأحيانًا يصفون الدعاة بأنهم يطلبون الرياسة،

---

(١) فاطر (٨).
(٢) فصلت (٤٣).
(٣) الذاريات (٥٢ ، ٥٣).
(٤) الأعراف (٦٦).

كما قالوا عن نوح عليه السلام : ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(١) .

يقولون حينًا أن هذه الدعوات لها اتصالات مشبوهة، كما ذكروا عن رسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾(٢) .

فهذه الدعوة لها اتصالات مشبوهة ، وأن هذا الداعي رجل مغمور لا هو في العير ولا هو في النفير ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٣) .

وأن أتباع هذا الداعي أُناس مغمورون أيضًا ، لا رأي لهم ولا تفكير عندهم ، وهذا ما ذكروه عن نوح عليه السلام ، ومن آمن به ، قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(٤) .

ما واجب الداعية إزاء هذه الشبهات ؟

يجب عليه أن يبتعد عنها ، وأن لا يُعطي هذه الشبهات ما تستند إليه ، هذا هو الواجب عليه ، فهو كالطبيب ، إذا ما علت صرخات المرضى ، فهذا الأمر لن يجعله يترك المرضى يموتون ، بل حتى لو حاولوا أن يشتموه يومًا أو يضربوه يومًا آخر ، فسيظل على ما هو عليه ؛ لأن له وظيفة ، وله مهنة لابد وأن يرفق بهم ، وهو يعلم أن هذه الصرخات وهذه الصيحات ما هي إلا بعض أعراض أمراضهم ، فسيرفق بهم ؛ لأنه لا يُريد الانتقام منهم ، ولا يُريد إهلاكهم ، إنما يُريد علاج هذه الأمراض التي استفحلت فيهم ، سيرفق بهم ، ويتحين الفرصة حتى يبلغهم أمر الله تبارك وتعالى .

بل على الداعية أن يتباعد عن الكثير من المباحات التي يتخذها الملأ مثار شبهات،

(١) المؤمنون (٢٤) .
(٢) الفرقان (٤ ، ٥) .
(٣) الزخرف (٣١ ، ٣٢) .
(٤) هود (٢٧) .

يصرفون بها الناس عن الاستجابة لهذا الداعية ، ولذلك وجدنا الرسل جميعًا ، يقولون لأقوامهم أننا ما أردنا بهذه الدعوة أجرًا منكم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[١] ، ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢]، فهذه الدعوة خالصة لله تبارك وتعالى .

وانظروا أيضًا إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٣]، بالرغم من أن القراءة والكتابة من الأشياء النافعة، إلا أن الإنسان قد يترك شيئًا نافعًا في سبيل دفع هذه الشبهة ؛ لأن العلماء يقولون درء المفاسد مُقدم على جلب المصالح ، ودفع أقل الضررين بتحمل أقلهما ، فيتحمل هذا الضرر البسيط في سبيل دفع هذه المفسدة العظيمة .

أيضًا يقول الله تبارك وتعالى في حق نبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[٤] ، فالرسول ﷺ ما بلّغ هذه الدعوة إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، واشتهر بالصدق والأمانة ، فاندفعت كثيرٌ من شبهات المشركين .

فعلى الداعية أن يلحظ هذا الأمر وأن يضعه نصب عينيه ، فإن الشبهة إذا ما رُوِّجت ستتلقاها نفوس ضعيفة ، ونفوس جاهلة ، ونفوس مُتربصة تشيع هذه الشبهة ، وبالتالي يصعب على الداعية أن يستخرجها من نفوس الناس ، اللهم إلا بجهد كبير ، فإذا ما وسعه ابتداءً التباعد عن هذه الشبهات أو إبطالها ، أو عدم الإتيان بما تستند إليه، فعليه أن يفعل ولا يدخر وسعه في ذلك ، يترك هذه المباحات التي هي من حظ نفسه، ولا يسعه أن يترك شيئًا من خصوص دعوته .

فلا يسع الداعية أن يترك الدخول على الأمير لنصحه ، بحجة دفع شبهة تقول أنه لو دخل عليه لكان من بطانته ، ومن حاشيته ، هذا الأمر من أخص خصوصيات

---

(١) الشعراء (١٠٩).
(٢) سبأ (٤٧).
(٣) العنكبوت (٤٨).
(٤) يونس (١٦).

الدعوة ، فلا يسعه أن يتخلف عنه أو يتركه ، عليه أن يدخل على هذا الأمير يبذل له النصح خالصًا لوجه الله تبارك وتعالى ، وهكذا كانت بيعتهم لرسول الله ﷺ .

يقول عبادة بن الصامت ﷺ : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، وفي المنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » (١) .

«وسيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله» (٢).

يسلك الداعية في هؤلاء المدعوين مسلك الترغيب والترهيب، وهذا المسلك نجده كثيرًا في كتاب الله، وعلى لسان رسول الله ﷺ، انظروا مثلاً في دعوة نوح عليه السلام حين يقول لقومه: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ⑫ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ⑯ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ⑰ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ⑱** ﴾ (٣)، هكذا كانت دعوة نوح عليه السلام ، وهكذا كانت دعوة رسول الله ﷺ ، قال لما بايع أصحاب العقبة الأولى : « **إن وفيتم فلكم الجنة** » (٤) ، وكان ﷺ يمر على آل ياسر فيقول : « **صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة** » (٥) .

والأصل في الجزاء أن يكون أخروي ولا مانع أن يكون دنيويًا في حالة الاستجابة لأمر الله ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا**

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وهو « حسن » (٣٦٧٥) صحيح الجامع .
(٣) نوح (١٠ - ١٨).
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت ، وفيه : « **فمن وفى منكم فأجره على الله** » (٢٦) صحيح الجامع .
(٥) سيرة ابن هشام (٣١٩/١ ، ٣٢٠) .

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (١).

على الداعية أن يُذكّرهم نعم الله التي تدعوهم لطاعته، ونعمُ الله لا تُعدُّ ولا تُحصى، وننظر إلى سورة قريش: ﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤** ﴾(٢) إذا كان الله تبارك وتعالى قد امتن عليهم بهذه النعم، فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

على الداعية أن يُبين لهم حقيقة الدنيا ومكانتها في الآخرة، «**فما الدنيا في الآخرة ، كما يضع أحدكم إصبعه في اليم ، فلينظر بما يرجع**» (٣)، بماذا سيرجع هذا الإصبع ، لا شك أنه لن يرجع بشيء ، وكذلك الأمر بالنسبة للدنيا إلى الآخرة ، فمن أحب دنياه أضر بآخرته ولابد ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ولابد ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، و « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مُستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء** » (٤) ، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

فإذا ما استجاب الناس لدعوته ، والنبي ﷺ يقول : « **لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم** (٥)» (٦) خير لك من الدنيا وما فيها .

(١) النور (٥٥).
(٢) قريش .
(٣) صحيح رواه الحاكم (٥٥٤٧) صحيح الجامع بلفظ : « **ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم ، فأدخل إصبعه فيه ، فما خرج منه فهو الدنيا** » .
(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري .
(٥) حمر النَّعَم : الإبل الحمراء، وهي أنفس أموال العرب.
(٦) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن سهل بن سعد ونص الحديث: حدّثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي، حدّثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل بن سعد ؓ سمع النبيّ ﷺ يقول يوم خيبر: «**لأعطينّ الراية رجلاً يفتح الله على يديه**» فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: «**أين عليّ؟**» فقيل: يشتكي عينه، فأمر ، فدعي له، فبصق في عينيه فبرأ مكانه، حتّى كأنه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا، فقال: «**انفذ على رسلك، حتّى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**».

فضل كبير ، وثواب عظيم يستدعي الهمم أن تتنافس فيه ، إذا ما استجاب إنسان، وامتنّ ربنا تبارك وتعالى عليك وعليه وهداه على يديك ، فلا تترك هذا المستجيب فلعله ينتكس ، ولعله يرجع إلى ما كان عليه ، لازالت الشبهات في نفسه ، ولا يكفي أبداً من مثل هؤلاء الناس بكلمات عاطفية طيبة ، لابد وأن نبلغهم تفاصيل الإسلام بقدر المستطاع ، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2] .

فعلينا أن نتعهد هؤلاء الناس بالتربية والتعليم ، نحملهم على العمل بهذا العلم الذي تعلموه، كما يحكي أبو عبد الرحمن السلمي يقول : حدثني الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ﷺ أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من رسول الله ﷺ لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلموا العلم والعمل جميعاً .

هكذا كان علمهم ، وهكذا كان عملهم ، علينا أن نُربي هؤلاء الناس على منهج الإسلام ، كما تربى الجيل الأول في مكة ، كما تربى طليعة الإسلام الأولى ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، الإنسان إذا ما حفظ منهجًا من مناهج الرياضة ، وسُئل كيف يكون كذا ؟ ، فأجاب بأنه يكون كذا وكذا، هل مثل هذا الإنسان يبني جسماً صحيحًا وسليماً إذا لم يتربَّ على هذا المنهج الرياضي ، بالقطع لا ، لا يستطيع أن يبني مثل هذا الجسم ، وكذلك الإنسان إذا ما علم ولم يعمل ، ولم يتربَّ على ما علم فهو عرضة للانتكاس، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ

(١) آل عمران (١٨٧) .
(٢) البقرة (١٥٩، ١٦٠).

اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ (١).

علينا أن نُطالع سيرة رسول الله ﷺ ، ونُطالع سيرة الصحابة ﷺ حتى نتخطّى حواجز الزمان والمكان ، وكأننا نعيش بين صحابة رسول الله ﷺ ، منهج لا يسعنا أن نتخلف عنه ، هو يُغْني عن غيره ، ولا يُغني غيره عنه ، فعلينا أن نُراجع هذا المنهج العذب نتربّى عليه ، نشد الإنسان لغاية ينتهي عمره ، ولا ينتهي من التحليق إليها ، هذا الغاية هي رضوان الله تبارك وتعالى ، والتلبث بذكره وبعبادته ، هذه الغاية الكبيرة لا حسد فيها ولا تباغض بين أبنائها ، وإنما هو تنافس ومحبة .

هذه الغاية لا تُدرك بالأماني، ولا تُدرك بالقعود والكسل ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (٢)، هذه الغاية لا تُدرك إلا بعمل ولا تُدرك إلا باستقامة، فعلينا أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، نستقيم على ما استقام عليه هؤلاء الأفاضل ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ (٣).

نسأل الله أن ينفعنا وإيّاكم بما قلنا وسمعنا ، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



(١) الحج (١١).
(٢) الأنعام (١٦٢، ١٦٣).
(٣) الروم (٤، ٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

عباد الله ، عندما ينطلق هؤلاء الدعاة يُصلحون ما أفسدته شهوات هذا الإنسان الهائم على وجهه ، ينطلقون بدعواهم ، ولا زاد لهم عند الرحيل وعند الوداع إلا بُرْدَة قصيرة ، جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي ، ويعاف الطعام ، يقول : « قُتل مصعب وهو خير مني ، كُفن في بردة إذا غُطي رأسه انكشفت رجلاه ، وإذا غُطي رجلاه انكشف رأسه ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط ، وقد خشيت أن تكون حسناتنا قد عُجِّلت لنا » (١).

هذا أمر جعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي، ولم يكن بكاؤه لأن مصعب رضي الله عنه مات غير مُترف، قد كان مُترفًا في يوم من الأيام إلا أنه ترك هذا النعيم الزائل، عرف أنها دنيا، وأنها ظل زائل وعارية مُسترجعة، فترك هذا النعيم كله وآثر السلامة على كل شيء، وكانت هذه موتته التي أبكت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، خشي على نفسه من بعض المباح أن يكون من الحسنات المعجلة التي تمنع النعيم الآجل، هذا الأمر جعله يبكي لاندراس هؤلاء الأبطال، وخشية أن يأتي جيل آخر يتنافسون الدنيا، فتهلكهم كما أهلكت سابقيهم، وتتوقف فتوح الهداية، هذا البكاء أشبه ما غُص به حلق أبي الدرداء مراراً رضي الله عنه وهو يقول: «أبكاني فراق الأحبة، محمد وحزبه».

وَجَلٌ وخوف من الجيل الثاني أن يتغير سمته عن الجيل الأول وبكاء لرحيل هذا الجيل الذي سماه ، فقد عرفهم وعرفوه ، وكانوا هم سبب هدايته وتثبيته ، هذا الأمر

---

(١) رواه البخاري (١١٩٦) كتاب الجنائز .

جعل أبا الدرداء يبكي ، إلا أن بكاءه هذا ما كان ليُقطّع نفسه ، فيجعله يترك الدعوة ، أو يترك الإلتزام بأمر الله ، سرعان ما اعتلى درج مسجد دمشق ليصيح في أهلها ، ويقول لهم : ياءأهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ، ويبنون جديداً، ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبُنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ظل رضي الله عنه سنوات يُخفف أمر هذه الأزمة التي أتت على الناس من بعد رسول الله ﷺ يردهم إلى هذه الحقائق الثابتة المُسلمة ، ثم أورث المقال أهله من بعده ، فكان الرجل يأتي أم الدرداء رضي الله عنها يقول لها : أشكو من قلبي داءا لا أجد له دواءاً ، أشكو قسوة في قلبي ، وأملاً بعيداً ، فتقول له : اخرج إلى القبور واشهد الموتى . تربَّت على يد أبي الدرداء ، ومن قبل تربَّى كلاهما على يد رسول الله ﷺ ، فأنتجا هذه الكلمات الحقة البسيطة ، اخرج إلى القبور واشهد الموتى، فسيرجع إليك قلبك رقيقاً مرة أخرى، وسينتهي أملك في هذه الدار ؛ لأنها ظل زائل وعارية مسترجعة .

واصل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ذلك الوعظ القديم، فاعتلى درج مسجد دمشق، وقال لهم: إن الأمان لمن حذر الله وخافه ، وباع قليلاً بكثير ونافدا بباق .

فالأمان في الآخرة لا يكون للإنسان إلا إذا حذر الله وخافه في الدنيا ، حتى إذا ما رأوا أنها صفقة رابحة جعل يريهم ما يبين لهم أموراً لا يرونها بعين الغفلة ، فقال لهم: ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيأخذها من بعدكم الباقون، حتى تُردوا إلى خير الوارثين، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تُشيِّعون غادياً إلى الله ورائحًا، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، وقُطع عمله ، قد فارق الأحباب ، وواجه الحساب، فقيراً إلى ما قدم غنياً عما ترك .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يستقبل الرجل أحياناً ، فيجلس إليه يُذكره بأمر الموت، كما صنع مع عنبسة بن سعيد قال له : يا عنبسة ، أكثر من ذكر الموت، فإنك

لا تكون في ضيق إلا وسعه ، ولا تكون في يسر من أمر إلا ضيقه عليك .

انتشر مذهبه في الأمصار ، وبعث إلى هنا وهناك ، فأتاه الناس كي يُريهم حياتهم في القبور ، هذا الأمر الذي لا يغيب عن أولي الألباب ، أتاه محمد بن كعب القرظي، يقول : لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعث إليّ وكنت بالمدينة ، فأتيته، فجعلت أنظر إليه نظراً طويلاً لا أصرف عنه بصري ، فقال لي : إنك تنظر إليّ نظراً ما كنت تنظره، فقلت: متعجباً ، قال : وما أعجبك ؟ قلت : أعجبني ما حال من لونك، ونحل من جسمك ، فقال له عمر : فكيف بك بعد ثلاثة ، وقد خُليت في حفرتي، وسالت حدقتي على وجنتي ، وصار منخري صديداً وقيحاً .

إذا كان الإنسان يومًا سيبكي فراق الأحبة ، فليس له أن يتنزل إلى حضيض استعلت عنه همم الصحابة ﷺ ، وإذا كان أبو الدرداء قد بكى يوماً ، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً ، يقول : أضحكني ثلاثة ، مؤمل دنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري أسخط ربه أم أرضاه .

ضحك التعجب الذي قد يهجم على الإنسان حينًا عندما يحار في تفسير هذه الظواهر ، كيف نضحك ، وكيف نلهو ، وكيف نعبث ؟ وهذه الأمور قد طويت عنا، كيف يكون في الدنيا أملنا ، وهناك مؤمل دنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أرضى ربه أم أسخطه ؟

ضحكة قد تهجم على الإنسان حيناً عندما يرى هذه الغفلة ، وما الناس إلا في غفلاتهم ورحى المنية تطحن ، فعلينا أن نفيق من هذه الغفلة ، ضحكة استحالت إلى رحمة في نفس أبي الدرداء ﷺ ، فأمسك بكتف هذا الذي أضحكه وهمس في أذنه: أن ويحك ، كيف بك وقد حُفر لك أربع أذرع من الأرض ، أراد بذلك أن يصدم هذا الغافل ، أراد أن يصدمه صدمة تجعله يتيقظ ويفيق من نومه هذا ، أذرع

أربعة لم تزدد طولاً ولا سعة ، على مر العصور والدهور ، هي هي ، قبلها وبعدها مشاهد مازال الرواة يروونها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾[١] .

نسأل الله عز وجل أن ينفعنا وإياكم بما قلنا وسمعنا .



(١) ق (٣٧) .

أعداء الإسلام

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ (٣).

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله ، تتجدد الأحداث ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، عندما يصير المسلمون كالشاة الوليدة في الليلة الشاتية المطيرة ، أو كاليتيم على موائد اللئام، يصيرون هكذا بين فكي رحى ، بين كافرين وبين منافقين .

وما أشبه أمرهم بين هؤلاء الأجلاّء رضوان الله عليهم يوم الأحزاب ، وإن كان هناك فارق لا يُمكن أن نغفل عنه ، كان الصحابة يوم الأحزاب بين المُشركين من

(١) آل عمران (١٠٢).
(٢) النساء (١).
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).

قريش وغطفان ، وبين المنافقين واليهود من الجهة الأخرى ، وهكذا كان شأنهم يُعانون من شدة الريح وشدة البرد ، ضربتهم الدنيا عن قوس واحدة ، وهذا هو حال الأمة اليوم ، بين منافقين لا يعملون بأمر الله ، ولا يُحكّمون شرع الله ، بل يصدون عن سبيل الله تبارك وتعالى ، وخطرهم لا يقل أبداً عن خطر الأمريكان واليهود، ثم من الجهة الأخرى هذه القوى المتغطرسة، هؤلاء الذين كفروا بالله وبرسوله ﷺ، وأرادوا أن يستأصلوا شأفة الإسلام وأهله ، حتى وإن كان الانتساب إلى دين الله عبارة عن اسم لا واقع له ولا رصيد .

والفارق الكبير الضخم الذي يفصل بيننا وبين ما كان عليه رسول الله ﷺ هو هذا العنصر الذي يحسم هذه المعركة وغيرها من المعارك ، ألا وهو عنصر الإيمان واليقين هذا هو البعد الغائب ، وإلا فأين من يقول : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [1]، أين من يعتز بجناب الله ؟! وأين من يُسلم وجهه لله تبارك وتعالى ويعلم أن هذا هو العنصر الحاسم لهذه المعركة ولغيرها ؟ ، لا الروس ولا الأمم المتحدة ولا مجلس الأمن ، ولا غير ذلك من الهيئات والقوى المشبوهة ، أين من يتعلق بجناب الله تبارك وتعالى ؟! من كان الله معه فمن عليه ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن كانت الفوارق هي فوارق الغربة التي صارت الأمة تُعانيها ، وعلى الرغم من غربتها ، وعلى الرغم من تباعدها عن دينها إلا أن اسمها مازال يستجلب عليها ويلات من اليهود والأمريكان لكونها تنتسب لدين الله تبارك وتعالى بالاسم .

وبالأمس القريب كانت هذه الحروب مع البوسنيين ومع الشيشانيين ومع الفلسطينيين ، ثم عندما تدور الدائرة على العراقيين وعلى السودانيين والليبيين ، وبعد غد يأتي الدور على هذه الأمة .

---

(١) الأحزاب (٢٢).

هذا كله لا يستغرب ، فأعداء الأمس هم أعداء اليوم والأمر لا يدعوننا لارتجاف ولا لإرجاف ، والواجب علينا أن نقرأ السنن قراءة واعية ، وإلا فربنا جل وعلا ، لا يضيع أجر المحسنين ، ولا يصلح عمل المُفسدين والعاقبة للمتقين ، هو سبحانه لا يهدي كيد الخائنين ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ (١) .

وثلاث من كن فيه كن عليه :

المكر : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ .

والبغي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾(٢) .

والنكث: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾(٣) .

وعلى الباغي تدور الدوائر ، والأوضاع تدل على ظلم كبير وعظيم ، ظلم يأتي من هنا ، وظلم يأتي من هناك ، ثم يتساقط الضحايا هكذا ، وطابور المُعذبين في الأرض طابور طويل ، أرامل ومساكين وأيتام ضعفاء ، شيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، وكأنهم الذين يدفعون الثمن ، ثمن هذا الظلم..

لما سأل البعض بعض العلماء ، إن بني فلان قد اجتمعوا عليّ وهم يدٌ واحدة ، فقال : يد الله فوق أيديهم ، قال له : المكر . قال له : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ قال : هم كثرة ، فقال له العالم : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ (٤) .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ (٥) ، يؤخرهم سبحانه لهذا اليوم العصيب ، وإلا فهو المُطّلع الرقيب ، حرّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً ، وأعظم الظلم أن تجعل من نفسك نداً

(١) فاطر (٤٣)
(٢) يونس (٢٣) .
(٣) الفتح (١٠) .
(٤) البقرة (٢٤٩) .
(٥) إبراهيم (٤٢) .

لله وهو خلقك ، أن تحيد عن أمر الله ، أن تصد عن منهج الله ،.أن تستخدم هذه القوة التي خولك الله إياها في البطش بهؤلاء الضعفاء والمساكين .

ربنا تبارك وتعالى قصَّ علينا القصص ، ومن جملة هؤلاء الذين قصَّ علينا قصتهم ، قوم عاد هؤلاء كانوا من جملة العماليق ، تطاولوا وبغوا في الأرض بغير الحق ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⟨١٥⟩ ﴾[١] ، انظروا لما صنعه بهم ربنا تبارك وتعالى ، جعلهم عبرة للمعتبرين، جعلهم أثرًا بعد عين ، صاروا مضرب مثل ، أرسل عليهم سبحانه ريحًا صرصرًا، قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ⟨١٦⟩ ﴾[٢] .

ولكن لا فقه ولا بصيرة في دين الله ، والحدث يتكرر ، والطغيان هو هو ، عندما يبغون في الأرض بغير الحق ، ويتطاولون ويزعمون أنهم يمتلكون قنابل عنقودية أو صواريخ ذكية ، هذا نوع من التطاول ، وإلا فالله أكبر وأقوى، هو القادر على كل شيء سبحانه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ⟨٨٢⟩ ﴾[٣]، ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ⟨٥٠⟩ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ⟨٥١⟩ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ⟨٥٢⟩ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ⟨٥٣⟩ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ⟨٥٤⟩ ﴾[٤] .

هؤلاء لم يأخذوا درسًا من الحوادث التي ضربتهم ، هذه الحوادث ، وهذه الفواجع كهذه الفيضانات والزلازل التي تحدث في وسطهم ، ولا يستطيعون لها دفعًا ، هم لا يأخذون درسًا ولا عبرة ، والقوة قد تورث طغيانًا ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⟨٦⟩ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⟨٧⟩ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⟨٨⟩ ﴾[٥] .

---

(١) فصلت (١٥).
(٢) فصلت (١٦).
(٣) يس (٨٢).
(٤) النجم (٥٠ – ٥٤) .
(٥) العلق (٦ – ٨).

ظلم كبير وعظيم يعاني منه المسلمون هنا وهناك، بل في شتّى بقاع الأرض، ظلم من المنافقين من جهة الذين يتكلمون بألسنتنا، وهم من جلدتنا، وقد ينتسبون للإسلام بالاسم، ثم هم حرب على الإسلام وأهله، بهذا الضياع وهذا الانحراف، وهذا الفسق والفجور الذي يعملون به ، ثم من الجهة الأخرى أعداء يتربصون بنا الدوائر، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [١] .

هذا الظلم الذي تعاني منه ، يؤذن بخراب ودمار هؤلاء ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [٢] ، بل قال العلماء : لو بُنيت الجنة على حجر من ظلم لأوشكت أن تتخرب .

ثم كان من توبة قوم يونس أن يردوا الحقوق لأصحابها ، حتى كان من تمام ذلك أن الرجل يذهب إلى أساس داره فينزع منه الحجر فيرده لصاحبه ، الرجل يذهب، وذلك لأن الظلم ظلمات ، حرمه الله سبحانه على نفسه ، وجعله بين العباد مُحرمًا .

وكان البعض ممن عنده بقية من حياء يقول : إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ نصيرًا إلا الله ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [٣] .

هؤلاء المسحوقون عندما ترتفع أكف الضراعة لخالق الأرض والسماوات ، دعوتهم تفتح لها أبواب السماء ، يقول لها ربنا تبارك وتعالى : « **وعزّتي وجلالي لأُجيبنّك ولو بعد حين** » [٤] ، والنبي ﷺ عندما وجه معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى أهل اليمن قال له : « **واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** » [٥] .

---

(١) الصف (٨).
(٢) الكهف (٥٩).
(٣) النساء (٤٥).
(٤) صحيح رواه الطبراني والضياء عن خزيمة بن ثابت عن النبي ﷺ : « **اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** » ، (١١٧) صحيح الجامع.
(٥) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأهل السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما .

هؤلاء المظلومون هنا وهناك ، وهؤلاء المسحوقون الذين يُعانون من وطأة الكفار والمنافقين، هؤلاء هم على ديننا يتوجهون إلى قبلتنا، لابد من سعي لرفع الظلم عن المظلومين هنا وهناك، بل حتى لو كانوا من جملة الكافرين، فهذا لا حرج فيه، والنبي ﷺ شهد حلفًا في دار عبد الله بن جدعان في الجاهلية، قال: **«لو دعيت به في الإسلام لأجبت»**، وكان هذا الحلف لنصرة المظلوم سواء كان قُرشيًا أو غير قرشي .

والمسلم مرآة أخيه، ويحب لأخيه ما يُحب لنفسه، **«ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»** [١]، والنبي ﷺ قال: **« انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »** [٢].

أي ظلم أعظم مما يحدث هنا أو هناك ، لابد أن نستشعر شعور الجسد الواحد ، هذا هو شأن المؤمنين في كل عصر ووقت ، ودوافع ذلك إيمانية ، **«ولا يُؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه »** [٣] .

وليس لك أن تنسلخ بشعورك عن هذا ، وإلا فعليك أيضًا ستدور الدوائر ، وأنت تقـول : أُكلتُ يوم أُكلَ الثـور الأسـود ، يوم أُكلت هذه البلدة وتلك ، لما أُكل الفلسطينيون والبوسنيون والشيشانيون ، أنت الآخر بدورك أُكلت ، هذه حسبة لابد من معرفتها ، وإلا فالأعداء هم هم لا يتغيرون ولا يتبدلون ، قد تتغير الأسماء والأشكال ، ولكن العداوة هي هي ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[٤] ، ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [٥]، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[٦] ، ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .
(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه .
(٤) البقرة (١٢٠).
(٥) المائدة (٥١).
(٦) هود (١١٣).

مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (١) .

والواقع خير شاهد على ذلك درس بليغ تأخذه من هذه الوقائع التى تمر ، كيف يحدث الاستفزاز ، كيف يستخفون بصداقتك وبمحبتك وبموالاتك لهم، يستخفون بذلك كله، لا يلقون له بالاً، فهم يعملون بعقيدة، ولعقيدة، و ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ، فالعيب فيك عندما ترتكن وتعول على غير الله تبارك وتعالى ، والبعض يأبى إلا أن يعيش في غيبوبة ، يقول : العنصر الذي سيحسم النزاع والصراع هو فلان الفلاني ، أو الدولة العلانية ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٢) ، ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (٣) .

هؤلاء لم تتعلق قلوبهم بالله ، هؤلاء لم يؤمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ، بل حالهم قد يكون أسوأ من حال المشركين وقت الشدة ووقت الكرب ، كانوا يقولون : يا رب ، يقذفون بأصنامهم ، ويعولون على الله تبارك وتعالى ، يخلصون العبودية لله تبارك وتعالى ، كانوا إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، كان هذا هو شأنهم ، فأين من قذف بولائه للشرق أو للغرب ؟! أين منّا من أسلم وجهه لله تبارك وتعالى ، وأخلص العبودية لله جل وعلا رجاء كشف الكرب ؟!، من الذي نصر عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده ؟ ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦ ﴾ (٤) .

بُعدٌ غائب ، تباعدنا عن ديننا فضربتنا الدنيا عن قوس واحدة ، ولكن أين السلاح الذي نعتز به ؟! أين الجناب الذي نعتصم به ؟! هذا هو البعد الغائب في حياتنا .

انتسبنا للإسلام بالاسم ، وهم يحاربوننا ويخاصموننا ويجلبون خيلهم وخيلاءهم من أجل هذا العدو التقليدي الذي يطلقون عليه اسم الأصولية الإسلامية ، هذا هو

---

(١) آل عمران (١١٨).
(٢) التوبة (٦٧).
(٣) الحشر (١٩).
(٤) محمد (٧) .

العدو الذي يتربصون به ويجمعون له حُلفاء من هنا ومن هناك ، وعداوة قد بدت من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر .

فهل عُدنا لإسلامنا، هل حققنا معاني ديننا ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (١)، ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ (٢).

الفارق كبير بين حضارة أُقيمت على غش ، أُقيمت على تأليه الأفراد ، أُقيمت على قوة متغطرسة ، وبين حضارة أُقيمت على أساس من منهج الله تبارك وتعالى ، غايتها تعبيد الخلائق والدنيا بمنهج الله تبارك وتعالى .

الفارق كبير بين أمة وأمة ، وبين قوة وقوة ، ربنا تبارك وتعالى ذكر التمكين الحق في الأرض، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ (٣) ، هذا هو التمكين الذي يرضي الله تبارك وتعالى .

دخل النبي ﷺ فاتحًا مكة ، وهو مطأطئ رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، يقول لأهلها : « **ما تظنون أني فاعل بكم** » ، قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وجد صلوات الله وسلامه عليه امرأة مقتولة في الغزو ، فقال : « **ما كانت هذه لتُقاتل** » (٤)، هكذا يكون التعظيم لحرمات الله ، ولشعائر الله جل وعلا .

دخلوا الحروب بأمر الله ، وعبّدوا الدنيا بشرع الله تبارك وتعالى ، ملؤوها رحمة وعدلاً ، هذا هو التمكين الذي يرضي الله تبارك وتعالي ،كانوا في حربهم وسلمهم منقادين بشرع الله ، قدم النبي ﷺ يوم الحديبية ، فمنع من دخول مكة ، فقال : « **والله لا يعطونني خطة يُعظّمون بها حرمات الله ، إلا وافقتهم عليها** » (٥).

الحركات والسكنات وما يحدث في الكون من حولهم يضبطونه بشرع الله ،

(١) الأنفال (١٠).
(٢) آل عمران (١٣٩).
(٣) الحج (٤١).
(٤) رواه أبو داود ، كتاب الجهاد (٢٢٩٥)، وأحمد (١٥٤٢٣).
(٥) رواه البخاري (٢٥٢٩) كتاب الشروط.

تجلس القصواء وما تتحرك فيقولون : خلأت القصواء ، فيقول ﷺ : « **ما خلأت القصواء ، وما هو لها بخلق ، إنما حبسها حابس الفيل عن مكة** »[١]، هذا هو شأن المسلمين الموحدين ، المنقادين لأمر الله تبارك وتعالى في حروبهم وسلمهم ، يعملون بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ .

ثم في المقابل ستجد هذه الحضارات المزعومة حضارات القلق هذه التي تُنذر بشر وخيم ، كالأمريكان الذين يزعمون أنهم أصحاب النظام العالمي الواحد، يترأسونه ويتربعون على قمته ، ثم هم يعيشون في البلاد هنا وهناك فساداً ودماراً ، قاموا على أساس من الشذوذ الجنسي يُصاحبهم كفر الغطرسة ، يُصاحبهم هذه القوة التي يزعمون معها أنهم يستطيعون أن يبيدوا الدنيا بأسرها ، نسوا الله تبارك وتعالى ، تحالفات مُريبة مع قوى الشر ومع قوى الكفر ، أمرهم يُنذر بانتهائهم وبدمارهم وبإبادتهم ، والسنن لا تعرف المحاباة ، ولا تعرف المُجاملات .

والمسألة تكمن في أن عمر السُّنة قد يطول على عمرك وأنت قد تموت الآن ، أو بعد لحظات ولا ترى انتهاء هذه الإمبراطورية المتغطرسة ، لا ترى انتهاء النظام العالمي الواحد الذي تتربع عليه أمريكا ، ولكن حسبك أن تكون مُتيقناً وعد الله ، أن لا تتشكك ولا ترتاب في أمر الله ؛ لأن السنن لا تعرف المحاباة ، ولا تعرف المجاملات ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩)** ﴾[٢] .

هذه القوة شبيهة بقوة فرعون ، هذا الذي عاث في الأرض فساداً يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ، يقول ربنا جل وعلا : ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)** ﴾[٣]، عاش ما عاش ثم أخذه ربنا تبارك وتعالى أخذ عزيز مُقتدر .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٢٩) كتاب الشروط .
(٢) الطلاق (٨ - ١٠) .
(٣) القصص (٤) .

هذا هو فعله سبحانه بالأفراد والدول والجماعات التي حادت عن منهجه وكفرت بشريعته ، واعتبروا من أنفسهم أنداداً وآلهة مع الله ، أخذهم ربنا ، وانتقلوا إليه غير مأسوف عليهم ، انتقلوا بظلم وبإجرام ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ ﴾ (١) ، وإلا فأي ظلم أشنع ، وأي كفر أوضح من أن يتطاول هؤلاء الكفرة ، ولابد من تسمية الأشياء باسمها ، هؤلاء كفار عندما يتواطئون مع اليهود أو تحركهم الأصابع اليهودية ، هذا كله لا يُستغرب والتحالف قديم بين هؤلاء وأولئك ، بمعنى أن ما تُشاهده في الواقع من حولك ليس من جملة المستجدات أو الأمور التي تستغرب ، كل ذلك حكاه لك ربنا تبارك وتعالى، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) .

الواجب علينا أن نرجع لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ ، إن كان الأمريكان يحتفلون الآن مع اليهود بمرور مائة سنة على مؤتمر « بال » الذي عقد بسويسرا بزعامة اليهودي هرتزل ، فهذا الأمر الذي بيتوه لإقامة دولة يهودية عاصمتها القدس تُقام على أنقاض المسجد الأقصى ، يُقام هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ، لابد من قراءة التاريخ قراءة واعية ، لابد من رد الصور والأشكال إلى خلفيتها وإلى أصولها وإلى أُسسها .

لماذا ينقُضون كل اتفاق ؟ لماذا لا يوفون بعهد ؟ هذه هي طبيعتهم ، ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (٣) ، ومع من سيرفعون رأسًا ، أو يُتمون عهداً أو عقداً؟!، وهم يتبجحون بقوة ، هم الذين يزعمون أنهم يُديرون دفة العالم ، هل يرجعون إليك ، هل يعملون لك حساباً ؟! .

كل ذلك محسوب مسبقاً ، ولكننا أبينا أن نرفع رأساً بديننا ، أن نصطلح مع ربنا،

(١) الإسراء (١٦).
(٢) فاطر (١٤).
(٣) آل عمران (٧٥).

أن نأخذ بمعاني القوة الحقيقية ، ولذلك عندما نعاني من المذلة ، والمرارة والمهانة ، كل ذلك له أسبابه وله دواعيه ، وانظروا في قول رسول الله ﷺ : « **إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع ، واتبعتم أذناب البقر ، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه عنكم حتى تراجعوا دينكم** » (١) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا » .

لابد وأن يلحقهم المذلة والمهانة والعار جزاءاً وفاقًا ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)** ﴾(٢) ، قال تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)** ﴾ (٣) .

مُقدمة ولها نتيجة إذا حققتم معاني الإيمان فلكم العلو الحقيقي في الأرض ، عندما تجدون مذلة ومهانة ، عندما يتكالب عليكم الأراذل وتُصبحون هكذا كالأيتام على موائد اللئام ، راجعوا أنفسكم ، هذا ما حدث إلا لمحبتكم الدنيا وكراهيتكم الموت، وإلا فقد حدث من الأحباب ما لو رفعنا به رأسًا لتغير الحال وتبدّل ، وانظروا يوم مؤتة عندما طلب البعض مددًا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرادوا انتظاره ، فقال لهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : « إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون » ، خرجوا يطلبون شهادة في سبيل الله ، فلماذا ينتظرون على مثل هذا النحو ؟! .

ولَمّا سمع خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم مؤتة رجلاً يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، قال : « بل ما أكثر المسلمين وأقل الروم » ، ثم بين لهم السنن ، وأن هذه الأمة لا تنتصر بكثرة ، ولا عدد ، ولا عتاد ، ينصرها ربنا بالإيمان .

هذا هو البعد الغائب ، نسينا ديننا ، صرنا حربًا على إسلامنا ، نُحارب شعائر الإسلام والدين ، نُحكّم نعرات الجاهلية بابليّة وآشورية وفرعونية ، اشتراكية وديمقراطية

---

(١) صحيح، رواه أبو داود عن ابن عمر ، «صحيح الجامع» (٤٢٣) ، و«السلسلة الصحيحة» (١١) ، ورواه أحمد والطبراني وأبو نعيم.
(٢) فصلت (٤٦) .
(٣) آل عمران (١٣٩) .

وغير ذلك من النحل ، علمانية هي التي تُسيطر كذلك على البلدان التي تُنسب لدين الله ، موجات الإلحاد ، قد نواجه الأمريكان ، وغير الأمريكان برقصة بأغنية ، وبغير ذلك من المعاني ، نسينا ديننا ، فكيف ننتظر نصراً ؟! .

كل مقدمة لها نتيجة ، وكل عقيدة لها تأثير ، لا يليق بنا أن نيأس من روح الله ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾(١) ، فقط يجب علينا أن نستلهم الدرس والعظة والعبرة ، أن نتعرف على أسباب النصر ، وعلى دواعي الهزيمة.

إنقضىَ شهر رمضان ، وكان من أعظم دروسه أن تعرفنا على كيفية الانتصار يوم بدر وغيره ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾(٢) ، نصرهم ربنا على ضعف منهم ، لما حققوا معاني الدين ، لما أسلموا وجوههم لله، لما علموا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، نصرهم ربنا تبارك وتعالى نصراً عزيزاً مؤزرا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾(٣) .

أحداث تموج من حولنا والإنسان قد لا يستطيع مُتابعتها ، وقد يكون معذوراً في بعض من ذلك ، وإلا فالدنيا صارت أشبه بقرية صغيرة ، حالة الضعف التي ألمت بنا ، ثم الأحزان التي نسمعها من هنا ومن هناك ، نسمع عن خبر الشيشان والبوسنة ، عن ضعف المسلمين في الهند والصومال ، والأعداء الذين يتربصون بنا وحيلهم ، والإنسان يتسآل ماذا يصنع ؟ كيف يواجه ؟ .

وأمور لو حدثت على عهد عمر ﷺ لجمع لها أهل بدر ، ثمَّ ما السبيل؟ أنت قد لا تملك هذا ولا ذلك ، ولا تملك إلا نفسك ، فحسبك أن تنطق كما نطق نبي الله موسى صلوات الله وسلاه عليه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) ﴾(٤) .

---

(١) يوسف (٨٧).
(٢) آل عمران (١٢٣).
(٣) البقرة (٢٤٩).
(٤) المائدة (٢٥).

قد يقول قائل : لربما لو كانت المواجهة مع هذا المسئول العراقي ، تخلصوا منه ، أبادوه أو أبادهم ، تقول : ظالم ينتقم الله به من ظالم ، ثم ينتقم الله من كليهما ، وإلا فهذا بعثي ، وفي المواجهة هؤلاء أمرهم معلوم ، ولكن المسألة لا يصح تناولها بهذه الكيفية ، هذا شعب مسحوق ، هؤلاء مكانهم يستصرخون يقولون : واإسلاماه ، هؤلاء الشيوخ الركع ، هؤلاء النساء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، حسبك أن تسأل نفسك ، ما هو الواجب علينا تجاه هذه الأحداث ؟ وحسبك أيضاً أن ترجع في ذلك كله لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ ، وإلا فأحداث اليوم لا تنفك أبداً ، ولا يصلح بترها عن أحداث الأمس ، لابد من الرجوع لأمر الله في ذلك كله ، حتى نستلهم وجه العبرة ، وحتى نتعرف على مواضع الأقدام ، لماذا يحاربوننا ؟! ولأي شيء يحرصون على مثل هذا الاستفزاز ؟ كيف تمّ لهم التعاون ، وحدث في وسطنا التفكك ؟ أسئلة كثيرة لابد من عرضها وطرحها ، ولا سبيل للإجابة عليها إلا أن نستبصر بأمر الله .

و ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [(١)] ، وإلا ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) ﴾ [(٢)] .

وربنا سبحانه هو المرجو أن يغيّر حالنا لأحسن الأحوال ، وأن يقيل عثرتنا ، وأن يُبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يعز فيه أهل طاعته ، ويذل فيه أهل معصيته ، ويؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهى فيه عن المنكر ، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه .

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



(١) يوسف (١٠٨).
(٢) الإسراء (٧٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

عباد الله ، كما أن هناك فارقًا بين قوة وقوة ، وحضارة وحضارة ، وتمكين وتمكين ، فكذلك هناك فارق بين حالة ضعف أو استضعاف ، وبين حالة أخرى ، هذا ضعيف ، ولكنه يستمطر رحمة ، ويستدفع نقمَة ، قرأ السنن قراءة واعية علم أن التقدم والنصر إنما يتم بطاعة الله ، وأن التقهقر والمذلة والمهانة لا سبب لها إلا معصية الله جل وعلا ، عنده بصيرة ، قرأ السنن قراءة واعية ، رفع رأسه بآيات الله تبارك وتعالى .

قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) ﴾ (١) .

وقال سبحانه في معرض الامتنان على بني إسرائيل : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾(٢) .

انظروا إلى عجائب التدبير لما أخذوا برأس الأمر جعلهم ربنا تبارك وتعالى رؤوساً ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ (٣) ، لم يذكر سبحانه قوة عدد ولا عتاد ، فالسلاح الذي عملوا به يومئذ هو سلاح الإيمان والتقوى ، سلاح الصبر واليقين ، وهو السلاح الغائب عن حياتنا اليوم .

---

(١) الأنفال (٢٦).
(٢) القصص (٥، ٦).
(٣) السجدة (٢٤).

وهذا يتحقق بإذن الله تبارك وتعالى ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)، حتى وإن تطاول من تطاول ، وحتى وإن تبجح من تبجح ، وحتّى وإن ادّعى الأمريكان وغير الأمريكان أنهم يملكون قنابل عنقودية وأسلحة ذكية وغير ذلك، حتى وإن تبجحوا بذلك، ستعود حرب إسلامية ، والنبي ﷺ أخبر أن الخلافة ستعود على منهاج النبوة، فقال: « **تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة راشدة فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة** » (٢) ثم سكت رسول الله ﷺ .

لابد من قتال إسلامي مع الروم ومع اليهود ، و « **لن تقوم الساعة حتّى يُقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود** » (٣).

سواء تجنبنا الحروب بكل السبل ، تباعدنا عنها وعن أسبابها أو دخلنا في حرب وفق موجباتها ، فلابد وأن يحدث ما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، ولكن المسلمين يومئذ يعودون إلى ربهم يصطلحون معه سبحانه ، ينصرهم ربنا تبارك وتعالى بعز عزيز ، وبذل ذليل ، يفتحون أقطار الدنيا ، كل ذلك يحدث ، وكل ذلك أخبر عنه رسول الله ﷺ ، فلا سبيل لليأس ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٤) .

فلا يصح الإرجاف ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

(١) الصف (٩).
(٢) رواه أبو داود عن ابن عمر ﷺ (صحيح) (٤٢٣) صحيح الجامع ، السلسة الصحيحة (١١) رواه أحمد والطبراني وأبو نعيم .
(٣) رواه البخاري ومسلم (٧٤١٤) صحيح الجامع .
(٤) يوسف (٨٧).

الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[١] ، يا ليتنا بدلاً من إرضاء الشرق والغرب ، واستجلاب العز من عند هذا أو ذاك ، يا ليتنا اصطلحنا مع ربنا ، حكمنا شريعته سبحانه ، هذا أيسر ، هذا أخف ، هذا هو الذي أمرنا به ، سنأكل من فوق رؤسنا ومن تحت أرجلنا ، سينصرنا ربنا تبارك وتعالى نصراً عزيزاً مؤزراً ، كما نصر عباده المؤمنين ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢].

قد نكون مستضعفين في الأرض ، وقد يكون هذا هو واقعنا ، لا معرة في ذلك إذا اصطلحنا مع الله ، وإذا رجعنا إلى دين الله ، والعيب كل العيب أن نزداد ضعفًا على ضعفنا ، أن نزداد وهنًا على وهننا ، أن نكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، أن تستجلب عزة من الروس أو من غيرهم ، وكأنهم العنصر الفعّال الذي سيحسم لنا مادة النزاع ، أبداً والله ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[٣]، نستلهم العزة من ربنا تبارك وتعالى بتحكيمنا الشريعة ، بالعمل بكتابه وبسنة نبيه صلوات الله عليه وسلامه، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[٤].

فكان لابد من الرجوع لأمر الله ، وإلا فالبعض منا ضعيف ومستضعف ، ثم يأبى إلا أن يُبرر واقعه السيئ ، وأن يزداد ضعفًا على ضعف بانحرافه عن منهج الله ، وإلا فما شأن من رقص وغنّى وقت استضعافه والأعداء يكيدون به ويتربصون به الدوائر ، هل مثل هذا ينصره ربنا ، ولك أن تتخيل ما هو أشنع من ذلك عندما نُحل الكُفريّات محل شرع الله ، عندما نُحارب شرع ربنا تبارك وتعالى ، عندما يصير هذا بعثي ، والثاني قومي ، وكأننا لا دين لنا ، ويصير الإسلام وكأنه ينادينا من مكان بعيد ، وقت الرخاء ووقت الشدّة الواجب علينا أن نُنيب إلى الله ، وإلا فالبعض :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ... والماء فوق ظهورها محمول

فالفارق كبير بين ضعيف وضعيف ، بين ضعيف عرف السبيل عرف الطريق ،

(١) البقرة (٢٤٩).
(٢) الروم (٤٧).
(٣) النساء (١٣٩).
(٤) المنافقون (٨).

أناب إلى الله ، فكان هو القوي ، وكان هو الغالب بإذن الله تبارك وتعالى ، نصر ربنا عباده ، هو الذي نصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده .

مات النبي ﷺ يوم مات ، وهو سيد الأولين والآخرين بعد أن حوصر ، بعد أن أخرجوه من مكة ، بعد أن خنقه عقبة بن أبي معيط بطرف ردائه وألقى سلا الجذور على ظهره ﷺ ، بعد أن أوذي في شخص أصحابه كل ذلك حدث ومات يوم مات صلوات الله وسلامه عليه وهو سيد الأولين والآخرين .

وكذلك صنع ربنا بالأنبياء والمرسلين وبالصالحين من عباده كصاحب ياسين ، ومؤمن آل فرعون ، نحتاج للرجوع لمعاني الإيمان ، و ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ [(١)] .

نحتاج لتربية إيمانية ترتفع بها همتنا فلا نُبالي بأمريكان ويهود ، أو بغطرسة قوة من هنا ومن هناك ، يكون شأننا كشأن سلفنا الصالح ، فإن أبينا ، فلا أقل من أن نرفع رأسًا بمثل هذه الكلمات التي عاش بها ولها هارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان عبد الحميد الذي لم يساوم ولم يفاصل على شبر من أرض فلسطين ، ثم كان الانقلاب عليه ، كان هذا هو شأنه اعتزّ بإسلامه .

صلاح الدين الأيوبي يُؤرقه استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لا يستطيع أن ينام كان لا يرتاح إلا وهو على فرسه ، يقول لابن شداد : أُسر إليك حديثًا ، إني أتمنى إن فتح الله عليّ بيت المقدس أن أركب البحر أُقاتل في سبيل الله كل من كفر بالله حتى يُظهرني الله أو أموت .

هذه همته ، هذا هو دوره ، وأنت إن لم تدعُ الآخرين صرت محلاً لدعوتهم ، إن لم توجه لهم دعوة الإسلام والجهاد ، جهاد الدفع والطلب سيأتونك إلى عقر دارك حتى إن رفعت راية السلام ، حتّى وإن تملصت من دينك ، حتى وإن حاربت شعائر ربك تبارك وتعالى إنهم لا ينسون انتماءك للإسلام ولو بالاسم ، هذه هي المسألة عندهم .

---

(١) الأحزاب (٢٣) .

أحسن كما أحسن الله إليك

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾ ﴾[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾ ﴾[٣] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

يا عبد الله، أحسن كما أحسن الله إليك، كل شيء منه إليك داع إلى إحسانك، داع إلى إحسان المسير إليه سبحانه، فأسماؤه هي الأسماء الحسنى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[٤] .

---

(١) آل عمران (١٠٢).
(٢) النساء (١).
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).
(٤) الأعراف (١٨٠).

ودينه وصبغته وشرعته هي أحسن صبغة ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾[١] .

حكمه لا أحسن منه ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾[٢] .

الأنبياء الذين ابتعثهم كلهم فيهم معاني الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾[٣] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾[٤] .

أوامره ونواهيه كلها داعية لإحسانك ، بل أنت لا تبلغ درجة الإحسان إلا بالاستقامة عليها والعمل بمقتضاها .

كتب سبحانه الإحسان على كل شيء كما قال رسول الله ﷺ : « **إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته** »[٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[٧] .

---

(١) البقرة (١٣٨).
(٢) المائدة (٥٠).
(٣) الممتحنة (٤).
(٤) الأحزاب (٢١).
(٥) رواه مسلم والإمام أحمد ، وأهل السُّنن عن شداد بن أوس .
(٦) الإسراء (٢٣).
(٧) البقرة (٨٣).

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (١).

وقال : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢).

وقال : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ (٣).

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ (٤).

وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ (٥).

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٦).

فأوامره كلها حسنة ، ونواهيه لا يمكن أن يحدث الإحسان إلا بالانتهاء عنها ، ولذلك تقدم الصالحون من عباد الله ، رأوا ربهم يذكرهم بإحسانه فتذكروا ، ذكرهم سبحانه بإحسانه وأياديه ، فأحسنوا المسير إلى الله تبارك وتعالى إحسانه عمَّ كل مؤمن وكافر ، كل برٍّ وفاجر .

قال جل وعلا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ (٧).

وقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٨).

---

(١) النساء (٨٦).
(٢) الأنعام (١٥٢).
(٣) التوبة (٥٢).
(٤) الأنبياء (١٠١).
(٥) فصلت (٣٣).
(٦) الزمر (١٨).
(٧) المؤمنون (١٢ - ١٤).
(٨) التين (٥ - ٧).

أنْ صورك بهذه الصورة الحسنة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[١] ، ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [٢].

وكله إحسان منه إليك ، فكان الواجب عليك أن تحسن ، أحسن كما أحسن الله إليك ، ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾[٣] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[٤] .

هيئة حسنة ، وتكريم من خالق الأرض والسماوات لبني آدم ، فكان الواجب علينا أن نحسن المسير إلى الله تبارك وتعالى ، جعل لك الأرض التي تسير عليها مهيأة أرض هي أشبه بالدابة الذلول مهيأة على مثل هذا النحو ، انظروا إلى هذه الجاذبية الأرضية لو زادت لالتصق الإنسان بالأرض ، ولو خفت لطار في الهواء ، ولها ضغط جوي لو زاد لانسحقت ، ولو خف هذا الضغط لكانت النتيجة أن ينفجر هذا المخلوق .

هو الذي أحسن كل شيء خلقه سبحانه ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾[٥].

يقولون عن الأكسجين الذي نتنفسه لو زاد إلى نسبة الخمسين بالمائة تحترق الدنيا ولا تقوم لها قائمة ، هذا لم يكن خبط عشواء ، ولا هو قبيل الصدفة ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[٦] ، فله الحمد على ذلك حمداً كثيراً ، هيأ ذلك لك فأحسن المسير إلى الله كما أحسن إليك .

امتن عليك بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة ، امتن عليك وأحسن إليك ببعثته

(١) التغابن (٣) .
(٢) الشعراء (١٣٣ ، ١٣٤).
(٣) السجدة (٧) .
(٤) الإسراء (٧٠).
(٥) الرعد (٨ ، ٩).
(٦) الأنبياء (٣٠).

صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾[١] .

ركب فيك عقلاً وأودع فيك فطرة ، أنزل إليك الكتب ، وأرسل إليك الرسل وكل ذلك إحسان منه إليك ، فأحسن كما أحسن الله إليك .

عدد سبحانه إحسانه على خلقه وأياديه حتى يحسنوا المسير إليه ، حتى يقيموا واجب العبودية حتى يسمعوا ويصغوا لأمره ، ذكرهم بذلك كله ، ذكّرَ بذلك الولي والعدو ، ذكّرَ بذلك المؤمن والكافر والبر والفاجر ، فقال سبحانه في معرض الامتنان على نبيه ﷺ ، قال : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾[٢] تذكرة بالإحسان .

وقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾[٣].

وقال في معرض الامتنان على نبيه موسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩ ﴾[٤]، دعا ربه فقال : ﴿ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ ﴾[٥] فكانت الإجابة ، قيل له : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧ ﴾[٦].

---

(١) الجمعة (٢) .
(٢) الضحى (١ – ٨).
(٣) الشرح (١ – ٤).
(٤) طه (٣٩).
(٥) طه (٣٠ – ٣١).
(٦) طه (٣٦ ، ٣٧).

وهذا إحسان من الله إلى خلقه ، هو الذي يجيب المضطر ، ويكشف الضر، هو الذي يجيب دعاء من دعاه ، هو الذي يكشف الكربات ويقضي الحاجات، كل إحسان منه ، فكان الواجب عليك أن تحسن كما أحسن الله إليك .

ذكّر ربنا خلقه وعباده بإحسانه ، ذكّرَ المؤمن والكافر بذلك ، فقال جل وعلا : ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤** ﴾ [(١)]، لما أهلك ربنا تبارك وتعالى أبرهة ، ولذلك سبقت سورة ارتبطت بهذه السورة ، قال ربنا جل وعلا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥** ﴾[(٢)]، فلما أهلك أبرهة وجيشه ، خرجوا آمنين مطمئنين ، فلم يتعرض لهم أحد ، وصارت لهم مكانة وحظوة ، ثم هو سبحانه أطعمهم من جوع بفعل هاشم ، وآمنهم من خوف إحساناً منه إليهم ، ثم دعاهم إلى طاعته وإلى إحسان المسير إليه ، قال : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤** ﴾[(٣)].

إحسان من الله جل وعلا لهؤلاء على كفرهم وعلى ضلالهم ، إحسانه لا ينقطع إلى خلقه ، قال : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾[(٤)] .

إحسانه للمسلمين وللكفار قال : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [(٥)].

---

(١) قريش .
(٢) الفيل .
(٣) قريش (٣ ، ٤).
(٤) العنكبوت (٦٧).
(٥) الأنفال (٢٦).

بل المصيبة التي تبتلى بها لا تخلو من نعم ، لا تخلو من إحسان ، فما أُصيب عبد بمصيبة إلا وكان له فيها ثلاث نعم : أنها لم تكن بأكبر مما كانت ، وأنها لابد كائنة وقد كانت ، وأنها لم تكن في دينه ، ثمَّ يؤخر عنك العذاب عندما يمهل عندما يملي لك ، هذا إحسان منه إليك وإلا ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾[١] ، و ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[٢] .

انظروا لحالكم وانظروا لإساءتكم ، وانظروا للبغي والشر والفساد الذي تعملون به ، وما زالت الأنفاس تتردد فينا ، هذا إحسان من الله إلى خلقه عصاهم يتوبون إليه ويرجعون ، وإلا لو آخذنا بذنوبنا لأهلكنا ، وهو غير ظالم لنا .

وربنا تبارك وتعالى من إحسانه لهذه الأمة أنه لا يأخذها بسنة عامة كما فعل بالأمم السابقة ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم أحسنوا المسير إلى الله تذكروا نعمه وأياديه ، تذكَّروا إحسانه ، إحسان لا ينقطع ليل نهار ، أحسن إلى الخلق أجمعين إلى البر وإلى الفاجر منهم ، وكان الواجب أن نحسن المسير إليه.

تذكَّر الصالحون إحسانه فقاموا يُذكِّرون أنفسهم والدنيا من حولهم ، يُذكِّرونهم أنه يجب عليهم الإحسان في مواجهة الإحسان يُذكِّرونهم بنعمته جل وعلا عليهم ، انظروا لما ذكر الله تبارك وتعالى نبيه موسى بإحسانه ، فقال : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣] .

---

(١) فاطر (٤٥).
(٢) الروم (٤١).
(٣) طه (٤٠ - ٤٦).

ذهب نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد امتلأ قلبه ونفسه بالشكر لله جل وعلا ، والشعور بهذا الإحسان الذي أحسن به ربنا تبارك وتعالى إليه وكان الصبر والثبات وكان الوقوف في مواطن الحق ، يسأله فرعون ، وهو من هو طغيانًا وكفرًا ، يقول له : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، يقول : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، يذكره بإحسان الله تعالى عليه ، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾(١) .

ثُمَّ قال جل في علاه : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾(٢) ، واجه هذا الإحسان بإساءة من عنده ، وهو لو تبصر في مقولته لأحسن المسير إلى الله وما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل، إلا وكان في الدليل ما يرد عليه ويدحض بدعته، عندما يقول للمصريين: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾(٣) ، حتى لو كان له ملك مصر ، من الذي وهبه ذلك ، من الذي ملكه ذلك ؟! ، وإلا فالأرض ومن فيها ملك لله عز وجل ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾(٤) .

فكان الواجب عليه أن يعبد ربه لا أن يتنطع ، ولا أن يدعي الربوبية والألوهية مع الله حتى قال : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٥)، ولو

(١) طه (٤٩ - ٥٥).
(٢) طه (٥٦).
(٣) الزخرف (٥١).
(٤) آل عمران (٢٦).
(٥) غافر (٢٩).

كان الأمر حقًا من الذي وهبه هذا العقل من الذي وهبه هذه الفطنة ، هذه الآراء الرشيدة التي يزعمها ، ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾(١) ، وإلا فلو كان صاحب عقل لأحسن المسير إلى الله ، لواجه إحسان ربه بإحسان من عنده ، وأقام الدنيا على أساس من دين الله جل وعلا .

انظروا إلى اعتراف الأنبياء والمرسلين بهذا الإحسان ، نبي الله يوسف صلوات الله وسلامه عليه يتعرض لفتنة ومحنة ، فيقول : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٢) .

ويقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة ذي القرنين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾(٣)، هل يستوي من أحسن مع من أساء ، يختلفان اختلافًا عظيمًا في الدنيا والآخرة فمن أحسن فسيقول له حسنًا ، ثُمَّ إذا ما رُدَّ إلى ربه تبارك وتعالى كان الجزاء الحسن .

قصَّ علينا ربنا من الآيات ومن القصص ما فيه عظة وعبرة ، وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾(٤)، وقصصه سبحانه هو أحسن القصص فيه عظة وعبرة ، فيه تذكرة لك حتى تُحسن المسير إلى الله ، حتى تتذكر نعمة ربك عليك ، حتى تتواضع لجناب الله ، بدلاً من التنطع والغرور ، بدلاً من الكبر والعجب ، بدلاً من الصد عن سبيل الله ،

---

(١) هود (٩٧).
(٢) يوسف (٢٣).
(٣) الكهف (٨٦ - ٨٩).
(٤) يوسف (٣).

بدلاً من أن تُنَصِّبَ نفسك نداً وإلهاً مع الله ، عندما تتذكر إحسانه ستحسن المسير إليه، أحسن كما أحسن الله إليك .

قصَّ علينا النبي ﷺ قصة الأعمى والأبرص والأقرع [١] جاءهم الملك في سورة سائل لاختبارهم ولامتحانهم ، وكان الكل فقيراً ، وكان الكل ذا عاهة ، فامتن عليهم ربنا تبارك وتعالى ، جحد الأبرص ، وجحد الأقرع نعمة ربه عليه ، وقال للسائل : إنما ورثته كابراً عن كابر ، وكله كذب وكله جحود للإحسان ، ثم أُتي هذا الأعمى ، فقال : خذ ما شئت ودع ما شئت ، يقول سائل وابن سبيل شيء أتبلغ به في سفري ، فيقول : لا أجهدك في شيء أخذته لله تبارك وتعالى ، كنتُ أعمى فردَّ الله عليَّ بصري ، كنت فقيراً فأغناني الله ، يعترف بإحسان الله إليه ، فلما اعترف اعترافه هذا حفظ الله عليه النعمة ، مثل مضروب حتى نأخذ منه العبرة والعظة .

لما ذهب بلال رضي الله عنه لكي يخطب لأخيه ، ماذا قال لأسرة العروس ، قال : كنا عبدين فأعتقنا الله ، كنا فقيرين فأغنانا الله ، كنا ذليلين فأعزنا الله ، فإن تُزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله .

اعتراف بلال بإحسان الله إليه ، هذا الإحسان لم يمنع بلالاً من أن يذكر حالته، وما انتقل إليه ، وما انتقل إلى ذلك إلا بفضل الله عليه ، كان هذا شأن المحسنين من عباد الله ، يُحسنون المسير إلى الله ، يعترفون بإحسان الله عليهم .

وأنت تُطالع السير والقصص ستجد الكثير من ذلك ، انظر في سير سلفك الصالح رضوان الله عليهم أجمعين كان الواحد منهم إذا ما سُئِلَ كيف أصبحتَ ؟ يقول : أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أشكر ، بين ذنوب سترها الله عليَّ لا يستطيع أن يُعيرني بها أحد ، ومحبَّة قذفها الله في قلوب عباده لا يبلغها عملي ، اعتراف منه بإحسان الله إليه ، ويكتب الأخ لأخيه يقول له : أما بعد ، فقد أصبح بنا من نعم الله

(١) رواه البخاري ومسلم .

ما لا نُحصيه مع كثرة ما نعصيه، فلا ندري أيتهما نشكر أجميل ما يسَّر أم قبيح ما ستر ، ثمَّ يخرجون للخلق للحكام وللمحكومين ، للأغنياء وللفقراء يُذكِّرونهم بإحسان الله إليهم .

يخرج العز بن عبد السلام للسلطان الأيوبي في يوم عيد ، وقد اصطفت الحاشية، وهو في قلعته ، فيقول له العز بن عبد السلام : يا أيوب ما قولك إن وقفت بين يدي الله غداً ، فقال لك : ألم أبوأ لك ملك مصر ، وأنت تُبيح الخمور . قال : هذا قد كان؟ قال : نعم ، حانة كذا يُباع فيها الخمر . فقال له السلطان أيوب : بل هذا كان من زمن أبي . قال له : أنت ممن قال الله فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[١] ، يُذكره العز بإنعام الله عليه ، بإحسان الله إليه بوَّأه الله على مصر ، فكيف لا يُحسن المسير إلى الله ، كيف لا يُحكِّم شرع الله ، كيف لا ينقاد لأمر الله ، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وتحدث المحاورة بين سعيد بن جبير وبين الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان ما كان ، ثُمَّ ضحك سعيد بن جبير ، فسأله الحجاج عن سبب ضحكه، فقال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عنك ، إحسان كان على الحجاج أن يُواجهه بإحسان لا أن يجترأ على مثل هذا النحو ، لا أن يصدَّ عن سبيل الله ، لا أن يمنع من طاعة الله جل جلاله ، لا أن يقف مثل هذا الموقف الَّذي دعاه لجبروت ولظلم ولتعدٍ حتَّى سأل سعيد بن جبير ، وقال له : أنت شقي بن كسير ، قال : بل كانت أمي أعلم باسمي منك ، قال : شقيت وشقيت أمك . قال : الغيب يعلمه غيرك . قال : لأُبدلنَّك بالدنيا ناراً تلظَّى . قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . انظروا محاورة تدل على جبروت من جهة وثبات من جهة أخرى ، تذكير بإحسان الله إلى خلقه وإلى عباده .

يقف أبو حازم مع سليمان بن عبد الملك ، فيقول له: عظني . فيقول له : إنَّ

(١) الزخرف (٢٣).

آباءك أخذوا هذا الأمر بغير حق وسفكوا في سبيله دماً كثيراً ، فلو علمت مكانهم عند الله غداً . ضجت القاعة لقولة أبي حازم ، وقالوا له : بئس ما قلت لأمير المؤمنين . قال : بل بئسما قلتم أنتم إن الله أخذ علينا العهد والميثاق لَتُبَيِّنُنَّ للناس أمره ولا نكتمه، قال له سليمان : عظني . قال له : احذر أن يراك حيث نهاك ، وأن يفتقدك حيث أمرك ، هكذا كانوا قوامين بالحق ، وقافين عند حدود ما أنزل الله معترفين بإحسان الله إليهم ، مُذكرين الخلق أجمعين بوجوب إحسان المسير إلى الله .

كان أبو بكر ﷺ يقول : وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

كان هذا هو شأنهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]، لما استشعروا إحسان الله إليهم وعلموا أن النفس إلى موت ، وأن المال إلى فوت ، وأن الإنسان لا يُحسن إلى نفسه بأعظم من القيام بأمر الله تبارك وتعالى ، باعوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس في سبيل الله ، فكيف يدخرون وسعاً في طاعة ربهم ، كيف لا يُحسنون المسير إليه ، فهان عليهم المال وهانت عليهم النفس ، وبذلوا ذلك كله في سبيل الله راضية بذلك نفوسهم مطمئنّة بذلك قلوبهم ، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الواحد منهم يبذل ماله ، فإذا ما قيل له في ذلك : ما تركت لأولادك ؟ يقول لهم: تركت لهم الله ورسوله . فالمال منه وإليه ، والملك هو ملك الله جل وعلا، أحسن إليك ، فكيف لا تحسن أنت المسير إليه ؟

ومن قبل كان الأنبياء والمرسلون ، نبي الله إبراهيم عليه السلام يواجه بصلف وظلم وتحدٍ ، فيقول : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [2]، يُنيب إلى الله يتوكل

(١) الأحزاب (٢٣).
(٢) الصافات (٩٩).

عليه يُحسن المسير إليه يُؤمر بذبح ولده فيهم بذبحه نزولاً على أمر الله ، هو طوع إشارة ورهين أمر . كلهم طالع إحسان الله عليه ، فكان الحياء وكان الخجل .

كان البعض يقول : لو ضمنت الجنة لظلت هموم الحياء تؤرقني ، هذا هو الحياء من الله ، هذا هو إحسان المسير إلى الله في سرهم وعلانيتهم ، في جلوتهم وخلوتهم ، كانوا يحرصون على طاعة ربهم ، « **فاتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** » [١] .

وإذا ما خلوت الدهر يومًا فلا ... تقل خلوت ، ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

ومن ظن أنَّ الله لا يراه فقد كفر ، ومن علم أنَّ الله يراه ، فكيف يجعله أهون الناظرين إليه ؟ «**فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢] ، هو ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)** ﴾ [٣] ، فليكن منك العدل في الغضب والرضى ، والإخلاص في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى، وادع ربك تبارك وتعالى أن يجعل صمتك فكرًا ، ونطقك ذكرًا ، ونظرك عبرًا، إنه سبحانه وليُّ ذلك والقادر عليه ، وأقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .



(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى، وحسّنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٩٧).
(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) الشعراء (٢١٨، ٢١٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

عباد الله ، من أساء فليحسن ، ومن رأى نفسه مُحسناً ولا أظنكم كذلك فعليه أن يزداد إحساناً ، وعلى كل حال لابد من إحسان ، وإذا وجهت لك الإساءة ، فادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾[1] .

والرجل عندما أتى رسول الله ﷺ وقال له : أَصِلُ رحمي ويقطعونني ، وأحلم عليهم ويجهلون عليَّ ، وأُحسن إليهم ويُسيئونَ إليَّ ، فقال له ﷺ : « **إن كنت كما تقول ، فكأنما تسفهم المل** (أي التراب الحار) **ولا يزال لك من الله ظهير ما دمت على ذلك** »[2] .

أنت تُحسن وهم يُسيئون إليك أنت تتعامل مع الله ، لا خيبة ولا ضياع مع من أسلم وجهه لله ، مع من أحسن المسير إلى الله ، أحسن كما أحسن الله إليك ، أنت صاحب عقل امتن عليك ربنا تبارك وتعالى ، هم يُسيئون لأنفسهم بهذه السفاهات وبهذا الإفساد ، فعليك أنت أن تُحسن « وأُحسن إليهم ويُسيئون إليَّ » .

فلا تواجه الإساءة بالإساءة ، أعن الخلق على طاعة الله تبارك وتعالى ، لا داعي لإعانة الشياطين على نفوسهم ، واتق الله فيمن لم يتق الله فيك ، وأحسن كما أحسن

---

(١) فصلت (٣٤) .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الله إليك وابتغ الأجر من الله ، واعلم أن الإحسان عائده عليك ، ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (١) ، فعائد ذلك عليك .

ربك تبارك وتعالى هو الحكم العدل سبحانه ﴿ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ﴾ (٥) .

هذا لما كان منهم الإحسان ، وكانت منهم التقوى لم يضيعهم الله ، بالرغم من تكالب قريش والأعداء عليهم أنجاهم سبحانه بمنّه وبكرمه ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) ﴾(٦) ، و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾ (٧) .

وليس ذلك قاصراً على الرجال دون النساء ، لا ، فالحكم يتعدى الرجال إلى النساء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ (٨) .

إحسانه سبحانه وتعالى إلى الخلق كافة ، وأنت إن أحسنت عائد ذلك إليك وعليك ، يقول جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾(٩) ، هو يحب المحسنين سبحانه ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ (١٠) ، فأنت إن أحسنت كان الله معك بمنه وتوفيقه

---

(١) الإسراء (٧) .
(٢) يونس (٤٤) .
(٣) يونس (٢٦) .
(٤) النجم (٣١) .
(٥) آل عمران (١٧٢) .
(٦) الكهف (٣٠) .
(٧) التوبة (١٢٠) .
(٨) الأحزاب (٢٩) .
(٩) العنكبوت (٦٩) .
(١٠) النحل (١٢٨) .

وتأييده وتسديده ، فأبشر بالخير كله في الدنيا قبل الآخرة ، إحسانك سيعود إليك ، ليس فقط يوم تقوم الأشهاد لرب العالمين ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (١) .

هذا هو وعد ربنا جل وعلا لمن أقام نفسه وفق كتاب الله ، ووفق سنة رسول الله ﷺ ، قصَّ عليك ربنا تبارك وتعالى القصص ، وانظروا لمعاني الابتلاء الّتي ابتلى بها الخلق قديماً وحديثاً ، أنت مُبتلى ، أتُحسن أم تُسيئ ؟ ، أتُحسن في قولك وفعلك أم تُسيئ في ذلك ؟ أتُحسن في ليلك ونهارك أم تُسيئ في ذلك ؟ أنت مُبتلى ومُطالب بالإحسان في غناك وفقرك ، في سرك وعلانيتك ، وكل آن وحين ، خاطبك ربنا ، وقال : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٣) .

قصَّ علينا قصة قارون مع قومه وكلها عظة بليغة ، وانظروا كيف أنه لمّا لم يُحسن خسف به ربنا تبارك وتعالى الأرض ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ

(١) النحل (٩٧).
(٢) القصص (٧٧).
(٣) الملك (٢) .

اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

ثم خُتمت القصة بقوله جلّ وعلا : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١) .

هذه هي خاتمة المسك لقصة حكاها لنا ربنا تبارك وتعالى ، وقصصه هو أحسن القصص ، وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، ظلم وأفسد وتعدّى ، يقول سبحانه مُعدداً نعمه وإحسانه إليه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ تمتع بالحلال لا حرج في ذلك ، كُلْ واشرب والبس من غير سرف ولا مخيلة، أَدِّ شكر هذه النعم التي امتنّ بها ربنا سبحانه عليك ، عش حياة الطاعة والعبودية ، قالوا له : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ، قيل : إفساده في الأرض كان عبارة عن إطالة الثوب .

انظروا لما أنتم عليه الآن ، هل أنتم على إحسان أم على إساءة ؟ ، هل أحسنتم المسير إلى الله أم أفسدتم ؟ ، وانظروا لكلمات أهل العلم في بغيه وإفساده وتطاوله ، قالوا عنه بغيه أنه نسب رزق الله إلى نفسه ، قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ وجد نفسه قد أعطاه الله مالاً عظيماً ، ثُمَّ السمع والطاعة كانت للصلاح، كانت لمن

(١) القصص (٧٦ – ٨٤).

أحسن ، كانت لنبي الله موسى ﷺ . فضاق صدر قارون بذلك ، وأطال ثوبه ، بغى وتكبّر ، منع حق المساكين في ماله ، وذلك كان إفساده الّذي استحقّ به الخسف ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

وقيل : كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة ، ولكنها قراءة دون عمل ، دون إذعان ، دون إحسان المسير إلى الله ، القرآن حجة لك أو عليك ، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .



ندوة الستر

قبل أن نشرع في الحديث والكلام على موضوع الستر ، نحتاج لأن ننبه على وفاة الشيخ بن عُثيمين – رحمة الله عليه – هو دُفن بالأمس عن حياة حافلة بنشر العلم النافع في هذه الأمة ، وهو عَلَمٌ من أعلام الهدى انتفع به الخلق هنا وهناك على مستوى الدنيا بأسرها .

والحُـــــرُ من رعى وداد لحظة وانتـــــمى لمن أفـــاده لفظة

ووفاء العهد من الدين ، والعلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ، ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، لحومهم مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وإذا لم يكن العلماء بأولياء لله فليس لله ولي ، كما يقول الإمام الشافعي – رحمة الله عليه – والشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – مكانته العلمية معلومة ومعروفة درس الفقه الحنبلي وتتلمذ على عدة شيوخ ، وكان في الأعم الأغلب يُفتي بفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهذا لم يمنعه من أن يُخالفه في بعض المسائل التي أداه إليها اجتهاده كعالم من علماء الأمة ، جمع بين الحديث والفقه ، له مؤلفات ، ألّف ما يزيد عن الخمسين مُؤلفاً ومات عن عمر يزيد على السبعين .

حياته حافلة كما ذكرنا بنشر العلم النافع في أوساط هذه الأمة ، دعوة ربانية لرد هذه الأمة لكتاب ربها ولسنة نبيها بفهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، بفهم سلف الأمة ، هو واحد من جملة العلماء المعتبرين ، ومن طالع حياة الشيخ ابن عثيمين حتى في لحظاته الأخيرة ، وكيف أنه يعطي درسه في الحرم من الحجرة الملتحقة بالحرم المكي الشريف آثر المكث والإقامة في حرم الله تبارك وتعالى حتى يواصل عمله ودعوته على الرغم من الظروف الصعبة المرضية التي مر بها وصلت

المناعة إلى صفر كما يقولون ، يعيش على المحاليل ، وزنه وصل إلى نحو من ثمانية وثلاثين كيلو ، أي تقول وزن طفل وعلى الرغم من ذلك استمر في العطاء حتى لحظاته الأخيرة .

وكان عمل النبي ﷺ ديمة ، وكان يقول : « **أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل** »[١] وكان سلفنا الصالح إذا عملوا عملاً أثبتوه ، وهذا هو شأن علماء الأمة المعتبرين علمهم يتوافق مع عملهم لا يقطعون الأعمال على النحو الذي نشاهده في أنفسنا حتى كملتزمين ومتدينين إذا ما أردنا إعطاء درس أو سماع درس ، نبدأ بكتاب الطهارة ، ثم نُغلق الكتاب وإذا ما دعتنا نفوسنا لحنين لنشر العلم سنستأنف بعد سنة بكتاب الطهارة ، ثم نُغلق الكتاب مرة ثانية ، ما هكذا شأن الصالحين على الرغم من حرج ظروفه إلا أنه استمر في العطاء كما ذكرنا رغم المرض الشديد ، يُكلم طلابه من الحجرة عبر الميكروفون ، يستمعون لكلماته .

والشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – التف حوله الكبار والشباب ، الكل كان يلتف حول الشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – ، ونحن اليوم ونحن نُشاهد هذه الظاهرة اللافتة للنظر ، وهي ظاهرة غياب العلماء ، هذه الظاهرة لابد أن تبعث على نوع من الوجل ، وإلا ففقد العلم إنَّما يكون بفقد العلماء لحديث حذيفة رضي الله عنه « **إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من صدور العلماء ، ولكن يقبضه بموت العلماء ، فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا** »[٢] ، قال حذيفة لو شئتم لأخبرتكم بأول علم يرفع من الناس قال: الخشية وهي ثمرة العلم المحمود، فيبسط الجهل ويرفع العلم الأمر الذي لابد وأن تتخوفه على

(١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ** » رواه البخاري ومسلم .

(٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا ، اتّخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلّوا وأضلوا** » رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

نفسك، أن تبسط الجهالة، أن تُرفع العلوم النافعة، وقبض العلم يكون بقبض العلماء.

وظاهرة لافتة للنظر في أيامنا هذه تجد عدداً كبيراً جداً من علماء الأمة المُعتبرين يرتحل إلى ربه ، هي ظاهرة بلا شك ظاهرة لافتة للنظر، إذا كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما من يوم إلا ونُشيع فيه غادياً ورائحاً إلى الله ، فنحن نُشيّع عالماً إلى الله تبارك وتعالى، ما من يوم يمر علينا إلا صرنا نُشيّع عالماً كان الناس ينتفعون بعلمه .

والعلماء هم السادة ، هم القادة الحقيقيون لهذه الأمة ، وأمة بلا علماء شأنها أدنى من شأن البهائم ، إذا خلت الأمة من العلماء صار هذا هو الشأن والحال جهالات كما ذكرنا ، وما عُصِيَ الله بمعصية أعظم من الجهل بالدين كما قال الإمام سهل ، ولما قيل له أتعرف أشدّ من الجهل ، قال : نعم الجهل بالجهل [(١)] ، إذ أنه يسد باب العلم بالكلية ، الإنسان عندما يُشاهد هذه الظاهرة ، فإنه يشعر بأسى ، هذا مشروع ومطلوب شعره الأفاضل بفقدان رسول الله ﷺ ، وأنت تشعره بفقدان علماء الأمة ، يحكي أنس رضي الله عنه ويقول : دخل رسول الله ﷺ المدينة يوم دخل ، فأضاء منها كل شيء ، وخرج منها يوم خرج فأظلم منها كل شيء حتى أنكرنا قلوبنا [(٢)] .

وكان البعض يقول : إني لأسمع بموت الرجل من أهل السنة ، وكأنما قطع عضو مني [(٣)] ، كان عندهم تقوى لله ، كانوا محبين لدين الله تبارك وتعالى ، كانوا يتخوفون على أنفسهم من الذنوب والمعاصي ما ظهر منها وما بطن وخصوصاً ، وعندما تتوالى المصائب ، عندما تتكاثر الفتن على مثل هذا النحو .

(١) وهذا ما يُسمّى بالجهل المُركّب أما الجهل البسيط هو أن يعرف الجاهل جهله .
وما أحسن قول القائل :
وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

(٢) قال أنس رضي الله عنه : «ما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ ، وما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ » رواه الدارمي . « مشكاة المصابيح » (٥٤٧/٢) ، « الرحيق المختوم » ص(٥٥٥) ، طبعة دار الحديث .

(٣) يروى ذلك عن أيوب السختياني – رحمه الله – .

تغيير في العالم السفلي ، وتغيير في العالم العلوي ، وقبض العالم هذه علامة من علامات الساعة ، وبسط الجهل ، ورفع العلم علامة من علامات الساعة ، عندما تتواكب العلامات على مثل هذا النحو ، ولعلكم سمعتم وشاهدتم خسوف القمر منذ يومين ، ثم علامات في العالم السفلي كلها تقرب من حسك العلامات الكبار التي تؤذن بقرب قيام الساعة ، والساعة لن تقوم حتى تستوفي جميع العلامات والأمارات ، تطلع الشمس من مغربها ، وإذا ما طلعت من مغربها آمن الناس جميعًا ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا .

وتخرج الدابة على الناس ضحى تكلمهم ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١) ، فيحدث تغييرات في العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وكل ذلك يؤذن بقرب الرحيل وانتهاء هذا العالم ، وقد ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٢) .

عندما يموت الشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – على هذا النحو ولا يسعنا إلا أن ندعو ربنا تبارك وتعالى : اللهم اغفر له ، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين، اللهم وسع له في قبره، ونور له فيه، وجازه بالحسنات إحسانًا وبالسيئات عفواً وغفرانًا، هو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

نحن نحتاج لأن ننهج منهج سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين في طلب العلم النافع ومتابعته بعمل صالح ، ولمّا ننظر في سير العلماء وتراجمهم نجد المعنى الذي خلّص به الإمام أبو حنيفة النعمان – رحمة الله عليه – وهو يقول : تراجم العلماء أحب إلينا من كثير من الفقه .

حياة كاملة وخصوصًا مع غربة الحال وانحراف الأوضاع ، الناس إذا ماتت راقصة أو مات ممثل سيذكرون تاريخها متى رقصت ! ، وكيف حاربت أهلها حتى

(١) النمل (٨٢).
(٢) الأنبياء (١).

ترقص! مثلاً ، الممثل العلاني متى مَثّلَ الفيلم ، وينشر البعض على الناس على مثل هذا النحو صفحات سوداء كانت حَرِيّةً بأن تطوى .

إذا كان هذا هو شأن الخلق مع الراقصة ومع الممثل ، كيف يكون الشأن والحال مع علماء الأمة المعتبرين ، لا شك أن ما عند الله تبارك وتعالى خير لهم، ولكن نحن نحتاج أن نترسم الخطى ، لما سُئل أبو حازم عن الزهد قال من جملة ما قال: إن علمت ميتاً تغبطه ، استعملت رجليك في عمله ، فإن كرهته رغبت بهما عن عمله، وأنت شاكر لله تبارك وتعالى .

هؤلاء العلماء تقول عملتهم عملةٌ نادرةٌ في وقت غربة وجهالة كهذا الوقت الذي نعيشه ، وإلا فقد كثُر قطّاع الطريق إلى الله ، الذين يُحلون ما حرم الله ، ويُحرمون ما أحل الله تبارك وتعالى ، فنحتاج لأن نتعرف على سير العلماء كيف عاشوا ؟ وكيف كانت حياتهم .

لمّا تنظر في مُتابعتهم العلم النافع بالعمل الصالح تجد والله آياتٍ بيناتٍ ، الشيخ ابن عثيمين كان يخرج من بيته إلى مسجده حافياً ، لمّا تنظر لهيئة التواضع التي كان عليها ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لمّا تنظر للمجاهدة حتى لحظاته الأخيرة ، أما آن له أن يرتاح وخصوصاً مرضه على هذا النحو؟ ، أما آن له أن يرتاح وقد نشر علوماً نافعة في الأمة؟، يُصرُّ على مكثه بالحرم ، وكان البعض يُلح عليه بالسفر إلى أمريكا، يرفض ذلك كله، ويمكث في الحرم يُعلم الناس ما جهلوه من دين الله تبارك وتعالى.

واللهِ جهاد كبير ، وهكذا ينبغي أن تكون حياة المسلم في كل آن وحين ، وهذا هو الحبّ لله ولدين الله تبارك وتعالى ، نحتاج لأن نترسم الخطى ، ونحن نحتاج للكلام على الستر اليوم ، المعاني قد لا تفترق أبداً ، وإلا فانظروا ما أيسر أن نحصل المادة العلمية ووسائل التحصيل ووسائل البحث قد تكون سهلة ميسورة ، ليست قاصرة حتى على المجلدات التي تمتلئ بها المساجد والمكتبات، لا ، الآن كمبيوتر كما

يقولون، وما أيسر أن أجمع أنا المادة العلمية للموضوع الفلاني هذا سهل ويسير ، شبكات الإنترنت ونحو ذلك قد تخدم .

هل سترتفع الجهالة بمقتضى ذلك ؟ سؤالٌ مطروح .

قد يقول قائل : العصر عصر العلم ، أبداً ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴿٧﴾ ﴾ [١] على الرغم من توفر وسائل البحث والاطلاع إلا أن الجهالة تزداد يومًا بعد آخر ، تحكي لك ما حكاه وما ذكره الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه من بسط الجهل ورفع العلم [٢] ، على الرغم من توفر وسائل البحث على النحو الذي نشاهده ، جهالة نحسها في أنفسنا وفي الدنيا من حولنا ، وغربة تزداد يومًا بعد آخر .

نحتاج لمجالسة العلماء ، نحتاج لاغتنام الفرصة قبل فوات الأوان ، ولذلك قال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإنَّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يُحيي الأرض بوابل السماء » .

وكان أبو الدرداء يقول : « من لم ير الغدو في طلب العلم جهاداً ، فقد نقص في عقله ورأيه » .

جهالات تحدث حتى مع وجود الحماسات ونحو ذلك، والنوايا الطيبة تزداد بها بعداً عن الله تبارك وتعالى، فنحتاج لأن نجالس العلماء، نحتاج لاغتنام هذه الفرصة قبل فوات الأوان، الإنسان يلطم خده بعدها، يشق ثوبه، يدعو بدعوى الجاهلية [٣].

نحن الآن في الفرصة ، وبالتالي أن نتعلم ما جهلناه من دين الله تبارك وتعالى،

---

(١) الروم (٧).

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهلُ ويُرفعُ فيها العلمُ ويكثرُ فيها الهرج ، والهرج القتلُ** » رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم .

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ليس منّا مَنْ لطم الخدود وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية** » رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وأن نرتحل حتى لسماع حديث ، ارتحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً لسماع حديث واحد من عبد الله بن أنيس .

انظرْ للمكتبات الموجودة في المساجد من الذي يفتحها؟ التراب يعلوها، وأنت كأنك تنشد درساً إنْ كنت طيبًا ملتزمًا في جوف بيتك، أما أن ترتحل خطوات تقول: هيهات ثم هيهات، هذا صار من الصعب العسير، والناس بلا علماء أشبه بالبهائم(١) .

ولذلك نحتاج لأن نتعلم أمر ديننا ، جهالات تحدث وتزداد حدة على الرغم من توفر وسائل البحث كمبيوتر وغير كمبيوتر ، إلا أن الجهالات تزداد حدة ، آيات ، تقول سبحان الله آيةٌ وعلامةٌ من علامات النبوة ، وكل حديث شريف لو أمعنت فيه النظر تقول سبحان الله آيةٌ وعلامةٌ ودليل من دلائل نبوة رسول الله ﷺ ، ثُمَّ مَنْ عَلِمَ ، هل عمل بما علم ؟! .

نحتاج لترسم خطى العلماء ، انظروا في حياتهم واحداً تلو الآخر ، تقول سبحن الله تابعوا العلم النافع بعمل صالح في أحرج وأحلك لحظاتهم ، هذا هو شأنهم ، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول : « أخاف أن يُقال يوم القيامة : يا عويمر هل علمت ؟ فأقول : نعم ، فيقال : ماذا عملت فيما علمت؟ » .

وقال البعض لأخيه: يا هذا إذا أفنيت عمرك في طلب السلاح فمتى تُقاتل به؟، إذا أفنيت عمرك في طلب العلوم، رآه يتعلم ولا يعمل بعلمه ، ولذلك ونحن ندرس موضوع الستر وغيره نحتاج لوقفة، وإلا فقد تكون أنت علمت الكثير من هذه المعاني، هل تابعنا ذلك بعمل صالح ؟ نحتاج لتربية نحتاج لسلوك ، نحتاج لمجاهدة النفس ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٢) .

---

(١) ولقد أحسن القائل :

اعلم بأن عصبة الجهال ... بهائمٌ في صورة الرجال .

وقال الآخر :

نهارك هائمٌ وليلك نائمٌ ... كذلكِ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

اللهم أحي قلوبنا ونوِر عقولنا ، واشرح صدورنا وألهمنا رشدنا وقِنا شر أنفسنا .

(٢) العنكبوت (٦٩).

حسبة واحدة علم وعمل ، أن نتفقه في دين الله ، أن نتعرف المعاني الشرعية ، هذا مطلوب ومشروع وفي ذات الوقت نحتاج كما ذكرنا لتربية إيمانية سلوكية ، سلفنا الصالح عندما ندرس توحيدهم وعقيدتهم لابد من توحيد عملي سلوكي ، نحتاج لمجاهدة النفس ، لو قلت لأخيك : هيا بنا نؤمن ساعة ، لو فتشت في نفسك وأسديت النصح لإخوانك ، وإلا فالقرآن حجة لك أو عليك ، نتعلم الكثير ، ولكن هل تحققنا به ؟ .

كان هذا شأن العلماء المعتبرين ، والله ما ارتفعوا لمثل هذه المكانة إلا بصدقهم مع الله تبارك وتعالى وخشيتهم لله جلّ وعلا ، قيل: كان الإمام مالك – رحمة الله عليه – ضعيف البنيان ، ولكن كانت له هيبة شديدة جداً ، يقول العلماء : لشيء كان بينه وبين الله ، خشية تمكنت من نفسه ، ولذلك قُذفت له الهيبة في قلوب الخلق ، لقوة بنيانه؟ أبداً ، لم يكن الأمر كذلك ، ولذلك لابد من تعامل مع الله ، وصدق في الالتزام بدين الله تبارك وتعالى .

نحتاج لأن نُغير ما بأنفسنا عسى ربنا تبارك وتعالى يُغير حالنا لأحسن الأحوال و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

عندما نتذكر الشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – ونستحث أنفسنا والخلق من حولنا على تأدية بعض حقه ، هذا مطلب شرعي ، النبي ﷺ يقول : « **من صنع لكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تُكافئوه ، فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه** » (٢) .

ولما مات النجاشي نعاه النبي ﷺ لأصحابه ، وقال : « **استغفروا لأخيكم**

---

(١) الرعد (١١).

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣١٠) والنسائي (٨٢/٥) ، ورواه الترمذي وابن حبان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه بلفظ « **من صنع إليه معروف ، فقال لفاعله** : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء » (٦٣٦٨) صحيح الجامع ، ورواه الطبراني في الكبير بلفظ المؤلف (٥٩٣٧) صحيح الجامع .

النجاشي» [١] لم يُصل عليه الناس ، مات وسط الكفار ، ولذلك خرج النبي ﷺ إلى المصلى وصف أصحابه وكبر أربعا .

فإننا نستحث أنفسنا على الدعاء للشيخ ابن عثيمين – رحمة الله عليه – نسأل الله تبارك وتعالى أن يتغمده برحمته في عباده الصالحين ، هو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه ، وما زلنا في الفرصة ، **« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عن دين الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»** [٢] .

علينا أن ننهج منهج سلفنا الصالح، وأن نرجع جميعًا لكتاب ربنا ولسنة نبينا ﷺ بفهم أعلم الناس بالكتاب والسنة، وهم سلف الأمة، وما خلت الأرض من قائم لله بحجة، و **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»** [٣] .

ولا تحقرن من المعروف شيئًا ، انهض أنت ، انهض في طلب العلوم النافعة، جدد ما تخلق من دين الله تبارك وتعالى **« يبعث الله على رأس كل مائة عام من يُجدد لهذه الأمة شبابها »** [٤] ، – ما تخلق من دين الله – ، قد يكون المجدد مجموعة من الخلق ، أو واحداً من علماء الأمة ، لا بأس بذلك ، احرص على علو الهمة ، وإذا رأيت الرجل يُنافسك في الدنيا ، فألقها في نحره ونافسه في الآخرة ، وإنْ استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل ، نحتاج لأن نتعلم دين الله تبارك وتعالى .

نحن اليوم نتكلم في موضوع مهم ، وهو موضوع الستر ، هذا الموضوع جارٍ على ألسنة الخلق كل الخلق ، أنت عندما تسأل إنسانًا مثلاً أحيانًا يعبر ويقول لك

---

(١) عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ : **« إن أخاكم النجاشي قد مات فقوموا فصلُّوا عليه »** رواه مسلم والنسائي عن جابر والإمام أحمد ومسلم والنسائي والترمذي عن عمران .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث عن أبي هريرة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي ، مشكاة المصابيح (٢٤٨) .

(٣) **« لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم مَنْ خذلهم ، ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس »** رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه .

(٤) **« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »** رواه أبو داود والبيهقي في « المعرفة » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥٩٩) الصحيحة ، (١٨٧٤) صحيح الجامع .

مستورة ، مستورة لأن جيبه مثلاً مملوءٌ بالنقود ، وتجد العبارات مكتوبة على المحلات ونحو ذلك يا رب سترك ونحو ذلك ، الكلمة تلهج بها الألسنة، ألسنة الكبير والصغير، والرجل والمرأة ، والمسلم حتى والكافر ، الكل يلهج بهذه الكلمة ، بل لا أُغالي أنا لو قلت حتى السارق إذا ما خرج يسرق ، يقول يارب سترك، أليس كذلك؟ هذا واقع .

«ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» (١) هذا واقع أنت تعيشه والكلمات تجري على الألسنة وحسبك أن تتأمل وأنت تستعيد معاني السنن، السنن الشرعية والسنن الكونية، وإلا فدين ربنا لم ينفصل يوماً عن عالم الواقع، والبعض أحياناً يتلمس حتى موضوعات واقعية يقول: نتكلم في موضوع واقعي وأحياناً سبل الاستشارة والحماسة تغلب على البعض في السماع وفي الكلام مثلاً يأتي بموضوع مُثير، أو عنوان مُثير مثلا يجذب الأنظار، فتجد العدد يكثر بينما هو هو لو تكلم في موضوع التقوى مثلاً، وأنت تدري ما قيمة التقوى في دين الله ستجد الناس ينصرفون.

هذا واقع نحن نعيشه ، ونحتاج إلى انتباه ، كيف يُفكر الخلق ؟ ، نحن في حاجة أنْ نُعَدِّلَ في أنفسنا وأن نُصوب المفاهيم ، وإلا فلو كان موضوعًا مثلاً من مواضيع الإثارة تجد الناس يتزاحمون يملأون الشوراع ونحو ذلك ، لا بأس بعرض كل المعاني وضبطها بدين الله تبارك وتعالى ولكن عندك نظر عندك تقوى لله تبارك وتعالى .

والبعض أحياناً يقول لك : هذا موضوع من جملة الموضوعات النظرية ، فصار في دين الله ما هو نظري ، وما هو عملي ، وقسمنا دين ربنا على مثل هذا النحو .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ ولفظه: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينهب نهبةً ذات شرفٍ يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » زاد الإمام أحمد ومسلم « ولا يغل أحدكم حين يغلّ وهو مؤمن ، فإيّاكم إيّاكم » ، والغلول هو ما يختلس من الغنيمة ، وفي الحديث لما أثنى الصحابة ﷺ على مولى الرسول ﷺ ، وقالوا: هنيئاً له الجنة أو الشهادة ، قال ﷺ : « والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلّها لتشتعل عليه ناراً في قبره » أو كما قال ﷺ . رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﷺ .

ما من مسألة في دين الله تبارك وتعالى إلا ولابد من العمل بمقتضاها لا يمكن أن ينصلح حال البلاد والعباد بدونها ، هات أي مسألة من المسائل ، مسألة الستر هذه جارية على الألسنة ، الكلُ يتكلم بها ، انظر هذا واقع الأمر وحقيقته ما ضابط هذا المعنى الذي نتلفظ به، ما هي ضوابطه؟، نحتاج لترجمة واقعية للمعاني الشرعية، انظر ما يحدث، أخبار الحوادث، من وراء القضبان ، أنت تسمع حتى من وراء القضبان تعلم أن جريمةً ستُرتكب وقتلاً سيحدث، ولو أمسكت قلبك بيدك، ولو سمعها ضعيف القلب لربما مات من أثر السماع ، لماذا تنتشر هذه الأشياء؟ ما من جريدة إلا وفيها صفحة للحوادث، هل هذا من ورائه فائدة؟ وخصوصًا إذا كانت المسائل لا تنضبط لا بداية ولا نهاية، بل فيها إشاعة للفاحشة في الذين آمنوا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (١).

واقع أنت تعيشه ، ولذلك زادت نسبة الحوادث ، ومن وراء القضبان ، وصفحة الحوادث ، وما شابه ذلك يراها من لا دين عنده ، فيرتكب الجريمة ، وكيف يُحاول الإفلات ؟ وخصوصًا إذا ما عاش الناس بعقلية المراهقين ، الكل يتوهم أنه سيرتكب الجريمة وسيخفى أمره ، فلان الفلاني ضُبطَ لأنه لم يكن ذكيًا ، أما أنت فعندك ذكاء وفطنة سترتكب الجريمة ، وتُفلت وتكون النتيجة أن تشيع الجرائم ، دلالة للخلق على كيفية ارتكاب الجرائم .

ثم أنت عندما تنظر ، التهمة تحتاج إلى بينة أوضح من شمس النهار ، هل البيّنات كافية ؟ جريمة كجريمة الزنا ، لابد فيها من إقرار ، أو شهادة أربعة شهود ، ترى لو شهد اثنان على الجريمة نُقيم الحد ؟! لا يصلح ذلك ، ولو شهد الأربعة شهود نسجن الزاني ؟! أسئلة مطروحة تحتاج إلى ضبطٍ وإحكام نظرٍ ، ولذلك لابد من وقفة شرعية ، ستجد أن الستر مسألة لا يسعك أبداً أن تنفك عن معناها ، النبي ﷺ يقول :

---

(١) النور (١٩).

« **من أتى شيئاً من هذه القاذورات** (أي المعاصي والذنوب) **فليستتر** » [١] .

لا داعي لإشاعة الرذيلة والفاحشة في الذين آمنوا، لا داعي لتجرئ ضعاف النفوس والقلوب، « **فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله**» [٢]، سيُقام عليه الحد الشرعي، لما أتى هزال بماعز الأسلمي لإقامة الحد عليه، قال النبي ﷺ: «**لو سترته بثوبك لكان خيراً لك**»[٣]، الأمة لم تتشوف لكثرة عدد المحدودين، ولكثرة عدد المرجومين، ضوابط شرعية، الإخلال بها إخلال بدين الله، وإضاعة للبلاد والعباد، وليس لك أن تحقر من المعروف شيئاً ولذلك عندما نطرح موضوع الستر هذا، نرى أن له قيمة، له أهمية ، فهو جار على الألسنة، أنت تقرأه وتطالعه هنا وهناك، أنت تدعو الله تبارك وتعالى بالستر، وأنت عندما تنظر لنفسك ولدنيا الناس ستجد أن الستر صار هو الآخر وكأنه قد تقلص مفهومه، صار مادياً، مع قدر الحياة المادية التي نعيشها.

ما هو الستر ؟ عندما تسأل أنت ، ولعلك احترت وأنت تقرأ الكلمة في أي شيء أنا سأتكلم اليوم ، الستر عندنا معناه أن يكون الجيب مملوءاً بالنقود ، ستنطق أنت وتقول مستورة ، مستورة وقد تكون عاصياً لله تبارك وتعالى ، هل تُستَرُ حالَ موتكَ ؟! ستكون مستوراً وأنت في قبرك ؟! ستكون مستوراً يوم العرض على الله ؟! .

أنت تطلب ستراً كمؤمن مع كل نَفَس يتردد ، الستر صار في حسن الخلق ستراً على أحوال النساء في أحسن الأحوال حتى لا تفتضح مثلاً ، وأعظم صور الستر تقوى الله تبارك وتعالى ، تقوى الله جلَّ وعلا .

ولذلك قال سبحانه وتعالى في معرض الامتنان : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٤].

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) يروى ذلك عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٣) ضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» رقم (٤٣٧٧) .
(٤) الأعراف (٢٦)

فلباس التقوى هو خير لباس يتحلى به العبد ، ويستتر به ، وهذا لا يمنع من أن يستر الإنسان عورته « **استر عورتك إلا من زوجتك ، أو ماملكت يمينك** » [(١)] ، وهذا من تقوى الله تبارك وتعالى ، الرجل لا يتكشف أمام الرجل رغم أنهم رجال في بعضهم البعض ، والمرأة لا تكشف عورتها على المرأة برغم أنهن نساء بعضهن في بعض ، كما يفعل البعض في الأفراح ، ونحو ذلك ، هذا لا يحل ، هذا نوع من التهتك والفجور ، هذا نوع من التعري .

نبي الله آدم صلوات الله وسلامه عليه ، قال له ربنا جل وعلا : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)** ﴾ [(٢)] ، بيّن له سبحانه أنه إن خرج من الجنة تعنى ، تعنى هذه المطالب ، سيحتاج لستر يأوي إليه ، وسيحتاج لملبس يستره ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ .

هذا شأن العبد يسعى طلبًا لمسكن وملبس ومطعم ومشرب في حياته الدنيوية ، فأنت تحتاج لأن تستتر ، محتاج لسترة ، هذه مطلوبة وخصوصًا للنساء ، إذا ما نظرت في نصوص الشريعة تجد أن المرأة مأمورة بالتستر والتحجب والصيانة ، ومجموع النصوص الشرعية تأمرها بذلك ، هذا هو أمر ربها تبارك وتعالى ، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ** ﴾ [(٣)] ، حتى قال الإمام أحمد : ظفرها عورة ، ظفر المرأة عورة ، وحكى ابن رسلان اتفاق العلماء على أنه إذا كثُر الفساق ، وإذا ما خيفت الفتنة وجبَ على المرأة تغطية الوجه والكفين .

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والحاكم والبيهقي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ : « **احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك** » قيل : إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟، قال : « **إنْ استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها** » ، قيل : إذا كان أحدنا خاليًا ؟ قال : « **الله أحق أن يُستحيا منه من الناس** » ، حديث حسن (٢٠٣) صحيح الجامع .
ملاحظة :
حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده حديث حسن ، حسنه الإمام أحمد – رحمه الله – .

(٢) طه (١١٨ ، ١١٩).

(٣) الأحزاب (٥٩).

فالمرأة مأمورة بالاستتار ، شياطين الإنس والجن يسعون دوماً في إخراجها عن حيز الاستتار حتّى تكون فتنة لنفسها وللخلق ، ولذلك حذر النبي ﷺ وقال : « **إن الدنيا حلوةٌ خضرة ، وإن الله مُستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء** » (١) .

وبلية الأمة بالمرأة لما تعرت وتبرجت واختلطت بالرجال ، بلية لا تحتاج لحكايات أمرها واقع وبيّن ، والحذر كل الحذر من صور الاستدراج التي تتنافى مع تقوى الله تبارك وتعالى ، ﴿ **قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ (٢) .

فلابد من تقوى الله تبارك وتعالى ، ولابد من العمل بمعاني الاستتار ، الستر مطلوب ومشروع وله معاني عند علماء الأمة ، دلّت عليها نصوص الشريعة ، ونحن نحتاج أن نمر على هذه المعاني .

ما هو معنى الستر ؟ وما هو الحيز والحد الذي نستتر عليه ؟ ما هو الذي لابد من كشفه وبيانه ؟ ، نحتاج أن ندور مع نصوص الشريعة حيث دارت .

الستر يُطلق بمعنى تغطية الشيء ، وهذا في اللغة ، والستر والسترة ما يستتر به، والستر يُطلق بمعنى الحياء ، و « **الحياء والإيمان قُرنا جميعاً ، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر** » (٣) .

التعري وكشف العورات على مثل هذا النحو ، إن دل على شيء فإنما يدل على عدم حياء وعلى عدم إيمان أيضًا ، وورد في الحديث « **إن الله حيي ستير ، يُحب**

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) الأعراف (٢٦) .

(٣) **صحيح** ، رواه أبو نعيم في الحلية والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٣٢٠٠) صحيح الجامع .

الستر» [(١)] ، وورد أيضًا « **سَتير** » ، أحيانًا أنت تقول : يا ستار هكذا ، كلمة أيضًا دارجة على الألسنة لابد من تصويب للكلمات وإلا فالسَّتير والسِّتير من صفات الله تبارك وتعالى ، كما ورد في الحديث : « **إنَّ الله حيي يحب الحياء والستر** » وورد أيضًا « **حليم حي ستير** » ، هذا من صفات الله تعالى ، ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ [(٢)] ، فهو الستير سبحانه ، لابد من تصويب الكلمات والعبارات التي يتكلم بها البعض .

قال البعض : معنى ستَير أو سِتير : أي تارك للقبائح ساتر للعيوب والفضائح، يُحبُّ الحياء والستر من العبد ليكون مُتخلقًا بأخلاقه جل وعلا .

بالنسبة للشرع والاصطلاح كلمة الستر هذه لها معنى عند علماء الأمة .

قال المنذرى - رحمـــة الله عليه - : « الستر على المسلم: تغطية عيوبه وإخفاء هنَّاته[(٣)] إذا بدر منه شيء تستر أنت عليه ، لا تهتك ستره، وإلا فالجزاء من جنس العمل» .

وقال الحافظ بن حجر : « ومعنى قول النبيِّ ﷺ « **من ستر مسلماً** » قال : أي رآه على قبيح فلم يُظهره للناس ، وليس هذا ما يقتضي ترك الإنكار إذا ما رأيت عليه فيما بينه وبينه » .

وهذا معنى النصيحة ليست النصيحة أن تنصحه على رؤوس الخلائق وكأنما وبَّخته هذا توبيخ وليس نصيحة ، هذه النصيحة أن تنصح أخاك فيما بينك وبينه وخصوصًا إذا كان مستور الحال لم يُجاهر هو بمعصية إذن تستر عليه ، وفي ذات الوقت تنصحه وتنكر عليه فيما بينك وبينه ، هذه هي النصيحة وتكون بذلك قد جمعت بين المعاني الشرعية ، قال : « وإن رفعه إلى الحاكم » .

(١) **صحيح** : روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن يعلى بن أمية ؓ عن النبي ﷺ قال : « **إن الله تعالى حيي ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر** » (١٧٥٦) صحيح الجامع .
(٢) الأعراف (١٨٠).
(٣) **هناته** : سوآته وعوراته .

وقال أيضاً : « والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها ، فيجب عليه الإنكار ، وإلا رفعه إلى الحاكم ».

إذا كانت المعصية قد انقضت انتهت وستر عليه لا تُشيع هذه الفاحشة ، بل لا تُعيّره ، لا تُعير أخاك وإلا فقد يُعافيه الله ويبتليك أنت ، سل الله تبارك وتعالى العافية ، وليس لك كما ذكرنا أن تهتك ستر الخلق على مثل هذا النحو، لابد من الستر ثم تُنكر عليه فيما بينك وبينه ، فتلك هي النصيحة .

قال الإمام النووي - رحمة الله عليه - : « المراد بالستر ، الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد » .

أي أن العلماء فرّقوا بين المستتر بالمعصية غير المشهور بها ، وبين المجاهر بالفسق والفجور ، قال « فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه، بل يُرفع إلى ولي الأمر إن لم يُخف من ذلك مفسدة، لأن الستر على هذا يضلعه في الإيذاء والفساد».

سيضلع المجاهرون بالمعصية إلى مزيد من المجاهرة إذا تُرِكَ أمرهم ، وبالتالي لابد من الإنكار عليهم وعلانية ، ولا حرج أبداً في ذلك طالما تحققت المصلحة ، واندفعت المضرة والمفسدة ، كجرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم قد لا يحل الستر على هؤلاء ، واحد عامل على الزكاة أستر أنا عليه حتى يأخذ أموال الزكاة ويضعها في جيبه ، واحد يروي حديثًا عن رسول الله ﷺ وهو مجروح العدالة كيف تستر عليه ؟! كيف تستر على مثل هؤلاء ؟! ، ليست غيبة محرمة أن تذكر أمثال هؤلاء ، ولذلك العلماء تجدهم مثلاً ذكروا عن فلان أنه كذّاب، أنّه وضّاع ، هذا لا يدخل في الغيبة المحرمة .

قال النبي ﷺ : « **أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فضرّاب للنساء** » [1] ، وكان قد استشهد .

(١) متفق عليه، عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها .

أتكتم أنا ، واحدةٌ تسألني : فلان يصلح زوجاً ؟ أقول : لا والله هو كذا بمقتضى ما علمت ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١)، أنا لا أتكتم في هذه الحالة ، فالغيبة في هذه الحالة جائزة ، ونحو ذلك من الأشياء واحد على الصدقات والأوقاف ، واحد سيصير وصياً على الأيتام يأكل أموالهم ، أتستر أنا وأتكتم، تفوت المصلحة وتتحقق المضرة والمفسدة ، فلابد من التفريق بين ما يستر عليه ، وبين ما تدعو الحاجة والضرورة إلى ذكر حاله أو بيان انحرافه .

قال النبي ﷺ : «أما فلان وفلان لا أظن أنهما يعرفان شيئاً من ديننا» (٢)، ولما سألته هند بنت عتبة وقالت : إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يُعطيني وولدي ، قال لها : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » (٣) سيقضي لها النبي ﷺ إذن هو يحتاج لمعرفة حال أبي سفيان ، فالمرأة لا تأخذ من مال زوجها إلا بإذنه .

كيف يُجيز لها أن تأخذ دون علمه أن يكون شحيحاً مثلاً لا يعطيها ما يكفيها ، وبالتالي لابد أن تعرف أنه شحيح حتى يتوافق الحكم مع الواقع ، حتى تكون فتوى على هذا النحو ، فهناك حالات يُباح فيها هتك الستر ، وأنت لا تسير فيها وفق هواك، لا ، لابد وأن تتابع فيها أمر مولاك ، وأن ترجع إلى نصوص الشريعة ، وفهم العلماء المعتبرين لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ .

وردت الآيات في الستر ، وقد يكون بالمعنى الذي وضعت له الكلمة ، أو بمعنى آخر ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤)، وهذه حكاية عن أهل النار عندما ارتكبوا الذنوب والمعاصي والكُفريات ، هل عملوها واستتروا من

---

(١) يوسف (٨١).
(٢) روى البخاري عن عائشة ﵂ أنّ النبي ﷺ قال : « ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً » .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة ﵂ .
(٤) فصلت (٢٢).

جلودهم، وهذه ستشهد عليهم يوم القيامة ؟ .

وورد في الستر أيضًا آيات ولكن لها معنىً آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾[١] .

وقال عن ذي القرنين : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾[٢] .

ووردت الكلمة في حديث رسول الله ﷺ ، وقبل أن نستطرد ونذكر بعض الروايات التي وردت فيها هذه الكلمة نحتاج لتذكرة تتعلق بالتلذذ ليس فقط بآيات ربنا تبارك وتعالى ، لا ، وأحاديث نبينا صلوات الله وسلامه عليه والتدبر والتأمل في هذه الأحاديث البينات ، ورد قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾[٣]، وكذلك الأمر بالنسبة للحديث، كان أبو مسلم إذا سمع حديث رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا ، فلا تظالموا** »[٤] كان يجثو على الركب فرقًا وخشية لهذا الحديث الذي سمعه .

وقال الإمام أحمد : « هذا أشرف حديث لأهل الشام » .

وبالتالي أن تتلذذ ، أن تُمعن النظر ، تقول : ما شاء الله نور النبوة ، أحاديث دالة على نبوته ﷺ ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾[٥]، وخصوصًا والوقت وقت غربة نحتاج لإشاعة نصوص السنة ، وأن تكون أنت حريصًا على طلبها ، الوقت وقت غربة وشاع في هذه الآونة الطعن في حديث النبي ﷺ

(١) الإسراء (٤٥).
(٢) الكهف (٩٠).
(٣) محمد (٢٤).
(٤) رواه مسلم .
(٥) النجم (٣، ٤).

للوصول إلى الطعن في دين الله تبارك وتعالى جملةً وتفصيلاً ، ولا نحتاج أن نحكي عن مصطفى محمود وما يفعله ، وما شابه ذلك هذه نعرة موجودة الآن تشتد يومًا بعد آخر كما ذكرنا ، وهذا سبيل للهدم سلكه البعض قبل ذلك ، مردود عليهم .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٨١﴾ ﴾ (١) ، والعمل الدعوي في مواجهة العمل التخريبي مطلوب ، إذا كان هؤلاء يهدمون السُّنَّة ، فإشاعة السُّنَّة في الخلق مطلوبة ومشروعة .

بو هريرة رضي الله عنه وغيره تعلمون كيف كان حرصه على طلب حديث رسول الله ﷺ أعظم شيء تستنفذ فيه الأعمار ، هو طلب العلم النافع ومُتابعته بعمل صالح ، إن لم تُشغل الأنفاس بل الدنيا من حولنا بدين ربنا ، بذكر حديث رسول الله ﷺ ، وبالآيات البيّنات ، فبأي شيء تُشغلُ ؟! وبأي شيء سنشغل الدنيا ؟! .

كما ذكرنا لابد من دلالة الخلق على الحق ، إذا كان البعض يهدم في السُّنَّة ، فأنت عندك من الوسائل الكثير ، أنت تأتي حتى وتقرأ على الخلق ، على أهل بيتك حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ « **الدال على الخير كفاعله** » (٢) .

لنبي ﷺ قال : « **بلغوا عني ولو آية** » (٣) ، « **من بلغته آية فقد بَلَغَهُ الحق** » وقال ﷺ : « **رُبَّ مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** » (٤) .

---

(١) يونس (٨١) .

(٢) **صحيح** : رواه البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه ، والإمام أحمد والطحاوي ، وابن عبد البر عن أبي مسعود البدري (٣٣٩٩) صحيح الجامع .

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **بلّغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ مُتعمدًا ، فليتبوأ مقعده من النار** » .

(٤) رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **نضّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ، ثم بلغها عني ، فرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه** » (٦٧٦٥) صحيح الجامع .

فتبليغ دين ربنا هذا مطلوب في مواجهة هذه الهجمة الشرسة على السُّنَّة تُرى أنا سأجلس هكذا وأنقل أحاديث النبي ﷺ لا بأس بذلك ، والله أنت ستعدها مسابقة لحفظ مثلاً صحيح البخاري وصحيح مسلم مثلاً ، لحفظ الأربعين النووية ، لحفظ الخمسين الرجبية مشروع ، نوع من إشاعة مفاهيم الهدى .

العمل في مواجهة العمل مطلوب ، والقول في مواجهة القول أيضًا مطلوب ، وشأنك أن تغار إذا ما انتهكت محارم الله ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١) .

وقد يقول البعض : أنا لست حافظًا لسُنَّة رسول الله ﷺ ، ماذا أصنع ؟.

والله المسألة سهل يسيرة، ولك سلفٌ، الإمام أحمد بن حنبل –رحمة الله عليه – كان يحفظ ألف ألف حديث ، أي مليون ، وكان إذا ما أراد أن يروي الأحاديث نقلها من كتاب ، لماذا ؟ ألم يكن حافظًا ؟! ، كان حافظًا لأحاديث رسول الله ﷺ ، هل هي الحيطة ؟ قد يكون خشية أن ينقل مثلاً لفظًا بمعناه قد يكون والحيطة مطلوبة، والسلامة لا يعدِلُها شيء ، هل هو تدريب لأمثالنا مثلاً بدلاً من الحرج ونحو ذلك ؟ لا ، والله المسألة سهلة يسيرة اجلس مع الخلق وانقل لهم أحاديث رسول الله ﷺ ، حتى وإن البعض لا ينتبه إلا إذا ارتجلت الكلام هكذا أما أن تنظر في كتاب ينصرف هو باهتمامه وينشغل عنك هنا وهناك .

بإذن الله تعالى هي جلسة مُباركة طيبة في النهاية ما تكلمنا فيها إلا في آيات ربنا وأحاديث نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، هل عندما أنقل أنا من كتاب هكذا يكون علاجًا لنفسي ، وإلا فأنا قد أنظر لنفسي على أنني المفوه أستطيع أن أرتجل المعاني مثلاً، ونحو ذلك ، دون الرجوع لكتاب قد يكون في المسألة رادعٌ والله للنفس ، حتى مع حفظي أقرأ أنا من كتاب ، هكذا كان يصنع الإمام أحمد – رحمة الله عليه – .

(١) الأنعام (٨٩).

فالمسألة والله سهلة ويسيرة بالنسبة لمن حفظ ، وبالنسبة لمن لم يحفظ ، أن تُبلغ دين ربك ، أن تنهض بالعلم النافع ، وبالعمل الصالح ، وتُبلغ الحق للخلق، فتستوي الحسبة على مثل هذا النحو ، علم وعمل ، ودعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وما تعلمته من دين الله تبلغه للخلق .

العلم يزكو بالنفقة ، ولذلك كما ذكرنا ، نحن في حاجة لأن نتابع هدي نبينا ﷺ ، وكل حديث والله أغلى من الدنيا وما فيها ، تخيل مثلاً حديث : « **ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها** » [١] والله أنت تعلمت منه جوهرة ، الجوهرة قد تسعى في طلبها تضيع عمرك ، وهذا هو شأن البعض يرتحل إلى كندا لطلب دراهم معدودة ، يبيع دينه بدنيا غيره ، وهذا هو شأن البعض ، ركعتا الفجر (سُنَّة الفجر) خير من الدنيا وما فيها حديث تقول : سبحان الله كيف يفوتك ؟ ولو فاتك لفاتك خير كثير .

بقي بن مخلد يأتي من الأندلس لسماع الإمام أحمد ، فوافق ذلك زمن محنة الإمام ، فقنع بقي بن مخلد بسماع حديث واحد من الإمام أحمد وكان يأتيه في زي شحات . في زي شحات . المسألة تستحق ! إي والله تستحق ، بل لو سرت أنت على رأسك طلبًا للعلم النافع ، تقول : تعظيم لحرمات الله ، ولكن لما جرت الدنيا منا مجرى الدم من العروق ، وصار الكفاح الكبير طلبًا للقمة العيش ، وصرنا نحيا حياةً أشبه بحياة البهائم مع جهالتنا بدين الله تبارك وتعالى ، هذه مُصيبة ، هذه آفة في حد ذاتها لابد من رفعها ، وإلا فالإنسان لا يشقى أبداً بطاعة الله تبارك وتعالى ، وسعيه في إقامة أمر الله .

أحاديث كثيرة وردت فى معنى الستر ننقل بعضها بإذن الله تعالى :

منها: ما رواه عبد الله بن جعفر ﷺ قال : « أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذي والنسائي عن أم المؤمنين عائشة ﷺ ، (٣٥١٧) صحيح الجامع .

خلفه ، فأسرَّ إليَّ حديثًا ، لا أُحدّث به أحداً من الناس ، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل » [١] .

قال ابن أسماء في حديثه : يعني حائط نخل .

إذا ما طلب قضاء الحاجة كان يستتر ﷺ ، لا يتكشف ، لا يتعرى ، وهذا أدب لابد من العمل بمقتضاه ، ثم عبد الله بن جعفر رضي الله عنه يقول : « أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدّث به أحداً من الناس » .

« المجالس بالأمانة » [٢] وأنت الآن لو تخوفت من نشر سر أو حديث لك وجهه حتى وإن ائتمنه ، وقال لك السر في بئر ونحو ذلك ، هذا مظنة أن يشيع أكثر وأكثر بعكس ما لو صعدت على المنبر أنت وتكلمت تعالَ واسأل الخلق السامعين الخطبة مثلاً ، ما الذي استفدتموه لو قالوا لك معنى ، تقول : والله شيء طيب جداً ، بينما لو أسررت أنت مثلاً لهذا بكلمة تجد الكلمة تنقل وتصبح لها قيمة ، وكل لسان يتقاذفها ، وهذا واقع مُريب إنْ دلّ على شيء فإنما يدل على أننا بحاجة أن نتأدب بالآداب الشرعية ، وأن نعمل بهدي نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

أيضًا : ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين ، وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة » ، والستور هذه لها أحكامها ، النبي ﷺ مثلاً في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال لها : « إنا لم نؤمر فيما رزقنا الله أن نكسو الحجارة والطين » [٣] أي نستر الجدران بستر ونحو ذلك ، يكره ذلك ،

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

(٢) حديث حسن ، رواه الخطيب البغدادي عن علي ، ورواه أحمد وأبو داود عن جابر ، الديلمي عن ابن مسعود، الأحاديث الضعيفة (١٩٠٩) (٣٢٢٤) ، (٦٦٧٨) صحيح الجامع .

(٣) رواه مسلم وأبو داود عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة واللبن والطين » .

والبعض ذهب إلى تحريمه إلا لو دعت حاجة أو ضرورة . فوهة فتحة باب أو شباك أو نحو ذلك ، تحتاج لسترها أما أن تكون الستائر من الجدار للجدار هذه مخالفة للسنة .

انظر أيضًا لما ورد أن الرجل إذا أغلق الباب وأرخى الستر ، فقد دخل ، لها المهر وعليها العدة ، أحكام مترتبة على هذه الستور الموجودة ، إذا أغلق الباب وأرخى الستر، أي على المعقود عليها ، على المرأة التي عقد عليها ، فقد دخل ولها المهر وعليها العدة، أقاموا هذا الفعل مظنة الدخول بها يقول الدخول حكم أو حقيقة ، وهذا قول جمهور العلماء ، هذا الفعل أن يخلو بها خلوة صحيحة ، يأمن فيها الرجل مواقعة المرأة يكون لها المهر ، بمقتضى ذلك وعليها العدة، أحكام مترتبة لابد من العلم بها، وإلا فما من مسألة إلا ويترتب عليها عمل وسلوك ، والسلوك مرآة الفكر .

يقول أنس ﷺ : « كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة ، فنظر إلينا ، وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف » [(١)] صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي الله عن أنس ، أدب وحب تمكن من النفوس ، وانظروا لدقة التعبير ، ولدقة التشبيه، والبعض قد يكون عنده جلافة [(٢)] في القول وفي الفعل لا داعي لها .

انظر إلى قول أنس ﷺ يقول : « كأن وجهه ورقة مصحف » ، محبين لله ولدين الله وكتاب الله ، يشبه وجه رسول الله ﷺ بورقة مصحف ، يقول : « ثم يبتسم رسول الله ﷺ ضاحكًا » قال : « فبهتنا ونحن في الصلاة » كادوا يفتنون ، شقّ عليهم امتناع النّبيّ ﷺ عن الخروج ، وكأنهم توهموا أن النبي ﷺ سيخرج كعادته للصلاة بهم .

يقول : « ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف » أي ليصلي فيه ، وكأنه قد تقدم لإمامة الخلق ، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم .

(١) رواه البخاري باب مرض النبي ﷺ (٢/٦٤٠) .
(٢) غلظة وجفاء .

قال : « ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر » قال : « **فتوفى رسول الله ﷺ من يومه ذلك** » ، وهو يوم الإثنين ، توفى فيه النبي ﷺ ، **بعدما أرخى الستر على مثل هذا النحو** .

أيضاً روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها ، **فوجد على بابها ستراً فلم يدخل** (الستر هذا كان عبارة عن قرام وفيه **نقوش ونحو ذلك ، فلم يدخل**) قال : وقل ما كان يدخل إلا بدأ بها (لم يدخل على ابنته **فاطمة** رضي الله عنها لما وجد على بابها ستراً على مثل هذا النحو) .

« فجاء عليّ رضي الله عنه فرآها مهتمة ، فقال : ما لكِ ؟ قالت : جاء النبيُّ ﷺ **إليّ فلم يدخل** ، فأتاه عليّ رضي الله عنه فقال : يا رسول الله إن فاطمة اشتدَّ عليها **أنك جئتها فلم تدخل عليها** ، فقال : « **ما أنا والدنيا وما أنا والرقم** » [1] ، **والرقم كما ذكرنا** الزينات والزخارف والنقوش والصور التي وجدت في هذه الستارة التي علقتها **السيدة فاطمة** رضي الله عنها .

فذهب إلى فاطمة فأخبرها بقول رسول الله ﷺ ، **فقالت : قل لرسول الله ﷺ** (انظر لأدب الابنة مع أبيها) ما يأمرني به ، قال : « **قل لها فلترسل به إلى بني فلان**» .

أيضاً ورد عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبراز ، (**أي في** الخلاء لم يستتر ، تعلمون الستار مطلوب نبي الله موسى عليه السلام ، **كان يستحي** ، عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت تستحي منه الملائكة ، أنت **تتعامل مع ربك تبارك** وتعالى، لا داعي للجرأة ، الرجل كان يغتسل بالبراز ، أي في **الخلاء بلا إزار**) ، فصعد النبي ﷺ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال ﷺ : « **إن الله عز وجل حليمٌ حيي ستير ، يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر** » [2] .

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (٥٥٥٥) صحيح الجامع ، ورواه أبو نعيم في الحلية (٢٤١٢) وأبو داود .
(٢) **صحيح** رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي (١٧٥٦) صحيح الجامع .

تستتر بالحجارة ، تستتر بكذا أما أنْ تتكشف أمام الخلق ، من الفضائح والمهازل ، يبدأ زواجه بمعصية الله ، لا نتكلم عن المخدرات ، وما يتم من اختلاط الرجال بالنساء، لا ، مع غسل الرجال ، وهذا أسمعه ، وغسل النساء نوع من التكشف المريب ، تكشف الرجال على الرجال بزعم أنهم رجال مع بعضهم البعض ، وتكشف النساء بزعم أنهن نساء مع بعضهن البعض .

انظر حتى للشباب ، الشباب الآن في البلكونات وفي الشوارع تسمع فضائح الشاب من هؤلاء يخرج عريانًا في شباك ونحو ذلك أمام الخلق لا حياء ولا استتار **«والحياء والإيمان قُرنا جميعًا، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر»** (١) .

الأشج المنقري لما طلب الماء طلب الاستتار ، فتعجب البعض ، فقال النبي ﷺ : **« الحياء أوتوها ومنعتموها »** .

المرأة لما أتت تسأل عن ابنها وهي منتقبة ، وتعجب البعض قالت : لأن أرزأ في ولدي خير من أنْ أُرزأ في إيماني . أن تفقد ولدها خيرٌ لها من أنْ تفقد حياءها، وتفقد إيمانها ، خرجت تسأل عنه وهي منتقبة والله **« الحياء خير كله »** (٢) ، و **«الحياء لا يأتي إلا بخير »** (٣) ، و **« إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لن تستح فاصنع ما شئت »** (٤) .

انظر إلى النساء الآن ، خلاعةٌ وفسقٌ وفجورٌ ، والله شأن المرأة أنْ تكون مطلوبةً ، لا أن تكون طالبة ، شيء من الحياء حتى وإن لم نتعلم الحدود الشرعية ، كيف تتعرى المرأة على مثل هذا النحو ؟! ، هل سمعتم هذه النسبة التي يذكرونها ؟ ، الآن

---

(١) صحيح رواه أبو نعيم في الحلية والحاكم والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٣٢٠٠) صحيح الجامع .

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين .

(٤) رواه أحمد والبخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود .

ربع سكان أوربا وأمريكا ، الآن يتعرضن لحوادث العنف (اغتصاب فما دونه) ممارسات جنسية ونحو ذلك ، انظر هؤلاء الذين يتبجحون بالتطور والتقدم وحرية الفكر وحرية كذا ومساواة المرأة بالرجل ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ [١]، ضوابط شرعية لابد من العمل بمقتضاها ، لمصلحة المرأة ولمصلحة الرجل .

أن نستورد مثل هذا العرى ومثل هذه الخلاعة، هذا إضاعة للمرأة وإضاعة للأمة، ربع الحالات ، أي من كل أربع من النسوة ، امرأة تتعرض لحادث من حوادث العنف، تقول : سبحان الله ، لماذا يحدث ؟! هذه هي الإحصاءات التي أوردتها وسائل الإعلام ، لماذا حوادث العنف على مثل هذا النحو ؟! الزنا والفواحش سهلة يسيرة هناك ، فلماذا يحدث العنف على مثل هذا النحو ؟! ، واحدة تُغتصب لماذا؟ ما هي الدواعي ؟ .

الرجل يُريد أن يُثبت رجولته وفحولته ، السهل اليسير ، صار وكأنه لا لذة فيه مثلاً ، يحتاج لنوع من المعاناة ، حتى وكأنه حظِي بالفريسة في النهاية ، نال مطلوبه ، أثبت شجاعته مثلاً لما اغتصب المرأة ، تقول : انتكاسة عقل وانتكاسة فطرة ، وهذا شأن من انحرف عن منهج الله ، ضاع الحياء وضاع الإيمان نتيجة لعدم الاستتار ، فإن تتحجب المرأة هذا لمصلحتها ، ومصلحة الأمة من حولها .

أيضاً : أورد أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً ، لا يرى من جلده شيءٌ استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلد ، إما برص وإما أدرة** » (البرص داء يُصيب الجلد نوع من البياض يحدث بالجسد ، والأدرة انتفاخ الخصية) ، وهم قوم بهت كان يستتر صلوات الله وسلامه عليه . عنده حياء ، عنده إيمان ، فهل سلم من ألسنة بني إسرائيل ؟ ، أبداً ، رموه بالبهتان، وبهذه الآفات .

---

(١) آل عمران (٣٦) .

قال : « **وإن الله أرَادَ أنْ يبرأه مما قالوا ، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنَّ الحجر غدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حَجرُ ، ثوبي حجرُ ، حتّى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل** (وهو لا يدري صلوات الله وسلامه عليه ، يطلب ثوبه ، وهو يجري وراء الحجر حتى يأخذ ثوبه ، مر على جماعة من بني إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وشأن الأنبياء جميعًا السلامة من العيوب ومن الآفات، برأهم ربنا من العيوب حتّى لا ينفر الخلق عنهم بزعم دمامة الخلقة) .

« **فرأوه أحسن ما خلق الله وبرّأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه فوالله إنَّ بالحجر لندبًا من أثر الضرب ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾**[١] » [٢] .

أيضًا : روى ابن عباس ﷺ قال : « **إنَّ ابن عمر ، والله يغفر له أنْ أوهم إنما** كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم (أي كان هذا الحي من الأنصار ، وكانوا يعبدون الأوثان ، يقتدون بهذا الحي من اليهود ، واليهود وإنْ كانوا قد غيّروا وبدلوا إلا أنَّ عندهم بقيةً منْ كتاب ، وكان الأنصار يقتدون باليهود في فعلهم) .

وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قرين ، يشرحون النساء شرحًا منكرًا (أثناء الإتيان) ، ويتلذذون منهن

---

(١) الأحزاب (٦٩).
(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أبي هريرة ﷺ .

مقبلات ومُدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرت عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف (أي على جنب) ، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني ، حتى شري أمرهما (أي استشرى أمرهما وانتشر بينَ الخلق) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [١]، أي مُقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد» .

وإلا فلا يصح إتيان المرأة من الدبر في الدبر ، لا يجوز ذلك ، وتحرم هذه الفعلة ، ولا تُمكّنه المرأة من ذلك ، يعني لا يأتيها وقت الحيضة ، ولا في الدبر و « من أتى امرأة في دبرها ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » [٢] .

ولم يمنعهم الحياء ، والحياء لم يمنع النبي ﷺ من الإجابة ، وإلا فالبعض حياؤه يحتاج إلى حياء ، يعيش به جاهلاً في دنيا الخلق ، يحتاج لأن يتعلم ما جهله من دين الله تبارك وتعالى .

أيضًا :عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرًا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة أنّ رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه :

« بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف، فمن وَفَى منكم فأجرُهُ على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فأُخذ به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن ستره الله، فذلك إلى الله عز وجل، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» [٣] ، فبايعناه على ذلك .

---

(١) البقرة (٢٢٣).

(٢) رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، أو أتى امرأةً حائضًا ، أو أتى امرأة في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد » (٥٩٤٢) صحيح الجامع .

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

ما شأن العبد إذا ما أتى جرمًا يستوجب الحد ، يعني سرقة أو زنا ونحو ذلك ، والله إن تعدّى بجرمه إلى المخلوقين يردُّ الحقوق لأصحابها ، المال الذي أخذه دون وجه حق يرده ، وفي ذات الوقت يتوب إلى الله توبةً نصوحًا ، إذا فعل ذلك فقد تاب إلى الله متابًا ، وكما قال النبي ﷺ : « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له** »[(١)] .

إذن من الذي يقع تحت المشيئة ؟! من الذي ينطبق عليه هذا النص «**ومن ستره الله فأمره إلى الله عز وجل، إن شاء عذبه، وإنْ شاء غفر له** » هذا من مات على كبيرة ، ولم يتب منها وإلا فـ « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له**» ، ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨)** ﴾[(٢)] .

فالإنسان يستر على نفسه لا يهتك ستر نفسه، اقترف حدّاً أو ما يستوجب الحدّ يستر على نفسه وخصوصاً إذا كان لا حدٌّ يُقام، والإمام أحمد - رحمة الله عليه - كره رفع مَنْ استوجب الحدّ للحكام لما أساءوا التطبيق، هذا فعل الإمام أحمد، فإن يستر الإنسان على نفسه، ويتوب توبةً ويُتابع الإساءة بالإحسان، كما قال النبي ﷺ : «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[(٣)] ، أما من مات على كبيرة ، ولم يتب منها ، هذا هو الواقع تحت المشيئة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾[(٤)] .

« **ومن أتى شيئًا فعوقب به فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله عز وجل، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له** » ، قال عبادة : فبايعناه على ذلك .

أيضًا :ورد عن صفوان بن محرز المازني قال : بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد وهو حديث حسن (٣٠٠٨) صحيح الجامع.
(٢) الأنفال (٣٨) .
(٣) رواه أبو داود وأحمد والترمذي والبيهقي عن أبي ذر ، وأحمد والترمذي عن معاذ ، حديث حسن (٩٧) صحيح الجامع .
(٤) النساء (١١٦) .

آخذ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الله يُدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا ؟ ، فيقول : نعم أي رب » ، (أي يُقر على نفسه بالذنب الذي اقترفه) .

يقول : « **حتى إذا قرره بذنوبه** » (ذنوب كثيرة وأنت تنسى ، قيل : وما سُمي الإنسان إنسانًا إلا لكثرة نسيانه ، ولو أخذت حجرًا مع كل ذنب ، وألقيت به في بيتك، البيت سيمتلأ في أيام معدودة ، ولكن مع عدم الإخلاص ، وقلة التقوى ما نتذكر إلا القرش اليتيم الذي تصدقنا به يوم كذا ، وأنك صليت في رمضان ، وكنت تُصلي بجزء ، ومنٌ على الخلق والعباد، وأذى وكبر وغرور ، كما قال العلماء : رُبَّ طاعة أورثت عزًا واستكبارًا ، وربَّ معصية أورثت ذلاً وانكسارًا ، والعلماء يقولون : المخلص هو الذي يتذكر سيئاته كما يتذكر حسناته) .

فهذا العبد « **إذا قرره الله بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم** » ، والله أمور تدعو إلى الحياء من الله، والانكسار أن تنكسر بين يدي ربك ، أن تُحسن المسير إلى الله « **وأنا أغفرها لك اليوم** » [1] .

ولذلك قال العالم لما سُئل عما أصبح عليه قال : أصبحت بين نعمتين (وليست النعمة هي رغيف الخبز الذي تأكله وتُقبل يدك وجهًا لظهر ، لا هناك نِعمٌ أجلُ ، وكفى بنعمة الإسلام نعمة ، ستر الذنوب المعاصي التي تقترفها وأنت تتخوف من

(١) روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى يُدني المؤمن ، فيضع عليه كَنَفَه وستره من الناس ، ويُقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي ربِّ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يُعطي كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهاد** : ﴿ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ » .

إبدائها أمام صالحي الأمة ، أو بعض أهلك ، لو هتك سترك تقوم لك قائمة ؟! انظر لستر ربنا علينا) قال : ذنوب سترها الله عليّ لا يستطيع أن يعيرني بها أحد ، وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : ﴿ **هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴿١٨﴾ ﴾ (١) .

روايات كثيرة وردت في معنى الستر ، ومن جملة ذلك :

حث النبي ﷺ الرجال على التستر وعدم إبداء ما يحدث ، النساء الآن في كل مكتب من المكاتب حكايات الصباح ، الرجل يحكي والمرأة أيضاً تحكي ، وفضائح هل هي تحكيه للنساء ، بل تحكيه المرأة وحتى أمام الزملاء بزعمهم ، المرأة تنشرها لزميلها في العمل والرجل ينشر سر زوجته أيضاً في العمل .

النبي ﷺ نهى عن ذلك أشد النهي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «**أما بعد**» ثم أقبل على الرجال فقال : « **هل منكم الرجل إذا أتى أهله ، فأغلق عليه بابه ، وأرخى عليه ستره واستتر بستر الله ، ثم يجلس بعد ذلك فيقول ، فعلت كذا ، فعلت كذا** » ، فسكتوا ، فأقبل على النساء فقال : «**هل منكن من تحدث** » فسكتن، فجاءت امرأة وتطاولت لرسول الله ﷺ ليراها، فقالت : يا رسول الله إنهم ليتحدثون، وإنهن ليتحدثن ، فقال ﷺ : «**هل تدرون ما مثل ذلك ؟**» فقال : « **إنما ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه**» (٢) .

انظر للجهل ، والله انتكاسة تحدث عندما ينحرف الإنسان عن منهج ربه ، تجده يهرف بما لا يعرف ، لو كان عنده مسكة من عقل لما تكلم بمثل هذه الكلمات ، ينشر هذه المعاني عن زوجته ، سبحان الله !! .

وأضيف للجرم جرماً آخر ، وهو حكاية المرأة للرجل ، الحديث فيه أنْ يحكي

---

(١) هود (١٨).
(٢) رواه أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه (٧٠٣٧) صحيح الجامع الإرواء (٢٠١١) رواه أحمد .

الرجل للرجل ، والمرأة للمرأة ، الحكايات الآن في المكاتب وغيرها ، المرأة تحكي لزملاءها في العمل ، والرجل يحكي لزميلاته في العمل .

أيضًا ما يدور ويحدث « **فقضى منها حاجته** » والنبي ﷺ يقول : « **إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانًا في السكة ، والناس ينظرون إليه ، ألا وإن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه ، ألا إن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه**» (١) .

كما ذكرنا الأحاديث كثيرة ، وكلها عظيمة القدر تستحق الذكر ، ولكن نختار بعضها حتى لا نطيل عليكم .

ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة** » (٢) ، فالجزاء من جنس العمل .

والستر لا يقتصر فيه أن تستر عورته تأتيه بثوب مثلاً يستتر به ، هذا وارد ، المعنى أعم وأشمل من ذلك بكثير على نحو ما ذكرنا .

أيضًا ورد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل**» (٣) أنت لا تحقرن من المعروف شيئًا ، قد تكون هذه التمرة نجاتك من النار غدًا .

أيضًا ورد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من رأى عورة فسترها ، كان كمن استحيا موؤدة من قبرها** » (٤) .

(١) تمام الحديث السابق .
(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٣) رواه مسلم .
(٤) ضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» برقم (٨٩١) ، والضعيفة رقم (١٢٦٥).

فستر العورات مطلوب ومشروع ومن تتبع عورات الخلق تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته ، الجزاء من جنس العمل ، والبعض لا يرى إلا القذى في عيون الآخرين ، ويتجاهل أمثال الجبال في نفسه ، إن كان للناس عوراتٌ فعندك عورات ، فأنت إذا هتكت الستر لا تأمن على نفسك . ولذلك الناس أشاعوا هذا المثل: «من كان بيته من زجاج ، فلا يقذف الناس بالحجارة » تعامل في ذلك كله مع الله تبارك وتعالى .

أيضًا ورد عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله** » [1] .

فإذا دخل الخلاء يقول: «**بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**»[2] .

أيضًا ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يُصبح قد ستره ربه فيقول : يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه** » [3] .

هذا المجاهر عقوبته وخيمة عند الله عزّ وجل، استر على نفسك ، والبعض يحتاج لمراجعة، لا يشيع فقط عن نفسه ، وعن والده يقول : يفعل كذا، ويُسوي كذا، سترَ ربُنا عليه، لا داعي لهتك ستره، أنت تحتاج لبره حتى بعد وفاته، حتى وإن كان عاملاً بمعصية الله لا تهتك ستر الخلق على هذا النحو .

ولذلك اعتبروا من المعاصي والذنوب الاستدلال مثلاً بأن نبي الله آدم عليه السلام فعل

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه (٣٦١١) صحيح الجامع .

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

كذا ، أو أن حواء صنعت كذا ، هذا من سوء الأدب ، اعتبروا من سوء الأدب كذلك أن تستدل بأن الصحابة قاتل بعضهم بعضاً هذا من سوء الأدب ، هم كانوا من أولياء الله المتقين ، لا يصلح أن تستدل في حديثك بمثل ذلك ، أمورٌ سترها ربنا ، فَوِضْ أمرها لله وتقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴾ [١] .

ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة (بمعنى أنه تناولها واستمتع بها) ، وإني أصبت منها دون أن أمسها (والمقصود بالمس هنا الجماع ، أي أنه لم يُجامعها ، ولكن فعل ما دون الجماع) فأنا هذا ، فاقض فيَّ ما شئت ، فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله ، لو سترت نفسك ، قال : فلم يرد النبي ﷺ شيئًا ، فقال الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلا دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [٢]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة ، فقال النبي ﷺ: « بل للناس كافة» [٣].

هذا الرجل فعل هذا الفعل ، ولكن النبي ﷺ لم يستفسر منه ، وانصرف الرجل مغفوراً له ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ .

النبي ﷺ قال لأنس رضي الله عنه : « واغدو يا أنس على امرأة هذا ، فإن اعترفت ، فارجمها » [٤]، ذلك أن العسيف (الأجير) حَدَّثَ أنه زنى بامرأة صاحب الأرض ، وكان البعض قد حكم عليه بأن عليه مائة شاة ووليدة ، فأبطل النبي ﷺ الحكم لمخالفته لدين الله ؛ وذلك لأنَّ العقوبات المالية لا تصلح عوضاً عن إقامة الحد الشرعي .

---

(١) البقرة (١٤١).
(٢) هود (١١٤).
(٣) رواه البخاري ومسلم قريباً من هذا اللفظ، انظر «رياض الصالحين» باب فضل الصلوات حديث (١٠٤٩).
(٤) رواه البخاري كتاب الوكالة (٢١٤٧) ومسلم كتاب الحدود رقم (٣٢١٠).

لما ننظر في شأن علماء الأمة وصالحيها ، كان معنى الستر ، كان له قيمته ولهم فهمهم له ، ومن أعجب ما ذكر قول أبي بكر رضي الله عنه يقول : « لو أخذت سارقًا لأحببت أن يستره الله ، ولو أخذت شاربًا لأحببت أن يستره الله » .

تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، تقول : جمعوا المعاني ، وإلا فنحن ننظر للأمور بعين واحدة ، نزعة التشفي والانتقام والحدة ، ونحو ذلك ، ناهيك عن تكفير وغير تكفير ، وكأن الجنة لم تُخلق إلا لك ، والنار لم تُخلق إلا للخلق ، أين الرفق والشفقة ، انظر لأبي بكر رضي الله عنه حاكم الأمة ، هو الخليفة بعد الرسول ﷺ يقول : « لو أخذت سارقًا لأحببت أن يستره الله ، ولو أخذت شاربًا (شارب خمر) لأحببت أن يستره الله عز وجل » .

سيُقيم عليه الحد هو ، طالما وصل أمره إلى الحاكم ، ومستوفيًا للضوابط ، لا يسع الحاكم إلا إقامة الحد ، ولكن هذا هل يتعارض مع وجود الشفقة ، وأنك تحب له الستر وعدم الفضيحة ؛ لأنك تحب ذلك لنفسك ، وأنت تأتي للناس ، ما تحب أن يأتوك به .

يحكى أبو سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال : « دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا وأخوها من الرضاعة (والأخ من الرضاعة كالأخ من النسب، يحرم من النسب، خمس رضعات في سن سنتين تحرم) يقول : فسألتها عن غسل النبي ﷺ من الجنابة ، فدعت بإناء قدر الصاع ، فاغتسلت وبيننا وبينها ستر ، وأفرغت على رأسها ثلاث غرفات ، قال : وكان أزواج النبي ﷺ يأخذن من رؤوسهن حتى يكون كالوفرة » [1] يعني كانت الواحدة تأخذ من شعر رأسها حتى يكون كالوفرة ، والوفرة ما جاوز شحمتي الأذن ، وذلك بعد موت رسول الله ﷺ .

فأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع أخيها من الرضاعة عندما توضح له سنة النبي ﷺ في الغسل تضع سترةً وتصب الماء على رأسها رضي الله عنها .

---

(١) رواه مسلم «كتاب الحيض» (٤٨١).

أيضاً: ورد عن أم المؤمنين عائشة ﵄ قالت: « لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم (بمعنى ناموا) ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو ، أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه ، فقاموا إلى النبي ﷺ ، فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم » (١) .

وكانت عائشة ﵄ تقول : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه» **أولاً في** ذلك رد على من يقول إن الزوجة تصير أجنبية على زوجها بمجرد موته، هذا القول يصادم السنة ؛ لأن أم المؤمنين عائشة ﵄ تقول : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسّله إلا نساؤه » وهو صلوات الله وسلامه عليه قال لها : « **لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك** » (٢) إذن هذا هو الاستثناء استثناء الزوج مع الزوجة ، بعد الوفاة يحل للزوج أن يغسل زوجته ، هذا فعل عليّ مع السيدة فاطمة ﵄ بمعنى أن المرأة لا تصير أجنبية عن زوجها بعد الوفاة ، هذا كلام يخالف السنن والآثار ، ثم هم غسلوا النبي ﷺ ، وهو مرتدٍ لقميصه ، يصبون الماء على القميص ويدلكون قميصه .

بالنسبة لنا نضع سترة أيضاً ، هل الميت أثناء تغسيله نجرده من عموم ثيابه ونتركه عرياناً ؟ نحن نضع سترة ، وندلك دون السترة هذه ، ولكن لابد من ستره وبعد ذلك يكفن ، وعلى من غسل ميتاً أن يحتاط في مثل ذلك ، لا يترك الميت عرياناً .

أيضاً: ورد عن مريم بنت طارق : « أن امرأة قالت لعائشة ﵄ : يا أم المؤمنين إن كرياً (كرياً هذا رجل يستأجر) أخذ بساقي وأنا محرمة ، فقالت أم المؤمنين : حجراً حجراً ، (أي ستراً وبراءة من هذا الأمر) ، وأعرضت بوجهها ، وقالت : بكفها (بمعنى أهوت هي بكفها رضوان الله عليها استعظاماً لما تسمعه من المرأة ، أن رجلاً

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب الجنائز (٢٧٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه وصححه ابن حبان (٤٤٣) ، «بلوغ المرام».

يستخدمه الناس ويُؤجرونه أخذ بساق المرأة ، وهي تأتي وتحكي على مثل هذا النحو) فقالت : يا نساء المؤمنين ، إذا أذنبت إحداكن ذنبًا ، فلا تُخبرن به الناس ولتَسْتَغْفرنّ الله ولتتب إليه ، فإن العباد يُعيِّرون ولا يغيرون ، وإن الله تعالى يُغيِّر ولا يُعيِّر» .

انتبهوا... !!!

جواهر والله ، بل أغلى من الجواهر ، الجواهر لا قيمة لها ، الإنسان يخرج آخر الزمان بصدقته من الذهب لا يجد من يقبل منه ، ولا حياة للقلوب ولا للأرواح إلا بعلم نافع وبعمل صالح ، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : « **إنَّ العباد يُعيِّرون ولا يُغيِّرون، والله تعالى يُغيِّر ولا يُعيِّر** » .

هل استترنا الآن؟ الآن، البعض هو الذي يراود المرأة لابد وأن تحكي، أو هو الذي سيحكي وكأنها بطولات عملها في شبابه أو قبل زواجه، وكلها حكايات كان الأرفق به أنْ يستر على نفسه، ستر ربنا تبارك وتعالى عليه، كأنك عملت بطولة تأتي لزوجتك وتحكي لها كنت أعمل كذا وكنت أسوي كذا، ما مؤدى ذلك؟ تغار المرأة، تستحيل معاني المودة والرحمة إلى بغض وإلى انتقاص، لماذا تحكي ستر ربنا عليك؟.

والبعض يستكره امرأته ومصائب تحدث، استكراه وحلف بالطلاق، وإنْ لم تحكي ما فعلته قبل حجابك، وقبل كذا، تكوني طالقًا لو كتمت شيئًا ولو سترت شيئًا.

مصيبة والله ، وتصبح المرأة بين شِقّيْ رحى لو حكت لصارت فضائح ، ما الذي ستحكيه أنت قبل التزامك إلا الفضائح ، إلا أمورٌ يندى لها الجبين ؟!، كان حريًا بك أن تطويها ، لا أن تذكرها، وأن تستكره الخلق ، ولو كتمت تكون طالقًا .

النبي ﷺ قال : « **من أتى شيئًا من هذه القاذورات ، فليستتر ، فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله** » [١].

لا داعي لمثل هذه المهاترات ، مسألة تجهلها من دين الله يكون من شأنها أن

---

(١) موطأ مالك ، «كتاب الحدود» (١٢٩٩) من حديث زيد بن أسلم.

تدنس البلاد والعباد أم المؤمنين عائشة ﵂ تقول : « إذا أذنبت إحداكن ذنبًا ، فلا تخبرن به الناس » ، ليس عندنا صناديق غفران مثلاً ، سنذهب نحن ونحكي ما فعلناه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١)، نتوب إلى ربنا نستغفر الله ، نستر على أنفسنا ، ليس لنا أن نهتك الستر على مثل هذا النحو ، إن العباد يُعيّرون ولا يُغيّرون ، وإن الله يُغير ولا يُعيّر .

والمسكينة لو لم تحك طالق، ولو حكت هي طالقة، مصائب ثم مَنْ منكم لم يُذنب « **كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون**» (٢) لا توقعوا أنفسكم والخلق من حولكم في حرج، تعلموا ما جهلتموه من دين الله تبارك وتعالى، هي السنن، والله لا ينصلح لنا شأن ولا حال إلا بالاستقامة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ .

انظروا أيضًا لما يحكيه الحارث بن معاوية الكندي ، أنه ركب إلى عمر بن الخطاب ﵁ يسأله عن ثلاث خلال ، فقدم المدينة ، فسأله عمر ﵁ ، فقال : ما أقدمك ؟ قال : لأسألك عن ثلاث خلال ، قال : وما هنّ ؟ قال : ربما كنت أنا وامرأة في بناء ضيق ، فتحضر الصلاة ، فإنْ صليت أنا وهي ، كانت بحذائي ، وإن صلت خلفي خرجت من البناء ، وبالتالي أنكشف ، فقال عمر ﵁ : تستر بينك وبينها بثوب ، ثم تصلي بحذائك إنْ شئت .

فقه في دين الله تبارك وتعالى ، دعت الحاجة والضرورة أن تُصلي بحذائك، فماذا تصنع ؟ تستر بينك وبينها بثوب ، وتُصلي هي بجوارك لا مانع أبدًا من ذلك .

أيضًا قال العلاء بن بدر : « لا يُعذِّب الله قومًا يسترون الذنوب » .

البعض في بعض البلدان كالسعودية شأنهم شأن التفتيش عن القاذورات ، بمعنى إذا كانت المعاصي مستترة ، تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وإلا فمتى يكون

---

(١) البقرة (١٨٦) .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس ﵁ بسند حسن ، بلفظ : « **كل بني آدم** » **الحديث** (٤٥١٥) صحيح الجامع .

الخطر عندما يتعالى بها الخلق ، أما أن يكون ظاهر الأمر هو الحسن ، تقول : نعمة وأي نعمة .

الطيبون الصالحون يسهل عليهم أنْ يُطيعوا ربّهم تبارك وتعالى بلا تكدير عين، لا تقع إلا على ما يُرضي الله ، نساء محجبات مثلاً ، ونحو ذلك ، الكلُ بين راكع وساجد مثلاً حتّى إنْ اختلفت معهم في بيع وشراء لا كلمة نابية تسمعها ، والسيئات والمعاصي مستورة ، كون البعض بعد ذلك في الاستتار يصنع كذا ، ويُسوي كذا ، لا تنبش عن مثل ذلك ، لا تتكلم أبداً في مثل ذلك « **لا يعذب الله قوماً يسترون الذنوب** » ، الخطر كل الخطر في إبداء الذنوب والمعاصي .

هذا على مستوى المجتمع وإلا فالمرء لا يحل له إذا ما خلا بمحارم الله أن ينتهكها، لابد من حياء من الله

إذا مــــا خلوت الدهر يومـًـــا فلا تقل خلوت ولكن قل عليٌّ رقيبُ
ولا تحـسبن الله يغـفل سـاعـة ولا أنَّ مـا يخـفى عليـه يغـيبُ

الضحاك – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [١]، قال أما الظاهرة فالإسلام والقرآن ، وأما الباطنة فما يستر من العيوب ، هذه في حد ذاتها نعمة تستوجب الشكر له تبارك وتعالى .

قال الحسن البصرى - رحمة الله عليه - : من كان بينه وبين أخيه سترٌ ، فلا يكشفه (ستر يعني شيء ائتمنك عليه فلا تكشفه) .

بل قال العلماء : في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يكون المنكر ظاهرًا، بمعني مثلاً : لا ترفع الستر لتعلم ما تحته ، لا تكشف غطاء لتعلم ما فيه، انظر ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ [٢].

(١) لقمان (٢٠).
(٢) الحجرات (١٢).

متى يجوز التجسس؟ في حالتين ذكرهما الإمام أحمد -رحمة الله عليه- وذكرهما الحافظ ابن رجب : وهو ما لو علم الإنسان أن فلاناً يهم بالزنا بفلانة حينئذ يصح له أن يتجسس إنكاراً للمنكر ، لا يتركه حتى يواقع ما حرم الله ، فلان يهم بقتل فلان ، حينئذ لا مانع من التجسس إنكاراً لهذه الجريمة ، أنت لن تنتظر حتى تضبطه متلبساً بالجريمة ، فيكون فلان قد قتل ، وفلان قد واقع ما حرم الله .

قبل الفعل لابد من الإنكار ، انتبهوا .. هذه مسألة أخرى ، البعض يُريد ضبط الجناة متلبسين ، فيتركهم يواقعون ما حرم الله إن استطعنا منعهم سنمنعهم من ذلك ابتداءً ، لن نتركهم حتى نضبط القضية فيها تلبس ، لابد من إحلال الضوابط الشرعية محلها اللائق بها .

كان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمة الله عليه – يقول : إن المرأة لو صلّت وحدها كانت مأمورة بالاستتار حتى لو صلّتْ وحدها لا تتعرى ، البعض يسأل أحياناً تصلي في ثوب شفاف ، لا يجوز في بنطلون ، تكره الصلاة في الثوب الضيق ، المرأة تصلي في درع وخمار يستر ظهور قدميها ، حتّى وإن كانت وحدها يستر ظهور قدميها ، قد ينكشف باطن القدم ، يعفي عن يسير انكشاف العورة أثناء الصلاة ولحديث : « **استروا است صاحبكم** » .

لمّا صلّى عمرو بن سلمة بالناس وانكشف شيء من ظهره لم يأمره النبي ﷺ بإعادة الصلاة ، قال : « **استروا است صاحبكم** » [1] ، فيعفى عن يسير انكشاف العورة أثناء الصلاة .

يقول شيخ الإسلام - رحمة الله عليه - : « وأمر النساء خصوصاً بالاستتار وأنْ لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، ومن استثناه الله في الآية ، فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة ، هذا لا جناح عليها في إبدائها ما لم يكن هناك محظور آخر ، وإلا

(١) صحيح ، رواه أبو داود ، رقم (٤٩٦).

فبعض الثياب يكون زينة ، مثل أنْ ترتدي جلباباً أصفر، جلباباً أحمر ، تقول متبرجة ، ارتدت جلباباً من الرأس حتى القدم وغطّت وجهها ، ولكن الجلباب إن كان أصفر وأحمر كان زينة في نفسه ، فهذه صورة من صور التبرج ، أما ظاهر الثياب بمعنى أن يكون الثوب أسود أو بني أو رمادي بمعنى ليس زينةً في نفسه حتى تظهره ويعفى عنه على مثل هذا النحو .

عن عوف الأحمسي قال: كان يُقال من سمع بفاحشة، فأفشاها كان فيها كالذي بدأها انظروا ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾[١] .

ربُنا جعل لك أذنين ولساناً واحداً حتى تسمع أكثر مما تتكلم ، ليس كل ما علمته تتكلم به، وإلا فربُ العزة جل وعلا قال: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[٢] .

تشيع أنت الفواحش ، حتى وإنْ ارتُكِبَتْ تشيعها أنت بلسانك ، اسكت عليها حتى تموت ، كم من كلمة ماتت بالسكوت عنها ، أنت تنقلها ، والثاني ينقل عنك، لا يصح أبداً ، لا تثبت ، وحتى مع التثبت ليس كل ما علمناه ننقله إذا كان سيترتب على ذلك مضرة ومفسدة .

عن قبيصة بن عقبة قال: بلغ داود الطائي أنه ذكر عند بعض الأمراء، فأُثني عليه، فقال: إنما نتبلغ بستره بين خلقه، لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما زل لنا لسان أن نذكر بخير أبداً، والله ما نتبلغ إلا بستر ربنا ، وهذا هو الذي نتمناه، وهذا هو الذي ندعو به ربنا تبارك وتعالى أنْ يسترنا وإياكم فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض .

ورد أيضاً عن شرحبيل بن الصمت أنه قال : إنكم نزلتم أرضاً فيها نساء وشراب (شرب خمر) ، فمن أصاب منكم حداً فليأتينا حتى نُطهره .

---

(١) الإسراء (٣٦).
(٢) النور (١٥).

شرحبيل على الجيش يومئذ وهو الذي يأمر الناس بذلك، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فكتب إليه: «لا أُمّ لك تأمر قومًا ستر الله عليهم أن يهتكوا ستر الله عليهم».

حتى لو فعلوا ذلك تأمرهم أنت أن يأتوك حتى تُقيم الحد عليهم، قل: استروا على أنفسكم هذا الذي تقوله للخلق، ولا نتجاوز في ذلك السنن والآثار، من أتى ما يستوجب إقامة الحد يستر على نفسه، ويظل بين الرغبة والرهبة، ويتابع الإساءة بالحسنات، ويتوب إلى ربه توبة نصوحًا، ويستر على نفسه، ويستأنف حياة الاستقامة عسى ربنا أن يتوب عليه.

ورد عن عثمان بن أبي سودة ﷺ قال: لا ينبغي لأحد أن يهتك ستر الله تعالى، قيل: وكيف يهتك ستر الله ؟ قال: يعمل الرجل الذنب فيستره الله عليه، فيذيعه في الناس.

وأيضًا ورد أن رجلاً سأل الحسن فقال: يا أبا سعيد، رجل عَلِمَ من رجلٍ شيئًا أيُفشي عليه، فقال: سبحان الله، لا.

علمت فيه شيئًا لا تذيعه، النبي ﷺ كان إذا رأى شيئًا من أصحابه كان يقول: **«ما بال أقوام يقولون كذا، ما بال أقوام يقولون كذا»** (١) لا يقول أنت فعلت كذا، لا يهتك ستره، نصيحة عامة، والكلُّ سينتفع دون أن يُشير إلى واحد بعينه.

تكون هتكًا لستره، وإعانةً للشيطان على نفسه مع ضعف الإيمان سيتجرأ ويقول: أنا فعلت، وسأفعل كما هو مشاهد وخصوصًا إنه لم يجد على الخير أعوانًا، لا تقوى تردعه، ولا إعانةٌ له على طاعة الله، ثم أنت تهتك ستره على مثل هذا النحو، استر عليه، وتنكر عليه فيما بينك وبينه.

الستر هذا علاج، وأي علاج، معنى تختفي تحته الكثير من أمراض المجتمع، ثم تموت ولا تنتشر، وقد يؤدي ستر عيوب الناس إلى المحبة والتعاطف بينهم.

(١) صححه الألباني في صحيح النسائي رقم (٣٢١٧) والإرواء (١٧٨٢).

اليهود هم اليهود

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، المسلم يصدر في أقواله وفي أفعاله، وفي تقييمه للحوادث والأحداث عن كتاب الله، وعن سنّة رسول الله ﷺ، وإنما يصدر في ذلك كله عن الإسلام الذي يدين به.

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) .

فليس لنا أن نختار حتّى في تقييمنا للأعداء وللأصدقاء، وقد نبأنا العليم الحكيم بأنّ اليهود هم أشد الخلق عداوة لهذه الأمة ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ (٣)، وسبحانه خالق الخلق، ومالك الملك ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ (٤).

قال سبحانه: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٥) ، ولا يليق بنا أن نغيّر ولا أن نبدل في آيات الله جلّ وعلا ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (٦) ، وإلاّ فهل يجوز أن نجعل الأعداء ـ بل أشدّ الناس عداوة لهذه الأمة ـ نجعلهم أصدقاء لها؟! نجعلهم أحباباً لها؟! نجعلهم إخواناً

---

(١) النساء (٦٥) .
(٢) الأحزاب (٣٦) .
(٣) فاطر (١٤) .
(٤) الملك (١٤) .
(٥) المائدة (٨٢) .
(٦) يونس (١٥) .

لها؟! هذا لا يليق، هذا من جملة التغيير، من جملة التدليس، ومن جملة التلبيس، إن راج على هذا فلا يروج أبداً على من استمسك بكتاب الله وبسنّة رسول الله ﷺ واعتصم بالوحي الصادق و ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ (١) .

إن كان البعض قد لبس ودلّس، وصوّر الأمور على غير حقيقتها، فجعل المسلم السوداني أو المسلم العراقي هو عدو هذه الأمة، أو عدو هذا الشعب، ثم وكأن اليهود لمَّ غيّروا وبدّلوا، جلسوا وقبعوا في فلسطين آمنين مطمئنين، هذا أيضًا نوع من التغيير والتبديل، وإلاّ فالمسلم أولى بكل خير، والكافر أولى بكل شر، المسلم يحب حتى وإنْ ظلمك وجار عليك، والكافر يبغض حتى وإن أعطاك ومنحك.

ولابد وأن تنزل على حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ (٢)، وإلاّ فأشد الناس عداوة لهذه الأمة هم اليهود، لا، ليسوا السودانين أو العراقيين أو الليبيين، هذا من تدليس الأعداء، زخرفوا لنا القول، دلّسوا ولبسوا، فكانت النتيجة، ونتيجة انخداعنا عن منهج ربنا، أن تشردنا، هذه المغالطات وهذه الانحرافات، فأصبح العدو صديقًا وأصبح الصديق عدوًا، هذا من جملة التدليس، يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (٣) ، وقال: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٤) .

إذا كان الأمر كذلك، واليهود هم أشد الناس عداوة لهذه الأمة؛ فالواجب علينا أن نحذرهم، من الذي أخبرنا بذلك؟ هو رب العزة جلّ وعلا، ولا يقبل قول مع الله ـ تبارك وتعالى ـ رب العزة ـ جلّ وعلا ـ هو الذي أخبرنا بعداوة هؤلاء، فالواجب أن

(١) يوسف (١٠٨) .
(٢) يوسف (٤٠) .
(٣) البقرة (١٢٠) .
(٤) المائدة (٥١) .

نكون منهم على حذر من باب «اعرف عدوك» ، ومن باب :

عرفت الشر لا للشر، ولكن لتوقيه

ومن لا يعلم الشر من الخير يقع فيه

فلابد من الحذر من أعداء الأمة الحقيقيين، هؤلاء الأعداء، رب العزة ـ جل وعلا ـ هو الذي بيّن لنا عداوتهم، وبالتالي لابد وأن نصدر عن حكم الله، أن ننزل على أمره سبحانه، إنْ كنّا مسلمين، إن كنا ندين بهذا الدين، ونتشرف بالانتساب له.

فالواجب علينا أن نتخذ هؤلاء اليهود أعداءً لنا، ثم لما كانت العداوة متفاوتة، وأعداء الأمة كثيرين كما تعلمون يهود ونصارى وملاحدة وزنادقة، بل لا أُغالي حتّى لو قلت أصحاب المعاصي والفجور، قد يكنون نوعًا من العداوة للصالحين، للمستقيمين.

أهل البدع – أيضًا – قد يكنون لك عداوة في وقت من الأوقات، ولذلك قال عثمان بن عفان ﷺ: «ودت الزانية لو زنت النساء جميعًا» .

انظر لما فعله الخوارج بهذه الأمة سفكوا الدم الحرام، حتّى قال الإمام ابن كثير ـ رحمة الله عليه ـ : «ما أعجب جنس الخوارج، لله في خلقه شئون، خطَبَهم الراسبي خطبة بليغة، زرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، حذّرهم فيها من الدنيا، ورغّبهم فيها في الآخرة، وحثّهم فيها على القتال، وعلى الجهاد في سبيل الله، ثم خرجوا يقاتلون الصحابة، ولذلك لما قاتلهم عليّ بن أبي طالب قال: بؤس لكم قد ضركم من غرّكم، قالوا: ومن غرّهم يا أمير المؤمنين؟ قال: الشيطان، وأنفسٌ أمّارة بالسوء، سوّلت لهم المعاصي، ونبّأتهم أنهم ظاهرين، ولما مرّ عليهم أبو الدرداء ورؤوسهم معلقة على أبواب دمشق، بكي فقال له صاحبه أبو غانم: ما يبكيك ، قال: قد كانوا مسلمين، شرار أهل الأرض شرار، خير قتلى من قتلهم أو قتلوه، كلاب أهل النار، وقال: إنما أبكي رحمة».

انظر هؤلاء الذين خالفوا كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ لما كان هذا هو اعتقادهم

كانت السلوكيات تبعًا لذلك، وكانت عداوة موجودة، فما بالك بعداوة اليهود؟!، ما بالك بعداوة هؤلاء الذين وصفهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟، ألا ينبغي على كل عاقل أن يأخذ حذره من هؤلاء، كيف يتخذهم أصدقاء وإخوانًا وأحبابًا؟! .

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (١) ، هؤلاء اليهود وهم أعداء لهذه الأمة وعداوتهم قديمة ، لا ، ليست مجرد عداوة جيل، أو حقبة مثلاً أو مرحلة كما يحلو لبعض المدلسين أن يزوروا وأن يزيفوا، لا، هي عداوة تاريخ، عداوة أجيال، عداوة عقيدة، حرب عقائدية بين هذه الأمة وبين هؤلاء اليهود، هذه الحرب ليست وليدة هذه الساعات.

بعدما تولى رئيس الوزراء اليهودي هذا؛ علمنا عداوة اليهود مثلاً؛ هذه غيبوبة، هذا انحراف في الفكر، هذا تباعد عن كتاب الله وعن سُنَّة رسول الله ﷺ، وإلاَّ فعداوة اليهود قديمة ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (٢)، وقد سمعتم بعض آيات الله ـ تبارك وتعالى ـ التي تعلقت بطبيعة هؤلاء اليهود، وأنت إن أردت أن تتعرف على هذا الأمر الذي يدينون به، وتبعًا له تكون سلوكياتهم، لابد من معرفة التوراة التي يدينون بها وقد غيّروها وحرفوها وبدّلوها، واستبدلوا التلمود بهذه التوراة المنزّلة على نبيّ الله موسى عليه السلام، لابد من معرفة بروتوكولات حكماء صهيون والبروتوكول الأول منها كتبوا فيه الحق، يكمن في القوة.

وبالتالي عندما يلوّح هذا المسئول أو غيره بمعاني القوّة، وبامتلاك سلاح نوويّ، وسياسة الردع، وسياسة الذراع الطويلة إلى غير ذلك من التعبيرات، ونقد السلام المتوهم والمزعوم الذي أبرم معهم إلى غير ذلك من التعبيرات، هذا كله لا يستغرب وإلاَّ

(١) آل عمران (١١٨) .
(٢) فاطر (١٤) .

فالبروتوكول الأول كتبوا فيه الحق يكمن في القوة، وعلى الكنيست الإسرائيلي صوروا هذه الخريطة من النيل إلى الفرات، فلابد من معرفة هذه الدوافع التي على أساسها تكون السلوكيات تكون الأقوال وتكون الأفعال.

قراءة أيضًا في مذكرات هرتزل إلى غير ذلك من المعاني التي يراجعون إليها، ويعتمدونها، وكل يهودي أو اليهودي، ليس كل يهودي إسرائيلي يهودي، وإسرائيل هو نبيّ الله يعقوب ﷺ، ودولة إسرائيل التي صارت معترفًا بها من قبل جميع جيرانها، هذه الدولة دولة عقائدية، الاسم في حد ذاته يرمز لعقيدة، فإسرائيل هو نبيّ الله يعقوب - صلوات الله وسلامه عليه -، وكنيته إسرائيل، والنجمة السداسية هذه أيضًا هي نجمة داود، والأرض التي يقولون عنها هي أرض الميعاد أنها أرض الآباء والأجداد.

لابد من التعرف على هذه المبادئ التي تكون على أساسها السلوكيات التي ينبعث بها رئيس الوزراء هذا وغيره، عندما يتكلمون ويقولون: القدس هي العاصمة، عاصمة الدولة الإسرائيلية المؤبدة، ولا تقبل التقسيم أبدًا، كما سمعتم مؤخرًا في هذا الاجتماع الخير، وصفق الكونجرس الأمريكي تصفيقًا حارًا متواصلاً لرئيس الوزراء اليهودي عندما صرح بذلك.

إخاء موجود بين هؤلاء وبين اليهود، بين اليهود وبين غيرهم من النصارى، هذا معلوم ومعروف، ولذلك عندما استصدروا هذه الوثيقة من الفاتيكان ببراءتهم من دم عيسى - صلوات الله وسلامه عليه -، وصرح بابا الفاتيكان بأنّ المجد لهم، وبأنه لابد من إخاء وتعاون وثيق بين اليهود وبين النصارى في شتّى بقاع العالم، هذا لا يستغرب، الحلف موجود بين اليهود وبين الأمريكان، هو حلف وإن صوره البعض علي أنه حلف مصلحي، إلاّ أنه في المقام الأول حلف يصدر عن عقيدة، يصدر عن دين، وإلاّ فعقد الإخاء وثيق بين ملل الكفر ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [١] ، ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [٢] .

---

(١) البقرة (١٢٠) .
(٢) القلم (٩) .

فهم على شاكلة واحدة، ولذلك لما قرأنا هذا الكتيب الذي صدر مؤخراً وطرحه بعض الأمريكان، البعض كان يتصور أنّ النظام العالمي الجديد هذا ما هو إلاّ مجرد نظام سعت إليه أمريكا، ونحو ذلك بلا عقيدة أبداً، الأمريكان يذكرون السرّ في إقامة هذا النظام العالمي، وأنّ أمريكا هي أحق الدول بهذا النظام، ويسندون كلامهم هذا بنصوص من التوراة.

ما من أمة ، ما من شعب إلاّ ويصدر عن عقيدة، هذا هو شأن الدنيا من حولنا، حتّى وإن غيبنا عقيدتنا، حتّى وإن غيبنا الواقع أيضًا من حولنا، وإلاّ؛ فهؤلاء كما ذكرنا يصدرون عن عقيدة، ويعملون بمقتضاها، ولسنا في مقام التحليل الآن، وهل عقيدتهم حقة، أم باطلة؟ هم يعملون بعقيدتهم، هذا هو الذي يدينون به، الصهيونية التي يتكلمون عنها، العنصرية هذه ما هي إلاّ اليهودية، أو اليهود الملتزمين بالتوراة، هذه هى الصهيونية، هذه هي التي كتبها «عذرا» في منفاه هو ورفاقه، لما كانوا ببابل، ويعمل بها اليهود حتّى يومنا هذا.

فليس كل يهودي إسرائيلي، وليس كل إسرائيلي يهودي، وإلاّ؛ فاليهود مأخوذة من هاد ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [(١)]، هؤلاء الذين عبدوا العجل، ثم تابوا ورجعوا إلى ربهم - تبارك وتعالى - ، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ .

ولو نظرنا في الدنيا من حولنا سنجد أكثر من تسعين بالمئة من يهود العالم ليسوا ساميين، وليسوا أيضاً من جملة الإسرائيليين، أكثر من تسعين بالمئة من يهود العالم ، وهذا هو شأنه أن يرد على هذا الحق المزعوم، وإلاّ فهم يعتبرون هذه الأرض هي أرض الآباء والأجداد، وأنت لو رجعت ستجد أنّ معظم الشعب اليهودي آري ليس ساميًا، وليس إسرائيليًا، هذه هي طبيعته.

أربعة آلاف سنة سكن فلسطين الكنعانيون، لم يسكنها العبرانيون، الألفي سنة الأوائل والأواخر، من الذى كان يسكن فلسطين؟ كان يسكنها الكنعانيون، ثم لو

(١) الأعراف (١٥٦) .

تركنا هذا وذاك، نقول كل أرض علاها حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ لابد من العمل لاستردادها واسترجاعها إلى حوذة الإسلام والمسلمين، مرة ثانية بدت البغضاء من أفواه هؤلاء، ولما كانت العداوة تعتمل في نفوسهم كما بيّن رب العزة ـ جلّ وعلا ـ، كان السعي من أجل الكيد لهذه الأمة، من أجل إبادتها، وهذا هو شأن اليهود، هذا هو إعلاء قيمة الجنس اليهودي، ومحاولة إبادة كل ما هو غير يهودي، وخصوصًا إن انتسب لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، هذا هو حرصهم قديمًا وحديثًا.

أنت عندما تنظر ستجد أن من أعظم أسلحتهم سلاح العلمانية، هذا إن كان البعض يصور الصراع على أنه صراع على الأمتار والأشبار، وصراع على التراب الغالي، هذا أيضًا نوع من التدليس، نوع من التزييف، وإلاّ؛ فالصراع صراع عقائدي، وساستهم في كل عصر ووقت، لابد وأن يستمسكوا بهذه العقيدة لما تنظر في هذا المصروع المقتول «رابين» هو الآخر كان يُصرح دومًا بأن القدس عاصمة أبدية موحّدة لدولة إسرائيل، وأتى من بعده هذا البيريز، وأعلن نفس الإعلان، ثم هذا الأخير يُصرح أيضًا بنفس التصريح.

لابد وأن يقف بجوار حائط المبكى، لابد وأن يتكلم بلغة التوراة، لابد، لا أقول أن يهادن الأحزاب الدينية عنده، لا ، هو لا يهادنهم، هو أصلاً متديّن مُلتزم بالتوراة المحرفة والمغيّرة هذه، وبالتالي عندما يتكلم بلغة الدين هذا لا يستغرب، هذا شأن كل الساسة، كل زعماء اليهود، ومن أظهر منهم علمانية لابد من إقالته، كحالة وزيرة الثقافة هذه، التي أقالوها لما طالبت بفصل الدين عن الدولة، كان جزاؤها هو الإقالة، وإلاّ فالكل لا يتكلم إلاّ بلغة الدين.

انظروا في حرب (٦٧) هذه؛ وقف وزير الدفاع اليهودي يقول في الكنيست: «يومٌ بيوم خيبر، يومٌ بيوم خيبر»، إنْ كنت أنت قد نسيت ما الذي حدث في يوم خيبر، فاليهود لم يتناسوا هذا التاريخ.

عندما تركوا غزّة وأريحا هذه، واعترض البعض، وذهب بعض الصحفيين إلى وزير الخارجية اليهودي يعربون ويعلنون استياءهم، فأخرج لهم التوراة من درج مكتبه، وتلا عليهم آيات من التوراة «فقد بِكرًا، وملعون من أقام فيها» .

ثم غزّة هذه لم يستطيعوا الإقامة فيها؛ فهم لا يتكلمون إلاّ بلغة الدين، هذه هي أرض الميعاد، هذه هي أورشليم القدس، لا يفصلون أبدًا بين السياسة والدين، لا ، أنت قد تفصل بين السياسة والدين، ويصير متهمًا من يتكلم في معانٍ، وإن كانت غير مفصولة عن دين الله، إن كان هذا قد يصلح مع اليهود أو غير اليهود، فدين الله لا فصل فيه بين سياسة واقتصاد واجتماع وأخلاق ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) .

فلا فصل أبدًا بين الدين والسياسة، بل هذا أقصر طريق إلى الكفر كما قرر العلماء، هل هم يفصلون بين الدين والسياسة؟، أبدًا أبدًا ، الحاخامات يتكلمون في أدق الأمور السياسية، والسياسيون لا ينفكون أبدًا عن المعاني الدينية، لا يمكن أن يظهروا مخالفة لمعاني التوراة التي يدينون بها، هذا هو شأنهم، بل الهجرة والاستعلاء على الوطنية والقومية وغير ذلك، هذه هي طبيعة اليهود عندما يأتون من روسيا وغير روسيا إلى فلسطين، هم يصنعون ذلك تاركين الوطنية وراء ظهورهم، وغير ذلك من النحل، لا يلتفتون، لا ، أنت قد تلتفت لوطنية ولقومية ولاشتراكية ولغير ذلك تترك دينك ظهريًا ، لا تكاد تحسّ من النعم إلاّ لقمة الخبز التي تأكلها، تُقبّل يدك وجهًا لظهر ونحو ذلك، هذه هي النعمة عندك، وإلاّ فنعمة الإسلام أجلّ نعم الله ـ تبارك وتعالى ـ علينا.

اليهود كما ذكرنا أعداء لهذه الأمة لا يصدرون إلاّ عن عقيدة، والشعب قد يتحلل، أما الساسة والزعماء، لابد وأن يكونوا متشددين قد تصفهم أنت بأنهم متطرفين، البعض يحلو له أن يصفهم بأنهم صقور، والفريق الآخر وكأنه حمائم، ونحو ذلك، أبدًا هذا نوع من التزييف، هذا نوع من التدليس، وإلاّ فكلهم متشدد،

(١) المائدة (٣) .

واصطلاح العصر الدارج تقول كلهم متطرف وكلهم إرهابي؛ ولذلك الذي يحدث الآن ديني له دلالاته الكثيرة، وفوائده - أيضًا - العميمة.

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - وهو العليم بخلقه - سبحانه -، وقال: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ** ﴾ (١)، فهم أشد الخلق عداوة؛ ولذلك سعوا في إيجاد هذه الدولة وسط هذه الأمة؛ لتكون شوكة في حلقها، تكون شوكة في ظهرها، أقامها الأعداء.

ومن صور التدليس - وما أكثر التدليس وقت غربة لا تجد فيه إلا التدليس، وتزييف البعض - قال هؤلاء: اليهود ما وجدوا إلا بوعد بلفور، وهذا نوع من التدليس أيضًا، وإلا فالعوامل التي ساعدت على إيجاد هذه الدولة عوامل كثيرة، وعوامل عديدة، من أعظمها نسيانِ هذه الأمة لدينها ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً** ﴾ (٢)، نسياننا لديننا الذي مكّن الأعداء من رقابنا، وإلا فهذه الأمة عبر عصورها المتطاولة عندما تستمسك بحبل الله المتين، وبذكره الحكيم؛ ينصرها ربنا - تبارك وتعالى - نصرًا عزيزًا مؤزرًا، ولكن لما نسينا دين الله - تبارك وتعالى - تمكّن اليهود من رقابنا، وتلاعب الأعداء بنا، وأصبح شأننا كيتيم على موائد اللئام.

والنبيّ ﷺ أخبر أُمّته فيما روىَ عنه قال: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**» قالوا: أو من قلّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بلى أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**» (٣).

---

(١) المائدة (٨٢).
(٢) الأنعام (٤٤).
(٣) صحيح، رواه أبو داود والبيهقي في شُعب الإيمان، وصححه الألباني في المشكاة رقم (٥٣٦٩)، والسلسلة (٦٤٧/٢).

هذه الدولة ثمرة أمور عديدة، ثمرة الأمم المتحدة المتواطئة المتآمرة، هذه صنعة يهودية، هذه الدولة هي ثمرة التآمر الصهيوني الماسوني الذي خلع السلطان عبد الحميد وولّى مكانه مصطفى كمال أتاتورك، هذا العميل اليهودي الخائن ربيبة يهود الدونما، هذه الدولة اليهودية أيضاً ثمرة خيانة الحكام العرب يقولون أسلحة فاسدة، التي عُمل بها.

أيضًا هذه الدولة هي نتيجة جهد دائم متواصل، ولا يصح لنا أن ننكر ذلك، وإلاَّ فهذا المؤتمر الأول الذى عقد ببازل بسويسرا سنة ألف وثمان مئة وسبع وتسعين، فيه اجتمع اليهود على إقامة الدولة، وحدّدوا لها تاريخًا بعد خمسين سنة تُقام الدولة اليهودية، والدولة العالمية بعد مئة سنة، تحديدات وإن كانوا لا يعلمون الغيب، ولكنها تحديدات عمل بها اليهود، وكان هذا المؤتمر بزعامة هرتزل، وكان السعي تبعًا له؛ سعي دؤوب من أجل إقامة هذه الدولة.

أناس يعملون بعقيدتهم، هل تُنكر عليهم أنت ذلك، أنت تنكر على نفسك، وإلاَّ فكل واحد صاحب عقيدة يعمل بعقيدته؛ الشيوعي وغير الشيوعي ، الشيوعي عندما ربّى أطفال المسلمين الأفغان على عقيدته كان يرسلهم إلى هناك، نفس الأمر عمل مع أبناء المسلمين في البوسنة والهرسك، كانوا يرسلونهم إلى الكنائس، وكل ذلك معلوم غير مجهول، بل حتّى العلوم التى يُطلق عليها البعض اسم علوم عالمية، كان الشيوعيون لا يوافقون عليها لا يرتضونها، يقولون: هذه علوم ليبرالية لابد من صياغتها صياغة مركزية؛ حتّى تتربّى عليها الأجيال الشيوعية.

هذا شأن كل أمة لها عقيدة تعمل بعقيدتها، اجتمع اليهود، وكان الجهد الدؤوب المتواصل لإقامة هذه الدولة، وتمكنوا من إقامة هذه الدولة في فلسطين سنة ثمانية وأربعين، وكان وعد بلفور هذا وعد من لا يملك لمن لا يستحق، وعد أُعطيَ على هذا النحو، واليهود الآن عندما يسعون لإقامة الدولة العالمية، وقد حددوا سنة سبعة وتسعين، هل بمقدورهم أن يُقيموا هذه الدولة العالمية عاصمتها القدس؟!.

أنت لا تُنكر أبدًا أنهم يسعون جاهدين من أجل هذا الغرض، ولكن هل هم بمقدورهم ذلك؟، علم ذلك عند الله - تبارك وتعالى - وإلاَّ فلا داعي للتهويل، ولا داعي أيضًا للتهوين، عندما يصورون أنفسهم على أنهم الجيش الذي لا يُقهر، علم الله أنهم كاذبون، وعلم المؤمنون - أيضًا - أنَّ اليهود أجبن خلق الله، فلا داعي أبدًا للتهويل، ولا داعي - أيضًا - للتهوين، وإلاَّ فهو عدو يجمع لنا، ويأتون باليهود من شتَّى بقاع العالم، يعقدون التحالفات ونحو ذلك مع من كان على شاكلتهم، ومع المغرورين أيضًا من هذه الأمة، مع الأذناب والأتباع الذين صاروا حربًا على دينهم، صاروا حربًا على أبناء ملتهم، فهذا هو حرص اليهود، حرصٌ على إبادة هذه الأمة، وعلى إماتتها وعلى إقامة الدولة العالمية وكما ذكرنا الأمر كله بيد الله - تبارك وتعالى - له الحكم كله، وإليه يرجع الأمر كله، وما علينا إلاَّ أن نستقيم على أمر الله - تبارك وتعالى - في شأن اليهود وغيرهم، سنستمطر الرحمة ونستدفع النقمة بإذن الله تعالى.

رب العزة - جلَّ وعلا - وضَّح لنا عداوة هؤلاء وقال: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ (١) ، عداوتهم هذه هي للذين آمنوا، انظر للتعبير القرآني لا يمكن أن تحذف لفظًا وتأتي بلفظ آخر، لا، لا يسعك، ولا يسع غيرك، يتبدل المعنى ويتغير، فهذه العداوة إنما هي للذين آمنوا، انظروهم مع حرصهم على إبعاد هذه الأمة عن دينها، أنت قد تقول هل نحن ما زلنا مستمسكين بكتاب الله وبسنَّة رسول الله ﷺ حتَّى يكنُّوا لنا كل هذه العداوة، طالما أنك حتَّى تنتسب لدين الله تبارك وتعالى بمجرد الاسم ستجد حظًا من هذه العداوة عداوة ظاهرة واضحة، وعداوة أيضًا قد تكون كامنة في وقت من الأوقات، بل قد يكون أيضًا من صورها الخطيرة، هؤلاء الأذناب الذين ينفذون ما يطلبه منهم اليهود وأشباه يهود، وإلاَّ فتخيل - مثلاً - عندما يصير الفلسطيني حربًا على أخيه المسلم، حربًا على أطفال الحجارة؛ بزعم أنهم إرهابيون متطرفون، اليهود لم يستطيعوا مواجهة أطفال لم يستطيعوا مواجهة من يخرج من المساجد.

---

(١) المائدة (٨٢) .

اليهود هذا هو شأنهم ضعفاء جبناء لا يمكن أبداً أن ينهضوا أمام عقيدة، ولذلك يسعون فى تخريب عقيدتك؛ حتّى تستبدلها بعلمانية لا دينية؛ ولذلك انظر للتحذيرات المتتالية، كهذا الشيوعي كان يُحذر السفير اليهودي عنده في بلاده، ويقول له: احذروا أن تتملك الحركات الفلسطينية نزعة دينية، وإلاّ فلن تقوم لكم قائمة. تخيّل!!؛ ولذلك عندما يفرغون هذه الحركات، وهذه المنظمات من محتواها، وتصير هى الأخرى علمانية، فهذه خطورة، وأي خطورة، ستصير حرباً حتّى وإن حررت فلسطين من اليهود، ما الذي يحكمها، علمانيون لا دينيون، مثلاً تكون قد انتقلت من خراب إلى خراب، ومن دمار إلى دمار .

هل هذا هو مفهوم التحرر عند المسلمين ؟!، لا والله الحرية لا تتم، ولا تكتمل إلاّ بإقامة شرع الله، إلاّ بالرجوع لكتاب الله ولسُنّة رسول الله، حينئذ تكون الحرية الحقّة، أما أن تستبدل يهودي بأشباه اليهود مثلاً تستبدله بعلماني يُقيم لك هذه النظم الخربة العفنة، أبعدما تكون عن دين الله سيصير حرباً ، لا، ربما كان اليهود يعملون بعدُ بحريات وديمقراطيات، ويتخوفون من أن تنخدش الصورة الديمقراطية، أمّا هؤلاء الذين انسلخوا عن دينهم قد لا يرقبهم كذلك فيك إلاّ ولا ذمّة، للأسف الشديد غابت المفاهيم عنّا.

هذه العداوة إنما هي عداوة للمؤمنين، وبالتالي لابد وأن نرجع لإيماننا، ولابد وأن نصطلح مع ربنا - تبارك وتعالى - نُطبق كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ، ربنا - جلّ وعلا - بيّن أنّ هذه العداوة إنّما هي للذين آمنوا، فطالما أنها عداوة للذين آمنوا؛ إذاً واجب علينا أن نعتصم بكتاب الله وبسُنّة رسول الله ﷺ، نرجع لشرع الله - تبارك وتعالى - ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم، من كان الله معه، فمن عليه، معه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (١)، وإلاّ فالبدائل لا يُمكن أن تُحقق

(١) النحل (١٢٨) .

نصراً ولا عزاً ولا تمكيناً، حتّى عندما يجتمع العرب مثلاً، و نجو ذلك تحت راية خلاف راية الإسلام ، لا يمكن أن تقوم لهم قائمة .

العرب بلا إسلام لا يساوون شيئًا، يزاولون جاهلية جهلاء، يعودون لمثل حالة الجاهلية الأولى أو أشد، سرعان ما يتفرقون لأوهى ولأضعف الأسباب، القومية العربية هذه ما وُلدَت إلاّ في دار المندوب السامي البريطاني، هي عملة زائفة، سيقولون بضاعتنا رُدت إلينا، القومية العربية والوطنية وغير ذلك من النّحل لا يمكن أن تُحقق خيراً، لا يمكن أن ترجع حقّاً مسلوباً.

لابد وأن نعتصم بكتاب الله وبسُنّة رسول الله، هذا هو الذي يُحقق لنا وحدتنا، وإلاّ فالعداوة إنّماهي عداوة للمؤمنين، عداوة لمن أسلم وجهه لله ـ تبارك وتعالى ـ.

لابد وأن نتعرف على حقيقة هذا الدين حتّى نعرف أعداءه، وحتّى نعرف من يكيدون بنا ويتربصون بنا الدوائر، حتّى نستبصر للواقع من حولنا، وإلاّ فتغييب الشرع، وتغييب الواقع آل بنا لشرٍ وفساد لا حدّ له، بل أنت عندما تسمع المطالبات الآن «الأرض في مقابل السلام» ويرد اليهودي ويقول: «بل سلام في مقابل السلام» ، وهذا والله تزييف لا حدّ له، وتدليس لا حدّ له.

هل قصر الحق على مجرد – مثلاً – جولان أو غير جولان في مقابل تحقيق السلام؟.

ما هو السلام الذي ننشده؟، ما هو السلام الذي تطلبه هذه الأمة؟ .

بمعنى أنهم يوجدون واقعًا سيئًا، ثم أنت وكأنك بعد ذلك تريد أن تخرج من هذا الواقع السّيّئ فيوجدون واقعًا أسوأ من هذا الواقع، وكأنك عندما تخرج من الواقع السّيّئ تكون قد حقّقت نصراً لا مثيل له، وإلاّ؛ فارجعوا بالذاكرة، نحن كثيراً ما ننسى ولكن ينسى الإنسان دينه وشرعه، أن ينسى حقوق هذه الأمة، إن كان الإنسان سيفرط فى حقه، لا يسعه أبداً أن يُفرط فى حقوق الآخرين، وإلاّ فأرض فلسطين هذه لا أقول

حتى هي ملك للفلسطينيين، لا، هذا تدليس، وما أكثر التدليسات، هذه الأرض هي ملك للمسلمين جميعًا، ولذلك السلطان عبد الحميد عندما ساومه هرتزل، وبعث له بخمسين مليون ذهبية، كان عنده عز إيماني على الرغم من الانحراف الذي نجم.

انظر الآن لمعاني التغيير، ومعاني التلبيس التي تحدث عندما يساوم البعض ويقول: «الأرض في مقابل السلام» ما هي هذه الأرض؟ هل سنعود مثلاً لهدنة ثمانية وأربعين؟ أبدًا، لو قلت ذلك لقالوا: مجنون، هل سنعود مثلاً لحدود سبعة وستين، أو ما تلى ذلك؟ أبدًا، صارت أرض فلسطين ملكًا لليهود، وتمَّ الاعتراف بالدولة الإسرائيلية والأرض التي قد تنشدها أنت في أحسن وأعظم أحوالك أن تنقسم القدس، هذه بين العرب وبين اليهود، هل هذا يحل في دين الله؟، هل هذا يجوز في شرع الله أن تترك أنت نصف القدس؟، هذا في أحسن أحوالك، و إلاَّ فهم يلوحون بأنهم لم يتركوا شيئًا من القدس، وأنَّ القدس عاصمة مؤبّدة لدولة إسرائيل، فهل يسعك أن تتنازل؟.

أنت تُعطي من لا يملك، من لا يستحق يُعطي من لا يملك، كأن يأتي إنسان الآن ـ مثلاً ـ ويُشير للمنزل الموجود أمامك، ويقول: هذا المنزل هو لك. هل أنت تملكه عندما أعطينه لهذا الآخر؟، وهل هذا الآخر بمقتضى الكلمة صار المنزل ملكًا لهذا، هذا هو الذي يحدث، ثم أنت أمام عدو مراوغ، يُجيد العمل لعقيدته، والعمل بدينه، هو يُجيد ذلك، ونظر إليك وجدك ضعيفًا لا حيلة لك، ماذا يسعه إلاَّ أن يأخذ الحظ الأكمل، والنصيب الأوْفر منك، ما الذي يسعه إلاَّ ذلك؟، وبالتالي أنت تساومه، وتقول: الأرض في مقابل السلام، والله حتّى لو أعطاك هذه الأرض هو لن يرجع لك أرض فلسطين.

والواجب شرعًا بالنسبة لكل أرض علاها حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ يومًا، واستحوذ عليها الكفار أن تعمل جاهدًا لاستعادتها لحوذة الإسلام والمسلمين مرة ثانية، يدخل في ذلك القدس وفلسطين بالكلية، يدخل في ذلك بلغاريا وتشيكوسلوفكيا إلى غير ذلك من الأراضي التي علاها حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ ثم هم لمّا آنسوا منك

ضعفًا قالوا سلام في مقابل السلام، والبعض منّا يلوّح ويقول: لا بديل عن السلام، هذه والله انهزامية مقيتة.

فالآن يلوحون بأنّ السلام في مقابل السلام، فبعد أن كنت تُنشد سلامًا فلا بأس هم سيعطونك سلام، لا تُطالب بأي شيء آخر !!!.

انظر لليهود، وانظر لحيل اليهود، وانظر لغدر اليهود، هم أبرموا عهوداً سرعان ما نقضوها، وهذا هو شأنهم، هل هذا الأمر بمستجد ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١)، هذا هو شأنهم إن كان العهد مع هذه الأمة، فلا وفاء به، هم يتعبّدون.

لابد وأن نقرأ الأمور قراءة واعية، هم يتعبدون بذلك، بنقض العهود والمواثيق مع المسلمين، متّى يتمونها؟ متى يحترمونها؟ إن كانت هذه العهود مع اليهود، حينئذ يحترمونها، وحينئذ يقرونها وينفذونها، أما أن يكون عهد أو وعد مع المسلمين فلابد من نقضه؛ ولذلك انظر للواقع السيّئ الذي يوجدونه، و أنت تريد ـ وكأن هذه هو نهاية المنى، كما يقولون، هذا هو أكثر وأعظم ما تتمناه ـ أن ترجعهم لاتفاقية مدريد أو لغيرها من الاتفاقيات!!.

هذا هو الذي تنشده أنت كما ذكرنا هم يُلوّحون بأنّ السلام في مقابل السلام، بمعنى: دخل سارق منزلك واحتله، وبعدما كان يساومك في البداية، ويقول: لك أنا سأعطيك ـ مثلاً ـ نصفه، وجد منك خنوعًا ومذلّة وضعفًا، عاد وقال: سأعطيك ربعه، بعد ذلك عاد وقال لك إن كنت تُنشد أن تعيش في سلام على الرصيف ـ مثلاً ـ أو في الشارع فأنا أعطيك سلامًا في مقابل السلام، تتركني وشأني، وأنا أتركك وشأنك.

انظر لليهود هذا هو شأنهم، ولذلك أنت عندما تقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ (٢)، هم أشد الخلق عداوة لهذه الأمة، إذا كانوا يعتصمون بعقيدة ويرجعون إليها في أقوالهم وأفعالهم، فما الواجب علينا؟ ما الواجب علينا إلاّ أن نرجع لكتاب الله ولسنّة رسول الله ﷺ.

(١) آل عمران (٧٥).
(٢) المائدة (٨٢).

والله هذا الذي يحدث فيه خير كثير، رُبَّ ضارة نافعة، هذا من عجائب التدبير، والله أن تحدث هذه الانتكاسة، أن تحدث هذه الوقفة، أن تعاود الأمة الرجوع للوعي مرة ثانية، حتّى يجتمع بعض القادة ونحو ذلك فيه قدر من الخير، أن نتكلم عن عقيدة يهود، والبعض منّا قد يقول: التّشخيص علِمْناه، الواقع فهمناه، فما هو المطلوب منّا بعد ذلك؟ ما هو العمل الذي سنؤديه؟ والإجابة على ذلك أنَّ السلوك مرآة الفكر، وإلاَّ فنحن عندما نتكلم، عندما نستبصر بشرع الله وبالواقع من حولنا، هذا نوع من العمل، هذا نوع من الإدراك ، وإلاَّ فأن تتعرف على علّتك.

البعض منّا واهم، ينظر أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، ينظر للسلام على أنه الحلم المنشود ـ مثلاً ـ الذي يتمناه، وأنه عندما يحدث ويتم سيعيش جنّة على ظهر الأرض، أي جنّة هذه التي تحدث إلى مسار التطبيع مع اليهود، سيتغير مفهوم الولاء والبراء؟! هل رضيت بأن تملأ بطنك على حساب دينك؟.

مشكلة والله ، مصيبة وأي مصيبة عندما يصير ديننا وراءنا ظهريا بتطبيع علاقات، ويُصبح اليهود وأشباه اليهود إخوان لنا وأصدقاء وأحباب لنا، هم يزرعون كل شر وفساد، و تعلمون إجادتهم لاستخدام سلاح المال ولاستخدام سلاح النساء، هم تملكوا الكثير من وسائل الإعلام، بيوت الأزياء، الموضات، وغير الموضات، الأفكار السامة الهدّامة المُخربة، تقول وجودية، وغير وجودية إلى غير ذلك من المعاني، كل ذلك تفنن فيه اليهود.

اليهود عندما مزّقوا هذه الأمة، أو الأعداء عندما قسّموا المسلمين على مثل هذا النحو، أنت ستنظر من حولك تجد الأمم ـ مثلاً ـ القومية التركية ، قومية فارسية، قومية كذا، قومية كذا، أما بالنسبة للعرب ستجدهم شرازم .

تستطيع الحركة بدول أوروبا بسهولة ويسر، ومن الصعب العسير أن تنتقل بين دولة عربية وأخرى كل ذلك حدث، متى حدث؟ لما تمَّ هذا التقسيم.

العداوة التي نشأت، البدع التي ظهرت، تقول بهائية وقديانية، وغير ذلك من البدع كلها موجودة، إماتة روح الجهاد في نفوس هذه الأمة، هذا تخريب يهودي، أماتوا روح الجهاد، والنبيُّ ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع، واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد؛ سلَّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه عنكم حتَّى تراجعوا دينكم**» (١).

الحركات الجهادية التي تريد أن تستأصل شأفة اليهود، من الذي يتصدى لها الآن؟! من الذي يتصدي لها؟ ستجد أشباه المسلمين، هم فلسطينيون وغير فلسطينيين، هم الذين يتصدون لكل مسلم أظهر إسلامًا، أظهر شعيرة من شعائر الإسلام، لحية أو ما شابه ذلك، صار إرهابي، صار متطرفًا، كل ذلك يخدم من إلاَّ اليهود، إلاَّ صنائع يهودية كثيرة ؟ .

وبالتالي عندما نتعرف على أعدائنا، عندما نتعرف على الواقع من حولنا، هذا خير كثير إن كانت مناسبته هذه المستجدات، وهذه الحوادث التي طرأت على الساحة، فهذا والله فيه خير كثير «**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم**» (٢).

فهذا من عجائب التدبير، نسأل الله ـ جلَّ في علاه ـ أن يجعل تدبيرهم تدميرهم، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، إنه سبحانه وليُّ ذلك والقادر عليه.

فهذه فائدة كبيرة، عودة الوعي أن نعود لديننا مرة ثانية، أن نستبصر بالواقع من حولنا، حنين يدفعه إلى بيت المقدس، أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، غيرة تنتابك عندما تجد رئيس الوزراء هذا يعمل بعقيدة، وأنت خالٍ من العقيدة، كل همتك في أن تملأ بطنك بأكلة طيبة، وبمشرب هنيئ وعمل ومسكن ونحو ذلك، هذه هي طموحاتك في الحياة، فعندما تجاهد أعداء الإسلام والمسلمين، كل واحد يحمل روحه على كفه على مثل هذا النحو، يرتحل بعقيدته، ومعها يتكلم بعقيدة محرفة مغيّرة مبدّلة، يعيش حياته من أجلها، لابد وأن تغار والله.

(١) **صحيح** ، رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٣) .
(٢) **صحيح** ، رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (١٨١٣).

فأين شكر النعمة؟ أين العمل بالإسلام وللإسلام؟، وبالتالي هذا الذي يحدث كما ذكرنا لا يخلو من فوائد كثيرة وعظيمة، حتَّى تعديل المفاهيم، وإلاَّ، فالبعض أطلق على كل من التزم بشعيرة إسلامية وصف الإرهابي المتطرف، ما الذي سيقول على هؤلاء اليهود؟ هل سيزحف هذا الوصف على المسلمين فحسب، أما اليهود يصيرون حمائم سلام ـ مثلاً ـ حمائم وادعة، أصحاب حق وفضيلة، وكل من سجد لله وعمَّر بيوت الله يصير إرهابياً متطرفاً!!!!.

الحاصل فوائد كثيرة وعظيمة حدثت من وراء هذه المستجدات، وكما ذكرنا هذا من عجائب التدبير، ورُبَّ ضارة نافعة .

الواجب علينا أن نعود لديننا، والقتال قادم حتمًا لا محالة مع اليهود ، السلام هذا، والآيات التي تحدثت عن السلام هي معانٍ تتحقق إذا ما حققت مصالح الإسلام والمسلمين نتمها مقبولة ومشروعة، والعلماء تكلموا هل من الممكن أن نُبرم سلامًا مؤبدًا مع الكفرة؟، جمهور العلماء بأنه لابد وأن يكون مؤقتًا، ومن قال لا بأس من هدنة أو معاهدة مؤبدة، قال: هذه المعاهدة لا تُلزم المسلمين، بمعنى أنها متى تصادمت مع مصلحتهم فلا حرج أبدًا في تقييتها.

ثم نحن حتَّى وإن قالوا لنا: سلام في مواجهة السلام، قد تقول في وضع من الأوضاع مستضعفين، وبالتالي إن لم يكن سلام في مقابل السلام سيفتكون بنا، سيستولون على النساء والذرية، والأمة ضائعة مهلهلة على مثل هذا النحو، وتقول: استضعاف!!، كما تعطي حتَّى فداء الأسير، تقول لا بأس نقبل السلام في مقابل السلام، ولكن من غير المقبول في كل آن وحين أن نترك ديننا وراءنا ظهريًا، أن نترك عقيدتنا، أن نحارب بغير عقيدة، هذا غير مقبول أن يعمل عدوك بعقيدته وأنت تُفرغ معاني الإسلام من محتواها تسعى فى الصدّ عن سبيل الله، تنفر من طاعة الله، كيف تنتصر على يهود؟! لا يُمكن.

هي السنن، والسُّنن لا تعرف المحاباة ، ولا تعرف المجاملات، يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (١) ، انظر هذه هي أسباب الفشل، يوم أُحُد تحوّل النصر إلى هزيمة، كُسر هذا النصر، وقُتل سبعون من صحابة رسول الله، ومات حمزة ومصعب بن عُمير، وأغميَ على النَّبيِّ ﷺ، ووقع في حفرة إلى غير ذلك، كل ذلك بسبب ماذا؟! بسبب تخلف الرماة عن هدي رسول الله ﷺ، كيف لو صرنا حربًا على ديننا، هل ننتظر نصرًا؟!، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٢) . سيمتن عليك ربنا بنصره إنْ أردت الخيرات، كل الخيرات فما عليك إلاَّ بطاعة الله، ما عند الله من نصر وعز وتمكين وخير وسعادة لا تناله إلاَّ بطاعتك له، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ لسعد ابن وهيب خال النَّبيِّ وصاحبه ﷺ، قال له: يا سعد، ليس بينكم وبين الله نسب، أنتم عباده وهو ربكم تنالون ما عنده بطاعته.

فإن أردنا نصرًا فما علينا إلاَّ أن نعمل بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، نُرضي ربنا، سنستمطر الرحمة، ونستدفع النقمة، اجتماعنا يكون اجتماعًا مرحومًا، أما أن نجتمع اجتماع كهذا، هذا يتكلم من هنا، والثاني من هناك، ولا نذكر في اجتماعنا اسم الله فكيف يبارك في مثل هذا الاجتماع؟! كيف نستدفع به النقم؟! كيف نستجلب به الرحمة؟!.

كتب عمر بن الخطاب ﷺ لأبي عبيدة ﷺ يقول له: «إنَّا كنَّا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، فمهما نطلب العزة في غيره أذلَّنا الله» سُنن لا تعرف المحاباة، مهما نطلب العزة في غيره أذلَّنا الله، نطلب العزة من الأمم المتحدة، تطلبها من وطنية، من اشتراكية، من ديمقراطية، لابد وأن تذل حتمًا لا محالة ، هذه العزة لا تنالها إلاَّ بطاعتك لله، باستقامتك على أمر الله، إن اردت أن تكسر اليهود وغير يهود فما عليك إلاَّ بالعمل بشرع الله أن تطبق أمر الله ـ جلَّ وعلا ـ، هذا هو السبيل، هذا هو الطريق،

---
(١) آل عمران (١٥٢) .
(٢) آل عمران (١٢٦) .

والحرب قادمة حتماً لا محالة مع اليهود، والحجر والشجر سيستنطق، النّبيّ ﷺ يقول: «**والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتّى يُقاتل المسلمون اليهود، وحتّى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله، إلاّ الغرقد؛ فإنّه من شجر اليهود**» (١) .

هم الآن يزرعون الغرقد بكثافة وبغزارة شديدة؛ لأنه من شجرهم، وفلسطين بإذن الله ستكون مصرعهم ومهلكهم، يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** (١٠٤) ﴾ (٢) .

هم أتبـاع الدجال، سيقاتلهم المؤمنون من أتباع عيسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، والحرب ستدور بين المسلمين وبين اليهود، ويختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فينطق الحجر والشجر ويقول : يا مسلم. انظر كلمة لها معنى ، لها مضمون عندما ينطق بها الحجر والشجر، هذا لا تدليس فيه، يقول: يا عبد الله. هكذا هو عبد لله ـ تبارك وتعالى ـ، يُقيم واجب العبودية، إذا الإنسان استقام على أمر الله فلابد من العودة لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، المستقبل لشرع الله ـ جلّ وعلا ـ، المستقبل للإسلام بغلبته وبظهوره على الأديان كلها.

هذا هو الذي بشّر به الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** (٣) **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** (٤) ﴾ (٣) ، نحن نؤمن بوعد الله، حتّى وإن خالفه الواقع المحسوس المشاهد كما قال النّبيّ ﷺ للرجل الذي شرب العسل واستطلقت بطنه، قال: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**» (٤).

نحن نقوم نُسلم رقابنا وقلوبنا لله ـ تبارك وتعالى ـ، نُصدق بوعد الله، حتّى وإن خالفه الواقع المحسوس، رأينا الأمة ضعيفة، ورأينا اليهود يتمالئون مع الأمريكان ومع

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) الإسراء (١٠٤) .
(٣) النجم (٣، ٤) .
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٥٧١٦) ، ومسلم (٢٢١٧) .

الأمم المتحدة، وعندهم قوة، كل ذلك لا يُرهب هذه الأمة، كل ذلك لا يفتّ في عضدها، ولكن لابد من بداية سليمة وصحيحة، ومسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة، هذه البداية هي الاعتصام بحبل الله المتين وبذكره الحكيم.

هذه الأمة لا تنتصر بكثرة عدد ولا بكثرة عتاد عبر عصورها المتطاولة كما قال خالد بن الوليد رضي الله عنه لهذا الرجل الذي سمعه يقول: ما أكثر الروم، وأقل المسلمين. فقال: «بل ما أكثر المسلمين وأقل الروم».

انظروا لهذه المفاهيم الإيمانية، لما أراد البعض عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم مؤتة لاستشارته، وكان عدد الرومان يومئذ حوالي مئتي ألف، وكان المسلمون فى قرابة ثلاثة آلاف فقط، ثلاثة آلاف سيواجهون مئتي ألف، فأراد البعض أن يرجع لعمر رضي الله عنه لاستأذانه فقال لهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: «والله إنّ التي تفلون للتي خرجتم ترجون»، ثم بيّن لهم أنّ هذه الأمة ما انتصرت بكثرة عدد ولا عتاد، وإنما انتصرت بإيمان ويقين.

فهل آن لنا أن نُعاود إيماننا؟ أن نرجع لإسلامنا مرة ثانية؟ أن نحيا بالإسلام وللإسلام، أن نصدق مع الله ـ تبارك وتعالى ـ، إن تصدق الله يصدقك ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (١)، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ (٢)، ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ (٣)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)﴾ (٤)، وربنا لا يُصلح عمل المفسدين، والنصر عُقبى الصابرين.

فالواجب علينا أن نتحلى بشرع الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأن نحذر من شياطين الإنس والجن على أنفسنا، أن نحذر هذا العدو، الذي يجري منّا مجرى الدم من

(١) آل عمران (١٢٦).
(٢) المجادلة (٢١).
(٣) الحج (٤١).
(٤) الأعراف (١٢٨).

العروق، أوقع فينا التخزيل والإرجاف ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(١)، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾ (٢) .

فالواجب علينا أن نعمل بأمر الله، وأن نرجع لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، سنأكل من فوق رؤوسنا، ومن تحت أرجلنا، سيعود لنا عزّنا الغائب المفقود ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ (٣) .

ونسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يُمكّن لدينه في الأرض، وأن يفتح له قلوب الناس، إنه سبحانه وليّ ذلك والقادر عليه

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين

والحمد لله رب العالمين .

(١) آل عمران (١٢٠) .
(٢) آل عمران (١٨٦) .
(٣) الروم (٤، ٥) .

أين المفر

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ (٣) .

أما بعد :

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

عباد الله، أين المفر من الموت وسكرته، ومن القبر وضغطته، والصراط وحدَّته؟! .

أين المفر من ذنوب عملناها، وفرائض أضعناها، وحدود اجترحناها، ومظالم واقعناها؟.

أين المفر، أإلى وهاد ومهاد أو إلى جبال وقصور وقلاع؟ أنُعول على شباب قد مضى، أو على أعمال قد فنيت، أو على صحة قد ضاعت، فأين المفر؟ .

كيف بسبيل؟، وكيف تكون النجاة؟، وقد انتهت أعمار، وفنيت لحظات وساعات، وكل ذلك سنجده ماثلاً أمام أعيننا ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١) .

مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (١) ، فلابد وأن نجد هذه الأعمال، هذه الأقوال التى طرحناها وعملناها.

فأين المفر من ذلك كله ؟ هذه الأرض تشهد على أهلها، وتحكي بما فعله العباد على ظهرها من خير أو شر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ ﴾ (٢) .

ما السبيل وأين المفر؟ وقد شهدت عليك جوارحك ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، تشهد عليهم ألسنتهم وأبصارهم وجلودهم أيضًا بما كانوا يعملون ويكسبون، وكفى بالله شهيدًا، فأين المفر من هذه الأمور التي نسيناها؟ فما من لحظة إلاَّ وستعرض أمام أعيننا، حيث يقال لك عملت في لحظة كذا من ساعة كذا، يوم كذا، من شهر كذا، في سنة كذا عملت كذا وكذا، وكفى بالله حسيبًا ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٤) .

ربك – تبارك وتعالى – مُطلعٌ ورقيب، فأين المفر؟ أقسم سبحانه هذا القسم الذي يعلم أولو الأحلام والنهى مضمونه وقيمته ، فقال: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ④ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ⑤ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ⑥ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑩ كَلَّا لا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ ﴾ (٥) .

فأين المفر من هذا اليوم العظيم، وقد جُمع الأولون والآخرون، جمعهم ربنا – تبارك وتعالى – لميقات يوم معلوم، حذَّرهم وأنذرهم، وقال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ㉕ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ㉖ ﴾ (٦) .

(١) آل عمران (٣٠) .
(٢) الزلزلة (٤) .
(٣) النور (٢٤).
(٤) الأنبياء (٤٧) .
(٥) القيامة (١ – ١٣) .
(٦) الغاشية (٢٥ ، ٢٦)

حذّر سبحانه وأنذر وقال أين المفر، فهل اتّعظنا واعتبرنا؟ سؤال لابد من عرضه وطرحه على كل نفس، يطرحه أمثال أبي جهل على أنفسهم، كما يطرحه أيضًا المؤمنون والصالحون على أنفسهم، ففيه صلاحهم في العاجل والآجل ، قبل كل كلمة، قبل كل فعل ، بل حتّى مع الخواطر التي تموج بالنفوس.

سل نفسك، واطرح هذا السؤال، وقل أين المفر؟ هل هذه الكلمة، هل هذا الفعل، هل هذا الخاطر يُنجي من عذاب الله؟، هل يسوؤني إنْ رأيته غداً أم يسرني ذلك؟.

اعرض ذلك كله على نفسك، وإذا تكلمت، فاذكر سمع الله إليك، وإذا أمنت فانظر نظر الله إليك، وإذا سكتّ فاذكر علم الله فيك، مُطلع ورقيب هو ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)﴾ (١)، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)﴾ (٢)، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ (٣) ، ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ (٤) .

ربك ـ تبارك وتعالى ـ قدير عليم خبير، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، أحاط بكل شيء علمًا، ولا يعزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فأين المفر !.

سؤال طرحه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على خلقه وعلى عباده، علم قيمته أولو الأحلام والنهى، ولذلك كانت حركاتهم وسكناتهم، كانت أقوالهم وأفعالهم إجابة على هذا السؤال، سؤال من كلمتين، ولكن مضمونه إن استقمت عليه كان بسبيل نجاة كنت على سبيل نجاة، إن أنت أحسنت الإجابة على هذا السؤال، وآية واحدة من كتاب الله تكفيك، لو علمت أنك المخاطب بها قبل غيرك في خلوتك وفي جلوتك،

(١) الشعراء (٢١٨، ٢١٩).
(٢) العلق (١٤) .
(٣) المجادلة (٧) .
(٤) لقمان (١٦) .

في حزنك وفي سرورك، في منشطك ومكرهك، قلْ لنفسك أين المفر؟ لابد من ترداد لهذه الكلمات على القلوب قبل المسامع .

ربنا ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)، فالمرجع والمآب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ مالك الملك وخالق الخلق ـ سبحانه ـ لا تخفى عليه خافية، وتختم الآيات البيّنات من سورة القيامة بقوله ـ سبحانه ـ، وقد ابتدأ الآية بأسلوب زجر وردع يقول سبحانه: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) .

فالمرجع والمآب إلى الله، حقيقة لابد من تأييدها، ولا يصح أبداً نسيانها، بل على قدر النسيان الذى يعتمل مع هذه الآيات البيّنات، على قدر الانحراف في الأقوال والأفعال فما انحرف عبد يومًا إلاّ بسبب نسيانه لهذه الحقيقة، لم يسأل نفسه أين المفر؟ وإلاّ فلو طرحه على نفسه لما كان إلاّ الاستقامة، سيستقيم على أمر الله في أقواله وفي أفعاله، يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، أي وصلت الروح إلى الحلقوم، عاين الغرغرة، عاين الموت ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٣) ، ولو تضافرت قوى الأرض على إرجاع الروح مرة ثانية لما استطاعوا ذلك، مات المداوي والمداوَى، مات الطبيب والمريض، و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٤) .

خُوطب أفضل الخلق فقيل له : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥) ، وقيل:

---

(١) القيامة (١٢) .
(٢) القيامة (٢٦ – ٣٠) .
(٣) الواقعة (٨٣ – ٨٧) .
(٤) آل عمران (١٨٥) .
(٥) الزمر (٣٠) .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [(١)] ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [(٢)] ، فأين المفر؟!.

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ ، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، من الذي يصعد بروحه، هل كان صالحًا أم فاجرًا؟ هل كان مؤمنًا أم كافرًا ؟ وربك ـ تبارك وتعالى ـ عليم، ثم وكأن أهله يتنادون فيما بينهم هل من يرقيه في لحظاته هذه؟، هل من يسعفه؟ والغرغرة قد اعتملت فيه ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) ﴾ [(٣)] ، هل عاينتم وشاهدتم هذه الأحوال، كيف تلتف ساق بساق، لا تحتمله رجلاه أو توضع رجلاه هكذا في الكفن؟.

هذا الإنسان الذي كان يتباهى يومًا بقوة وبصحة، يملأ الأرض حركة وحيوية، سرعان ما يصير طريح الفراش، غريب وسط الأحياء، هذا هو شأنه لا يستطيع حراكًا، بأي شيء ينشغل، وهو في لحظاته هذه، وقد اجتمع أهله وأولاده، وكلهم يبكي، ولكن بكاء أشبه بالبكاء على النفس، قبل أن يكون بكاءً على الراحل كما قال يزيد الرقاشي بعدما أفاق من غيبوبته: «كلكم يبكيني لنفسه، فمن الذي يبكيني لنفسي؟ من الذي يبكيني لما أنا مُقبل عليه؟ لما أنا قادم عليه».

والإنسان يودّع دنياه على مثل هذا النحو ينتقل من شدة إلى شدة، من حياة إلى موت، من حياة لها أحكامها إلى موت له أحكامه، يودع الخلق على مثل هذا النحو، تُرى هل ينشغل في لحظاته هذه بأموال، بأولاد، بجاه، بسلطان، بقصور، بمنصب قد حَازه؟ كل هذا إن لم يكن في طاعة الله يكون وبالاً على صاحبه، يكون مبعث ندم وأذى، وحزن؛ لأنه عاين الأمور على حقيقتها، وأتته الملائكة لقبض روحه.

(١) الرحمن (٢٦، ٢٧) .
(٢) آل عمران (١٤٤) .
(٣) القيامة (٢٦ – ٢٧).

وحكى النبيّ ﷺ ما يكون من حال المؤمن والفاجر في هذه اللحظات، «**فإذا كان العبد مؤمناً أتته ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم شمس يجلسون منه مدّ البصر، ويجيء ملك الموت فيقول: يا أيتها الروح الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج روحه تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء، يأخذها ملك الموت، ولا تدعها الملائكة بيده طرفة عين، يضعونها في ذلك الكفن الذي هو من أكفان الجنّة، وفي ذلك الحنوط الذي هو من حنوطها، ويخرج منها ريح طيبة كأطيب ما وجد على ظهر الأرض، ويستفتحون له، ويصعدون بها في السماء الدنيا، حتّى يصعدون بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليّين، ثم أعيدوه إلى الأرض، فمنها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أخرى، فتعاد الروح إلى الجسد ويأتيه ملكان فيُجلسانه، ويسألانه من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟، فيقول: ربي هو الله، وديني الإسلام، والرجل الذي فيّ هو محمد ﷺ، آمنت به وصدقت.**

فيُنادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فافرشوا له من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، يأتيه من ريحها وطيبها، ويأتيه رجل طيب الوجه، طيب الريح، طيب الثياب، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير. فيقول له: أنا عملك الصالح، فيقول: ربي أقم الساعة، ربي أقم الساعة؛ حتّى أرجع إلى أهلي ومالي»[1]، والكافر والفاجر بضد ذلك .

انظر لنفسك، وانظر لانشغالك في هذه اللحظات العصيبة، بأي شيء ستنشغل، هل ستنشغل برياضة؟! هل ستنشغل بفرعونية وبابلية وآشورية؟! هل ستنشغل بديمقراطية واشتراكية في لحظاتك هذه؟! بأي شيء ستنشغل، هل ستنشغل بمال، بجاه ، بسلطان؟!، وأنت الذي سوّلت لك نفسك أنك من أصحاب القضايا المهمة، وما انشغلت إلاّ بلعبٍ ولهوٍ، انشغلت بضياع، انشغلت بما أنساك لقاء الله ـ تبارك

(١) **صحيح** ، رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي، عن البراء، صححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم (١٦٧٦) .

وتعالى ـ، وإلاَّ فأنت بحاجة أن تُجيب على هذه الأسئلة التي ستطرح عليك، أين المفر؟ حتَّى لو أكلتك السباع، حتَّى لو ذُرَّ رمادك في الهواء، حتَّى لو أُغرقت في البحر لابد وأن تحيا حياة برزخية، ولذلك قال سبحانه عن فرعون وآله: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [(١)] .

فأين المفر من هذا الحال؟ ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ ، أيقن الموت، وعلم أنه راحل إلى ربه تبارك وتعالى، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [(٢)] .

فأين المفر من هذه الحقائق التي تواجه كل مخلوق، وكتبها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على كل نفس؟، أين المفر من هذه الأهوال التي يعاينها البشر؟.

كان لابد من عرض وطرح لهذا السؤال في كل آن وحين، بالليل والنهار، أنت بحاجة لأن تطرحه على نفسك وإلاَّ فساحاتك أدبرت، والليالي والأيام قد اقضت، وبقى من عمرك اليسير، وأنت بين أجلين، بين أجل قد مضى لا تدري ما الله فاعل فيه، وبين أجل قد بقى لا تدري ما الله حاكم فيه، لا تدري، هذا غيب.

وكلنا سيواجه مصيره، حتمًا لا محالة، هذا يتناول كتابه بيمينه، وهذا يتناول كتابه بشماله، وصحائف تُعرض على البشر، كتاب ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [(٣)] ، كتاب كُتب فيه كل شيء ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [(٤)]، وكلنا لا يدري هل يتناول كتابه بيمينه أم بشماله، والحال عظيم الشأن لو تخيلته تأملته يقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي

---

(١) غافر (٤٦) .
(٢) الأنبياء (١٠٤) .
(٣) الكهف (٤٩) .
(٤) الأنبياء (٤٧)

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

ولا يستوي المؤمن والكافر، فأين المفر؟ حقائق، تخيل نفسك في هذا الامتحان العصيب في يوم عناه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)، يومٌ عناه سبحانه بقوله: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ (٣)، ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (٤)، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٥) .

وإن أردت ـ مثلاً ـ تقريب هذه الحقيقة، فخذ الواقع الذي يعيشه الطلاب هنا وهناك، امتحانات يعنونها، وليس الامتحان كالامتحان، وإلاَّ فلا سبيل للاستدراك، لا سبيل للإعادة، لا سبيل لتحسين المجموع، لا سبيل إلاَّ الزفرات والحسرات، انتهت الأيام بلذائذها، وبقيت التبعات، بقيت الحسرات، لا تجد إلاَّ من يقول: ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ (٦)، أو يقول يا ليتنا ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (٧)،

(١) الحاقة (١٩ ـ ٣٣) .
(٢) عبس (٣٤ ـ ٣٧).
(٣) الحج (٢) .
(٤) آل عمران (١٠٦) .
(٥) الفرقان (٢٧ ـ ٢٩) .
(٦) الزمر (٥٦) .
(٧) الأعراف (٥٣) .

يقول يا ويلتا، زفرات يُرسلها هؤلاء الذين فرطوا في طاعة الله.

فيا له من موقف عظيم، الكل يُعانيه، فأين المفر من هذه الحقائق؟ هل تخيلت نفسك وأنت مُقبل على الامتحان؟ كيف يرتجف قلبك كيف تصحو مبكراً، كيف تستيقظ وتنهض، الأب وكل من حولك لابد وأن يعايش الامتحان كما تُعايشه أنت، والكل على قدم وساق حتّى تنجح في هذا الامتحان، هل نظرت إلى حالك وشأنك وأنت تُعاين نتيجة هذه الامتحانات، أناجح أنت أم راسب؟ هل نظرت لنفسك ولقلبك، وأنت تُجيب على الأسئلة وتتخيل ما الذي يُمكن أن يأتي في ورقة الامتحان.

انظر هذه صورة تُقرب لك الواقع، وإن كان الواقع ليس كالواقع؛ فما أبعد الفارق بين يدي من لا تخفى عليه خافية، فريق في الجنة وفريق في السعير، تنخلع فيه قلوب العباد، ربك - تبارك وتعالى - لا تخفى عليه خافية ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١) .

أين المفر من هذه الحقائق؟، موت وقبور وآخرة، صراط وميزان، وغداً ينكشف الغطاء، ويتبين لمن كانت بضاعته النفاق أنّ ما حصله كان سراباً، ستمر على الصراط وهو دحض مذلة، أين المفر من ذلك، وكلّ على قدر عمله؟ فهل أحسنت المسير إلى الله؟ هل استقمت على واجب العبودية؟ هل علمت الغاية التي من أجلها خُلقت؟ هل طرحت هذا السؤال على نفسك أين المفر؟.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)، قدموا لأنفسكم عملاً صالحاً ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٣) .

اعملوا بطاعة الله على نور من الله ترجون ثواب الله عيشوا للآخرة، وإلاّ فالدنيا قد

---

(١) المجادلة (٦) .
(٢) القيامة (١٢ - ١٦) .
(٣) البقرة (١٩٧) .

ارتحلت مُدبرة والآخرة قد ارتحلت مُقبلة، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ولا تغرنكم الحياة الدنيا، ولايغرنكم بالله الغرور.

لا تنسوا دين ربكم؛ فتنسون بذلك أنفسكم، تنسون مصلحتها، تنسون الحياة الحقيقية بإعراضكم عن منهج الله، وإلاّ فلا جحر ستدخل فيه، لا جبل ستختفي وراءه، يُحشر الناس على أرض عفراء، كقرصة النقى لا معلم فيها لأحد، وأنت قبل ذلك وبعد ذلك ظاهرك، سرك وعلانيتك مكشوفة لله ـ جل وعلا ـ، عليم خبير، لا تخفى عليه خافية قال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [١] .

هو العليم، كان على أبي جهل أن يعلم هذه الحقيقة، وكذلك الأمر بالنسبة لكل من كان على شاكلته، بل يجب على كل مؤمن أن يطرح هذا السؤال على نفسه آناء النهار، وأطراف الليل، يقول لنفسه أين المفر؟ فلا مهرب ولا محيص إلاّ بالرجوع إلى الله، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُكثر من الدعاء: «**اللهم إنّا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» [٢] .

فلا ملجأ ولا منجى من الله إلاّ إليه؛ فأحسنوا المسير إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، واعلموا أنّكم غداً بين يدي الله موقوفون وعلى تفريطكم نادمون، وبأعمالكم مجزيون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .



(١) العلق (١٤) .
(٢) **صحيح**، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٤٣٠) .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاّ على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله .

أما بعد . . . . عباد الله :

إذا ما طرحنا هذا السؤال على أنفسنا - ولابد من ذلك - هذه آيات بيّنات تحيا بها القلوب والأرواح، يتدبر فيها، ويتعبد بها، وبمقتضاها لابد من تفقه في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، كل كلمة، كل آية بيّنة، لابد من عرض النفس عليها، عرض الأفراد والدول والجماعات، لابد وأن يعرض الحاكم والمحكوم نفسه على كتاب الله وعلى سنّة رسول الله ﷺ، سيعلم مكانه اليوم ومكانه عند الله غداً ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) ﴾ [1] .

إذا كان لابد من عرض لهذا السؤال على النفس أين المفر؟ فالإجابة عليه أن يكون فراراً إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾ [2]، فلابد من فرار إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، إذا كان البشر إذا ما خافوا شيئًا فروا منه، وأنت تفر من المجزوم فرارك من الأسد، فإذا ما خفت ربك ـ تبارك وتعالى ـ لابد وأن تفر إليه، تقول لنفسك أي أرض تُقلني وأي سماء تُظلني، هل ستخرج من سلطانه إلى سلطان غيره أو من ملكه إلى ملك غيره، له ملكوت السموات والأرض ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [3]، وقال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) ﴾ [4] .

---

(١) المطففين (٢٢ - ٢٥) .
(٢) الذاريات (٥٠) .
(٣) يس (٨٢) .
(٤) القمر (٥٠) .

قدير سبحانه، عليم حكيم خبير، له ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [١]، خلق الخلق وأحصاهم عدداً، سبحانه خلق الخلق، والكل راجع إليه مرة ثانية، قال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ [٢].

ستقف بين يدي الله، ليس بينك وبينه ترجمان، فأعد للسؤال جواباً، قل لنفسك أين المفر؟ وأجب على ذلك؛ لأنه لابد من فرار إلى الله فالمرجع والمآب إليه، هكذا فعل الصالحون من عباد الله، كانت الشدائد، وكانت الفتن والمحن، فعلموا أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلاَّ إليه، توكلوا على ربهم، وأحسنوا المسير إليه، وقالوا: نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، تابوا وأنابوا إلى ربهم، كان هذا هو شأن الصالحين من عباد الله، وقف القائد على شاطئ الأطلسي يقول لجنوده: «البحر أمامكم، والعدو وراءكم» فما كان منهم إلاَّ أن طلبوا إحدى الحسنيين، تعاملوا مع الله ـ تبارك وتعالى ـ، إمَّا النصر وإما الشهادة، وإلاَّ فلا ملجأ ولامنجى من الله إلاَّ إليه.

وأتبع فرعون وجنوده نبيَّ الله موسى عليه السلام ومن آمن معه بغياً وعدواً، فقالت بنو إسرائيل: إنَّا لمدركون، قال نبيُّ الله موسى عليه السلام: كلا إنَّ معي ربي سيهدين، كان قلبه معلقاً بالله ـ تبارك وتعالى ـ هذا هو شأنهم وقت الشدائد، لا يفرون إلى جوارح علموا ضعفها علموا عورتها ونقصها وفقرها؛ ولذلك كان توكلهم على الله ـ تبارك وتعالى ـ.

هـذا هـو شـأنك في وقت الشـدة ، وفي وقت الرخـاء ، كـذلك تُنيب إلى الله، تُحسن المسير إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ، يقول سبحانه: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾ [٣].

---

(١) الأعراف (١٨٠) .
(٢) مريم (٩٣ – ٩٥).
(٣) البلد (١١ – ١٦) .

هكذا تواجه الشدائد، هكذا تواجه أنت الصعاب، الصعاب التي ستواجهها حتمًا لا محالة، ستقول لنفسك معها، أين المفر؟ السبيل أن تفر إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه؛ ولذلك لما اعترض أبو عبيدة عمر ـ رضوان الله عليهما ـ وكان قد أراد أن يرجع بعد علمه أنّ الطاعون، قد نزل أرض الشام، قال: يا عمر، أفرار من قدر الله؟. قال نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله.

كانوا مؤمنين بالله وبقدره خيره وشره، حلوه ومره، كان هذا هو شأنهم في التعامل مع هذه الشدائد، فرارهم كان إلى الله تبارك وتعالى، إذا كان أرباب الدنيا إذا ما اعتورتهم الصعاب ركبوا البحر وهاجت الأمواج يُنيبون إلى الله، فكيف بشدائد أعظم وأكبر من ذلك بكثير، أعظم من ركوبك البحر الهائج، وإلاّ فحسبك أن تموت، وقد تنتقل إلى الله شهيدًا إلى الله غريقًا، وهذا من علامات حسن الخاتمة، يموت جسدك، وقلبك حيٌّ ينبض، ولكن ما الشأن والحال إذا ما مات القلب، إذا ما بَعُدَ عن الله، إذا ما كان الفرار لغير الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ إلى الدنيا وزينتها وزخرفها إلى أمور نعتبرها تقدمًا وتطورًا، نُنيب إلى أسلحة وغير أسلحة، نعتد بعدد وعتاد، وكل ذلك خائب خاسر، إذا ما أعرضنا به عن ذكر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ.

شأنك وأنت تُعاني هذه الشدائد في الدنيا، هذا أهون بكثير من الشدائد التي ستواجهها موت وقبور وآخرة، صراط وتطاير صحف، الأمر؛ إمّا جنّة وإمّا نار، فأعدوا للسؤال عدته، وأنيبوا إلى ربكم، ليكن فرارك من الله إليه، أن تعمل بطاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ، وتقول: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

هذه الحقائق أرّقت الصالحين من عباد الله؛ ولذلك استقاموا في أقوالهم وأفعالهم، هارون الرشيد – رحمة الله عليه – وهو يُعاني سكرات الموت أمر أن يأخذوه إلى القبر الذي أعدّ له، ثم ناجى وقال: «اللهم يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه».

ملك زائل، أنت ستقف بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ في يوم عظيم، يُقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [١]، إن غابت عنك الحقيقة في الدنيا، لن تغيب عنك في الآخرة، ستقف بين يدي الله لا تخفى عليه خافية، سواء كنت حاكمًا أو محكومًا، قُلْ أين المفر؟ .

فلابد من استقامة على أمر الله، وتحكيم لشرع الله، لابد من الانتهاء عن صور الصدّ عن سبيل الله، لابد من تطبيق لكتاب الله، ولسُنن رسول الله ﷺ في حياتنا الخاصة والعامة، شدّ للموت حيازيمك، واعلم أنّ الموت لابد أنه ملاقيك، ولا تفزع من الموت إنْ حلّ بواديك.

كان أبو هريرة ﷺ وهو يُعاني سكرات الموت يبكي ويقول ﷺ: «طول السفر، وبُعد المفازة، وقلّة الزاد، وعقبة كؤد، المهبط منها إلى الجنة أم إلى النار»، هل الإنسان في هذه اللحظات يُفكر في مال، في جاه، في سلطان ؟ يفكر حتّى في شدائد الدنيا، لا يفكر إلاّ فيما هو مُقبل عليه، والكل سيعود إلى ربه بعد فترة امتحانه، بعد فترة اختباره التي عاشها، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [٢] .

كان مروان بن عبد الملك – رحمه الله – يبكي ويقول: «ليتني كنت عبدًا لرجل من تهامة، أرعى له غنيمات في الجبال، ولم آل من هذا الأمر شيئًا».

كان تخوفهم على أنفسهم، علموا هذه الحقائق، وكأنهم طرحوا على أنفسهم هذا السؤال، فقالوا: أين المفر؟، فكانت الشفقة على النفس، بينما رأى البعض هذه الإمارة مغنمًا ورأوها هم مغرمًا؛ ولذلك فرّ عمر بن الخطاب ﷺ ورفض أن يلي ابنه عبد الله بن عمر هذا الأمر من بعده، ولو تولّى الخلافة من بعد أبيه، لكان لها خليقًا، ولكان جديرًا بها، ولكن عمر بن الخطاب ﷺ يرفض ذلك، يكفي آل الخطاب أن

---

(١) غافر (٥٠) .
(٢) الملك (١، ٢)

يمثل رجل منهم بين يدي الله ـ تعالى ـ في هذا الموقف العصيب، هكذا كان خوفهم من الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ففرارك لابد وأن يكون إلى الله، كان الصالحون يبكون في لحظة وفاتهم؛ لفوات يوم لم يصمه، وليلة لم يقمها، هذا الذي أرقهم أن يصوم الصائمون، وليس فيهم، ويقوم القائمون وليس فيهم، ويذكر الذاكرون وليس فيهم، وانظر وتدبّر حالك وشأنك وإلاّ فقد تغيّر الأمر وتحوّل، وصرنا نتنافس على حطام زائل، على عارية مستردة ومسترجعة، صرنا نتنافس على مناصب وجاه وسلطان، صار الكل وكأنه صاحب قضية، صاحب أمر يراه مهمًا ينشغل به آناء الليل وأطراف النهار، وما هو إلاّ اللعب، وما هو إلاّ الغيث.

غدًا تتكشف الحقائق، ارفع رأسًا من الآن، طالع آيات الله ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [١] ، في اليوم الذي نعلم فيه أننا المُخاطبون بهذه الآيات قبل غيرنا في الوقت الذي نمتثل فيه لآيات الله البيّنات،بنصلح حالنا وشأننا، يُغيّر الله بنا وجه الأرض ، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [٢] .

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين.



(١) محمد (٢٤) .
(٢) الرعد (١١) .

الرجولة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ (٣) .

أما بعد :

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله، الرجال هم الذين لا ينشغلون بسفاسف الأمور، ولا بدناياها، ولكن يرتفعون إلى أعالي الأمر، يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٤)، الرجال هم الذين يصدقون مع ربهم، ومع أنفسهم، ومع الخلق من حولهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١) .
(٤) النور(٣٧) .
(٥) الأحزاب (٢٣) .

هؤلاء الرجال يتطهرون من الأدناس ومن الأنجاس، سواء كانت حسيّة أو معنويّة، تعلقت بالظاهر أو بالباطن ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ (١) .

هؤلاء الرجال يحملون الرسالة، يُبلّغون أمر ربهم ـ تبارك وتعالى ـ، ويُؤدّون الأمانة على وجهها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

فأخص صفات الأنبياء الرجولة، والذكورة من أخص صفات الرجال، والرجولة بحق وبصدق أن يتصف المرء بما يتصف به الرجل، عادة أن ينصف ولا ينتصف، قبل أن يقول: حقي كذا، يقول: حقي لأخي ، قبل أن يقول: ظلمني، يقول: والله أنا كنت أظلم، قبل أن يقول: لي عليه كذا، يقول: عليَّ كذا، قبل أن يقول: حقي كذا، يقول: الواجب عليَّ كذا.

هذه هي الرجولة بحق، أن تنصف ولا تنتصف، أن تنتصف لربك ـ تبارك وتعالى ـ ، وتكون خصيمًا لربك على نفسك، تقول: سبحانك سبحانك ما أعظم شانك، ما عبدناك حق عبادتك، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لو يؤاخذني الله أنا وابن مريم بما جنت هاتان** – وأشار بسبابته والتي تليها – **لعذبنا**» (٣) ، أن تكون خصيمًا لربك على نفسك، رأى النَّبيُّ ﷺ جبريل ليلة أُسريَ به كالحلس البالي من خشية الله ـ تبارك وتعالى ـ، هو أحق أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، لن نُؤدِّي حق ربنا ـ تبارك وتعالى ـ علينا، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

هذا هو الشأن، هذا هو الحال، أن تكون خصيمًا لربك على نفسك، ليس لك أن تُقدم نفسك على الآخرين، ولا يظن ظان أنّ له فضل على غيره، هكذا كان شأن الرجال، وهذا هو شأن الصالحين، كان الواحد منهم يقول: إذا ذُكر الصالحون فأُفٍّ لي وتف، وإذا ما قيل ليخرج أسوأ من بالمسجد لبادرتكم بالخروج.

---

(١) التوبة (١٠٨).
(٢) النحل (٤٣) .
(٣) رواه ابن حبان وابن مردويه.

كـان النّبيّ ﷺ يجلس حيثـمـا ينتـهي به المجلس ـ صلوات الله وسلامـه عليـه ـ، يأكل أكلة العبد ويجلس جلسة العبد.

فالرجولة هل ترى لنفسك فضلاً على غيرك ؟، كان الأفاضل، وكان الرجال يقفون بعرفات، ويتخوفون من عدم نزول الرحمة لوجودهم مع هؤلاء الحجيج، هكذا كانت نظرتهم لنفوسهم، ساءت نظرتهم بنفوسهم – رحمة الله عليهم أجمعين – لم يروا لأنفسهم فضلاً على غيرهم، يمر أبو بكر وعمر بالعباس بن عبد المطلب ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، فينزلان من على الدابة، لم يُقدم واحد منهما نفسه على العباس بن عبد المطلب، لم ينظر لنفسه على أنه صاحب فضل على غيره.

والفضل كله بيد الله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (١)، ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (٢)، هكذا كانت نظراتهم.

والرجولة هي أن تستعمل مكارم الأخلاق مع الخلق، يسعك أن تتجمل، أن تتخلق بأخلاق الصالحين مع الخلق كافة، أن تكون مؤدبًا مع الكبير ومع الصغير، مع الرجل ومع المرأة، مع المسلم ومع الكافر، ولا سبيل لذلك إلاّ بالعمل بكتاب الله وبسنّة رسول الله ﷺ.

وأدب العلم أكثر من العلم، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «تأدبوا، ثم تعلموا» .

وقال ابن المبارك: «طلبت العلم، فأصبتُ شيئًا منه، وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا» .

نحتاج لرجولة حقة؛ حتّى نؤدي الحقوق لأصحابها، «وإنّ لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حق، فأعطي كل ذي حق حقه».

الرجولة أن تتغاضى عن ذلل الإخوان عن الهفوات التي تبدر منهم وإلاّ فكلنا

(١) النحل (٥٣).
(٢) يوسف (٥٣) .

ذلك العبد المذنب المُسيئ، كلنا ذو خطأ، و «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» (١) ، ولكن البعض كما يعبرون عنه أسود القلب، عنده أحقاد، عندما تكون الهفوة في حقه سيتذكرها وسيذكرك بها منذ عشرين سنة، قلت له كذا منذ عشرين سنة، نظرت له بهيئة كذا وكذا، فهو الذي يُخطأ ويُجرم في حق ربه - تبارك وتعالى -، وعلى الرغم من ذلك يرجو عفو ربه .

﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ (٢) ، ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ (٣)، وكلنا على كثرة خطايانا، وعلى كثرة مساوينا نرجو رحمة ربنا - تبارك وتعالى -، ولذلك فالرجولة أن تتغاضى عن هفوات وعن ذلأت الإخوان، لا داعي لحقد، لا داعي لأن تتذكر الهفوة التي بدرت منذ عشرين سنة، وإن كان ولابد فلتتذكر السّيّئات، تذكر إجرامك فى حقّ نفسك، وفي حق ربك - جلّ وعلا -، ثم أنت الذي ترجو رحمته، وتخشى عذابه، فهذه هي الرجولة.

الرجولة هي أن تسعى في خدمة كل أحد، وهذا لا يكون إلاّ لرسول الله ﷺ، وإلاّ فالخلق يوم القيامة كلهم سيقول نفسي نفسي، والنّبيُّ ﷺ يقول: «**أمتي أمتي**» (٤) هذه هي الرجولة التي نحتاجها، ونحتاج لتكميل معانيها، ذُكرت في أكثر من موضع من كتاب الله، ومن سُنّة رسول الله ﷺ، وقد تذكر على محمل المقابلة مع النساء، يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾(٥)، وقال: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ﴾ (٦)، وقال: ﴿ **وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً** ﴾ (٧)، وقال: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ** ﴾ (٨)، وقال: ﴿ **قَالَ رَجُلانِ مِنَ**

---

(١) حسن، رواه الترمذي وابن ماجه ، وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٩٩).
(٢) آل عمران (١٣٤) .
(٣) النور (٢٢).
(٤) رواه مسلم وابن حبان.
(٥) النساء (٣٢) .
(٦) النساء (٣٤) .
(٧) النساء (١٢) .
(٨) القصص (٢٠) .

الَّذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ (١)، وقال: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (٢).

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**كمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاَّ مريم ابنة عمران وآسيا بنت مزاحم، وفضل عائشة على سائر النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام**» (٣).

وذكر في الفضل أم المؤمنين خديجة ـ رضوان الله عليها ـ، والسيدة فاطمة ابنتها هي سيدة نساء العالمين، كمُلَ كثير من الرجال، ولم يكمل من النساء إلاَّ قليل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والواجب على العبد أن يتخلق بأخلاق الرجولة، وأن يُتابع في ذلك كتاب ربه، وسُنَّة نبيِّه، والمرأة إن تشبّهت بالرجل في زيِّه، في هيئته لحقها الذنب، والنَّبيّ ﷺ يقول: «**لعن الله المترجلات من النساء**» (٤).

ولكن لو كان عندها رأي وعلم مُدِحَتْ بذلك، وبذلك وصفت أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليهم ـ، قالوا عنها كانت عائشة رجلة الرأي، أي عندها رأي محكم سديد، عندها علم وفير، ترتكز في آرائها إلى ما جاء في كتاب الله، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، فهذا هو الذي تمدح به المرأة إن تشبهت بالرجل في إحكام رأيه في قوة علمه، مُدِحَتْ بذلك، أما إن تشبَّهت به في زيّ وهيئة لحقها الذم واللعن «**لعن الله المتشبهاتِ من النساء بالرجال**» (٥).

وثم الإنسان عندما يتّصف بصفات الرجولة، ويكون رجلاً بحق وبصدق، وكلنا مُطالب بأن يُكمل معاني الرجولة في نفسه، سيجد أنه لا سبيل لتحقيق ولا لتحصيل ذلك، إلاَّ بأن يُتابع نبيّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فهو أكمل الخلق أجمعين، لابد من متابعته في كل حال من أحواله، في كل شأن من شئونه.

(١) المائدة (٢٣).
(٢) غافر (٢٨).
(٣) **متفق عليه**، ورواه الترمذي وابن ماجه.
(٤) **صحيح**، رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٠٣).
(٥) **صحيح**، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٠٠).

فهذه هي الرجولة الحقة التي نحتاج لتكميلها في نفوسنا، وإلاَّ فالمسألة ليست عبارة عن ادِّعاء، ولا مجرد كلمة تُقال، سيُقال لنا : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [١] ، كما نتخلف عن مواطن الفضل.

أيّ رجولة هذه عندما نتخلى عن سُنَّة نبينا، كيف تكتمل معاني الرجولة في نفوسنا، النَّبيّ ﷺ كان أشجع الناس، وكان أجود الناس ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ، وهذه رجولة تثبت يوم حنين وغيره، وفي كل المواطن، وقف يقول: «**أنَا النَّبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، وكما يقول علي بن أبي طالب ــ رضوان الله عليه ــ : كان إذا اشتدَّ البأس وحميَ الوطيس كان شجاع منَّا من يحتمي برسول الله ﷺ. وكان يقول: «**اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبّت الأقدام إن لاقينا**».

رجولة، وهذه الرجولة لا يعترضها أبداً أنه كان في مهنة أهله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ، يخصف نعله، ويحلب شاته، ويُرقع ثوبه، لا تقرأوا الأمور على غير حقائقها، هذه رجولة من رسول الله ﷺ.

وأنت لا تكون تام الرجولة ولا مكتملها إلاَّ إن تخلقت بأخلاق نبيك ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ، والاستنكاف عن سُنَّته إن فعلته يومًا لا تزعمن معه الرجولة، وإلاَّ لكنت مُغيراً للحقائق.

كان رسول الله ﷺ يُسابق أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، سبقها مرة، وسبقته أخرى، وقال لها: «**هذه بتلك**»، وكان يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**» [٢] .

وهذه رجولة وأنت مطالب باتباع سُنَّة نبيك ﷺ، وأن تضبط الأمور بضوابطها الصحيحة بلا مغالاة، بلا إفراط، وبلا تفريط، بكى صلوات الله وسلامه عليه يوم وفاة ولده إبراهيم، وبكى يوم وفاة عثمان بن مظعون، وكانت رحمة من رسول الله ﷺ.

(١) البقرة (١١١) .
(٢) صحيح ، رواه الترمذي والبيهقي والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٤) .

وهذه رجولة، بل إن ربما سمع الآيات البيّنات يبكي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، قال لابن مسعود : «**اقرأ عليّ**» قال: أقرأ وعليك أُنزل؟! قال: «**اقرأ عليّ؛ فإني أُحبُّ أن أسمعه من غيري**» فتلى عليه من سورة النساء، حتّى بلغ قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ (1) ، وقال: «**حسبك**» يقول ابن مسعود ﷺ، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تزرفان (2) .

صلوات الله وسلامه عليه، أن يبكي من خشية الله، هذه رجولة ، كان يقوم الليل حتّى تتورم قدماه الشريفتان، صلوات الله وسلامه عليه.

فالرجولة معناها الإنابة إلى الله والتواضع بين يديه، والإخبات إليه، وتعلق القلب به سبحانه، ليس لها معنى دون ذلك، أما أن نخترع ،نبتدع معانٍ للرجولة هيهات، ثم هيهات، يُطالب صاحبها ببرهان، يُقال له: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ .

هاجر النّبيُّ ﷺ من مكة إلى المدينة، وكانت هجرة نزولاً على أمر الله ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (3) ، وهجرته كانت رجولة حقة، دخل الغار ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ونزل قوله سبحانه: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (4) .

خُنق النّبيُّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو ساجد أمام الكعبة، خنقه عقبة بن أبي معيط، أشقى القوم تارة، وألقى على ظهره الشريف سلى الجزور تارة أخرى، وكل ذلك لا يتباعد فيه عن معاني الرجولة، هذه هي الرجولة، يأتيه خباب بن الأرت ـ رضوان الله عليه ـ يوماً وهو متوسداً بردة في ظلّ الكعبة يقول له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فيقول له: «**كان من منكم من قبلي، كان يؤتى بالرجل، ويُحفر له في**

(1) النساء (41) .

(2) **صحيح**، رواه الترمذي وأبو داود، والإمام أحمد، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (3025).

(3) الأنفال (30) .

(4) التوبة (40) .

الأرض، ويُؤتى بمنشار، فيوضع فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه أبداً ، وكان يُمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه أبداً، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلاَّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (١) .

ما دعا صلوات الله وسلامه عليه في موطنه هذا، بل بيّن ووضح السُّنن لخباب بن الأرت، وقال: «**ولكنكم تستعجلون**» ، بطولة والنّبيُّ ﷺ ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤**﴾ (٢) صلوات الله وسلامه عليه .

فمن طلب الرجولة بحق وبصدق عليه أن يقتفي آثار رسول الله ﷺ في حله وترحاله في أقواله وأفعاله، في حركاته وسكناته، في سياسته واقتصاده، في بيته وسوقه، في تعامله مع زوجته ومع أولاده، في كياته كلها ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ۝٢١**﴾ (٣) .

لا تكتمل معاني الرجولة إلاَّ عندما نُتابع الأنبياء المرسلين ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ (٤)، نتخلّق بأخلاقهم، نحرص على متابعتهم، اصطفاهم ربنا على علم العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس؛ فالرجولة الحقة، الرجولة المكتملة في أن تتخلق بأخلاق النبيّين.

نبيّ الله إبراهيم عليه السلام عندما يقول: إني ذاهب إلى ربي، هذه رجولة، عندما يرتحل بالدعوة بها ومعها، يعيش بإسلامه ولإسلامه، عندما يوّجه الدعوة لأبيه، ويقول : يا أبتي لا تعبد الشيطان، ويلين جانبه له، هذه رجولة، عندما يتوجه بدعوته للنمرود، حتّى عندما أخذ منه سارة، قام يدعو ويُصلي لله رب العالمين، هذه رجولة ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١**﴾ (٥) .

---

(١) رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن حبان والإمام أحمد.
(٢) النجم (٣، ٤) .
(٣) الأحزاب (٢١) .
(٤) الأنعام (٩٠) .
(٥) النحل (١٢٠، ١٢١) .

عندما يُظهر فقره لربه، عندما يظهر ضعفه بين يدي الله ويقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ (١)، ثم يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣﴾ (٢)، ويُقدم بين يدي دعائه هذا الثناء على ربه؛ إظهار الفقر والفاقة لخالق الأرض والسماوات، هذه هي الرجولة الحقة.

عندما تتتبع نبيّ الله موسى - صلوات الله وسلامه عليه - تجد الرجولة حتّى وهو يخرج من أرض مصر خائفًا يترقب، خوف تمهّدت أسبابه، لا داعي لأن نُسمي الأمور بغير اسمها، وإلاّ فالبعض الرجولة عنده؛ عبارة عن عضلات فتّاكة، عنتريات لا واقع لها ولا رصيد، تضر ولا تنفع، تُفسد ولا تُصلح، لابد وأن تدور مع إسلامك حيث دار، خرج خائفًا يترقب.

خوف تمهّدت أسبابه، يُظهر فقره لربه، عندما ورد ماء مدين ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣﴾ (٣)، أدبٌ مع الله ملؤه الرجولة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ (٤)، ما كاد يقولها إلاّ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (٥).

رجولة فما تقدم لامرأة لا يسير خلفها، ما نحتاج لبروتوكولات ولا «لإتيكيت» ولا لغير ذلك، نحتاج لإعمال إسلامنا، للاحتكام لديننا، سنكون رجالاً بحق وبصدق، تمتلئ الدنيا ضياء ونور بهذه السلوكيات، بهذه الإيمانيّات، بأقوال نافعة، وأعمال صالحة.

---

(١) الشعراء (٧٨ - ٨٢).
(٢) الشعراء (٨٣).
(٣) القصص (٢٣).
(٤) القصص (٢٤).
(٥) القصص (٢٥).

نبيّ الله موسى عليه السلام يتوجّه بالدعوة لفرعون ، والمناظرة تنم عن ثبات ، ورسوخ لدين الله، بصر وبصيرة محكمة ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [١] .

إنابة لله ودعوات صالحات، وهذه هي حياة الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ، عندما يُرجف بنو إسرائيل يقول لهم: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [٢] ، وهو هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وفرعون خلفه، وراءه، والبحر أمامه، تقول بنو إسرائيل: إنَّا لمدركون، يقول: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٣] .

رجولة لا يُمكن أن تنالها، ولا أن تتعرف عليها إلاَّ بمتابعة منهج الأنبياء والمرسلين، هذه هي الرجولة الحقة، لا تقدح ولا تطعن في قضاء ربك وقدره سبحانه، لا يصح لك أن تطعن في القضاء والقدر ، الواجب عليك أن تستسلم، ينزل بك البلاء لابد من تسليم لأمر الله ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴾ [٤] .

تمتنع برجولتك من لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعاء الجاهلية، بل حريّ بك أن تعترف بقصورك وبظلمك لنفسك ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٥]، لم يقل شيئًا،قضيته علينا وقدرته علينا، لا اعتراف بالذنب وبالتقصير، إنابة إلى الله، رجولة في تمامها وكمالها ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

انظروا في قصة نبيّ الله يوسف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، عندما يدخل عليه

---

(١) طه (٤٩ – ٥٢) .
(٢) الأعراف (١٢٨) .
(٣) الشعراء (٦٢) .
(٤) التوبة (٥١) .
(٥) الأعراف (٢٣) .

إخوته والمروءة والرجولة هي التغاضي عن زلل الإخوان، يقول: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (١)، لم يقل إذْ أخرجني من الجب، وهي نعمة أخرى، ولكن الإخوة أمامه، هل يتكلم ويتفوه بكلمة فيها جرح للمشاعر، هذا ما يكون من نبيِّ الله يوسف، ذكر الجفا في وقت الصفا جفا، يُعرض عن ذكر الجُب، لا يُذكّرهم به، يقول: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ .

علو همّة ، هذا هو شأن الرجال بحق، لم يقل وجاء بكم من الفقر والفاقة والجوع والحرمان، وإلاّ فهذا منٌّ وأذى، قال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ ، ثم قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (٢) ، لم يقل من بعد أن نزغ الشيطان في نفوسكم ، ولكن قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ .

تحييد للكلمات وللمشاعر، إعانة الخلق على طاعة الله، لا إعانة الشياطين على نفوسهم، رجولة حقة تحتاجها أنت، وإلاّ فالبعض يضيع عندما يضرب أمه، عندما ينتهك حرمات الله ـ تبارك وتعالى ـ، وقد يتراءى له أنَّ هذه هي الرجولة، البعض يضع الأمور في غير مواضعها، توهّمَ أنَّ الرجولة في تعاطي الدخان أو المخدرات جلسة رجولة كما يقولون ويعبأون، وهي في واقع الأمر وحقيقته سفهٌ وفجور، انحلال وانحراف، متابعة للأهواء وللآراء.

وإلاّ فالرجولة الحقّة ترك ما تهوى لما تخشى، الرجولة الحقة أن تغُضَّ بصرك عن الحرام، الرجولة الحقة أن تنأى بنفسك عن مواطن الردى، لا تتبع شهوة وضيعة فتورثك حسرة كبيرة، أن تتحكم في نفسك، تقودها بكتاب الله وبسنّة رسول الله ﷺ، لا تتبع أكثرية ولا أقلية على حساب دينك، تتزحزح الرجال وأنت ثابت على طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ، تقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ (٣) .

ليست الرجولة بضرب الأم أو نحو ذلك، أو انتقاص أب؛ فهذه وضاعة لابد من

(١) يوسف (١٠٠) .
(٢) يوسف (١٠٠) .
(٣) طه (٨٤) .

تسمية الأشياء باسمها، فهذه حالة مراهقة، حالة لا يفعلها إلا من تابع وتجارى مع هواه، النبيُّ ﷺ كما تحكي أم المؤمنين عائشة ﵂ - والرجولة في كمالها وتمامها عنده - «ما مسَّت يده امرأة - صلوات الله وسلامه عليه -، ولا خادمًا، ولا دابة، إلا أن تُنتهك محارم الله، فإذا انتُهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله» [١] .

هل رأيتم الخلق حتّى يصفون إنسانًا بالرجولة إذا ما ضرب امرأة ضعيفة، لا يُمكن أن يوصف مثل هذا برجولة، بل ما بالك لو ضرب أمه، لو انتقص أبًا ضعيفًا صار يقوم على مراحل، مثل هذا لا يُمكن أن يوصف برجولة، لابد من تسمية الأشياء باسمها، هذا الذي يتعاطى المحرمات كيف يوصف برجولة، هذا الذي يكفر بخالق الأرض والسماوات، كيف يوصف برجولة، وهو الذي انتكس عقله وقلبه، وتابع هواه، كل شيطان مريد، نحتاج للاحتكام إلى كتاب ربنا ولسُنَّة نبيّنا - صلوات الله وسلامه عليه -، ضبط المشاعر والكلمات والأفعال، خصوصًا وهي لوثة عمَّت وطمت، والوقت وقت غربة وجهالة، كاد المريب أن يقول خذوني، بُسط الجهل، ورُفع العلم، زخرفت شياطين الإنس والجن للبعض الزخارف والأهواء، بل طلت عليه، كان لابد من رد النفس والدنيا من حولنا لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [٢] .

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.



(١) صحيح. صححه الألباني في مختصر الشمائل.
(٢) المائدة (٣) .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاّ على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد .... عباد الله :

يُعَبر عن الرجولة أحياناً بالفتوة والمروءة، وأحياناً يستخدم البعض لفظ الإنسانية، ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) ﴾ [(١)]، عندهم إصرار على الحق، عندهم علوّ همة، عندهم ثبات على دين الله، عندهم بصيرة نفّاذة، كانوا فتية آمنوا بربهم، وزادهم ربنا هدى، والحق أقْبل للشباب، إذا ما قُورنوا بالشيوخ، هم الذين يقبلون الحق قبل كبار السن، هذا هو الشأن والحال، ولله في خلقه شئون.

سُئل جعفر الصادق يومًا عن الفتوة، فقال لسائله: أنت ما تقول فيها؟ قال: إن أُعطيت شكرت، وإن مُنعت صبرت، قال: أما الفتوة بالنسبة لنا إنْ أعطينا آثرنا، وإن مُنعنا شكرنا.

ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله، هذه هي الفتوة في تمامها وكمالها، إن أعطينا آثرنا، أي سيؤثر غيره على نفسه، وإن مُنعنا لن يكون منه الصبر فحسب، بل سيتوجّه إلى الله بالشكر، عطيّته أفضل العطايا وأهناها، وما منعت منه فضله عليك فيه، لا يقبل أبداً عمّا أعطاه لك، ربنا - تبارك وتعالى - غير مطعون في قضائه، بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط.

محتاجين لتدويل معاني المروءة، ومعاني الفتوة، محتاجين أن نتخلق بأخلاق الرجال الذين امتدحهم ربنا تبارك وتعالى وأثنى عليهم، قال سبحانه: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ [(٢)]، نزلت في

(١) الكهف (١٣).

(٢) الأحزاب (٢٣).

أنس بن النضر رضوان الله عليه يوم أُحُد، قال ـ وكان قد تغيّب عن غزوة بدر ـ: «لئن أراني الله غزوةً غيرها ليرينّ ما أصنع»، وانكف عن هذه الكلمة، ولما كان يوم أُحُد وانكشف الناس، تبرأ إلى الله مما فعل المشركون، واعتذر إليه مما فعله إخوانه وأصحابه، سمع بموت رسول الله ، قال: «علام الحياة بعده، قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه»، كلمة حرية أن تُنقش على القلوب، تصلح منهاجاً للحياة، بل قلْ: لا تنصلح الحياة بدونها.

علام الحياة بعده، قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه، ثم قال: «واهٍ لريح الجنة، إنّي لأجد ريح الجنة من دون أُحُد». قاتل حتّى قُتل، ما عرفته إلاّ أخته بطرف بنانه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ .

عُمير بن الحمام ـ رضوان الله عليه ـ سمع قولة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»** ، فقال: بخٍ بخٍ، قال له: **«علام قلت: بخ بخ؟!»** ، قال: لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»** أخرج تمرات من قرنه يأكلها، ثم وكأنه راجع نفسه، لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه، إنّها لحياة طويلة، فقذف بها ودخل يقاتل، فقُتل رضوان الله عليه.

حكى أبو برزة الأسلمي رضوان الله عليه، قال: رجعنا من غزوة غزاها رسول الله ﷺ، فقال: **«هل تفقدون من أحد؟»** . قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً وفلاناً. قال: **«هل تفقدون من أحد؟»** . قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً وفلاناً. قال: **«أما أنا فأفقد جليبيباً»** (١) .

كان مغموراً ـ رضوان الله عليه ـ، أتقياء أخفياء، يخفى أمرهم على أهل الأرض، ويعرفون في أهل السماء، تعاملوا مع ربهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾ (٢) ، بحثوا عنه، فوجدوه بجوار سبعة، فقال النّبيُّ ﷺ: **«قتلهم ثم قتلوه، هذا منّي وأنا منه، هذا منّي وأنا، هذا**

(١) صحيح، رواه مسلم وأحمد والبيهقي.
(٢) الإنسان (٩، ١٠) .

مني وأنا منه» ليس له يومئذ إلاّ ساعد رسول الله ﷺ، حتّى تمنّى الأفاضل كابن مسعود وغيره أن لو كان لهم هذا المقام العالي، الذي وقفه جليبيب رضوان الله عليه.

رجال والرجولة قد تكون نادرة، ولكن لا داعي لليأس ولا للقنوط من رحمة الله ﴿**إنّهُ لا يَيْأسُ مِن رَوْحِ اللهِ إلاّ القَوْمُ الكَافِرُونَ**﴾[1] نحن بحاجة لحسن التأسّي، حسن المسير مع الله .

عاصم بن ثابت يوم الرجيع ـ رضوان الله عليه ـ، وكانوا قراءً هو وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وغيرهم، قُتل أصحابهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ فقام عاصم بن ثابت إلى سيفه فاخترطه، طلب منه المشركون أن يُعطيهم عهداً، فأبى و «**لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين**» [2]، دخل يُقاتل لما أحسّ بدنو أجله دعا ربه، وقال: اللهم إنّي حميت دينك أول النهار، فاحمي لحمي آخره. قُتل ـ رضوان الله عليه ـ، وكانت سلاف قد دفعت فيه مئة ناقة لمن جاءها برأسه، أرسل ربنا تبارك وتعالى الزبر، فحماه أول النهار، ثم أرسل طوفاناً فجرفه، فلم يعثروا على أثره ـ رضوان الله عليه وعليهم أجمعين ـ.

خبيب بن عدي سنّ للأمة سُنة القتل و ﴿**مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**﴾ ، وهو الذي أنشد:

ولست أُبالي حين أُقْتل مسلماً ... على أي جنبٍ كان في الله مصرعي
وذاك في ذات الإله وإنْ يشأ ... يُبارك على أوصال شلوٍ ممزع

هكذا كان شأنهم يسأل زيد بن الدثنة، يسأله أبو سفيان – وكان يومئذ كافراً – خرجوا به إلى التنعيم لقتله، يقول له : يا زيد، أما تُحب أنك في أهلك وولدك ومحمد هنا تضرب رقبته؟، فقال: والله ما أُحب أنّي في أهلي وولدي ورسول الله ﷺ في المكان الذي هو فيه يشاك بشوكة. يقول أبو سفيان: فما رأيت أحداً يُحب أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد.

هذه هي الرجولة الحقّة، اتباع صادق لرسول الله ﷺ أن تجود بنفسك وبمالك في

(١) يوسف (٨٧) .
(٢) متفق عليه .

سبيل الله أن تحيا حياة العبودية، أن تكون مؤدبًا مع ربك ومع نبيّك - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (١)، حرص على طاعة الله، احذر أن يراك حيث نهاك، وأن يفتقدك حيث أمرك.

والرجولة وإن تكلم عنها البعض بأنها تتعدى سن البلوغ إلاّ أنك لو نظرت لوجدتَ أنّ البعض عنده رجولة مبكرة، يقولون عنه سبق سنّه، سبق عمره وزمنه، عنده رجولة مبكرة على حداثة سنة كابن عباس ﷺ فهو حبر الأمة وترجمان القرآن، في سن صغير يجمع حديث رسول الله ﷺ، يبيت على أبواب الصحابة انتظارًا لاستيقاظهم وخروجهم؛ حتّى يحفظ منهم حديث رسول الله ﷺ.

رجولة مبكرة، وإلاّ فالولد في السن الصغير لا حظّ له إلاّ اللعب وإلاّ اللهو، شأنه كشأن العصفور الذي ينطلق، ولكن البعض عنده رجولة مبكرة، ابن عمر - رضوان الله عليهما -، يعرض نفسه على رسول الله ﷺ يوم بدر، فرفضه لصغر سنه، لم يكن قد وصل إلى مرحلة البلوغ، ثم أجازه - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أُحد.

رجولة مبكرة وُجدت عند الغلام الذي جاد بنفسه، وقال للطاغية: «**لن تتمكن منّي حتّى تجمع الناس في صعيد واحد، وتشد قوسك، وتقول: باسم الله رب الغلام، فإن أنت فعلت ذلك قتلتني**» (٢).

رجولة مبكرة وُجدت عند هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم ربنا هدىً، وقالوا: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)﴾ (٣)، رجولة مبكرة حكاها ابن الجوزي في قصة أبو قدامة الشامي عندما قدم بغزو الشام، وقام أبو قدامة يُذكّر الناس بالجهاد في سبيل الله، تأته امرأة تدفع له ضفيرتين، تقول له: يا أبا قدامة، لا أملك من الدنيا إلاّ هاتين الضفيرتين، اصنع منهما لجامًا تشد به فرسك، تُقاتل به في سبيل الله، بكى أبو قدامة،

(١) الحجرات (١).
(٢) رواه مسلم.
(٣) الكهف (٦٠).

ثم ما كاد ينطلق إلاَّ واعترضه صبيٌّ صغير، يُناشده بالله أن يحمله معه على فرسه لقتال الروم، والبعض موفق مسدد، البعض علم الغاية التي من أجلها خُلق البعض، عنده فطرة سويّة، عنده عقل راجح، أمر ربه يضعه نصب عينيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم يُلح على أبي قدامة بعدما احتمله أن يدفع له ثلاثة أسهم يرمي بها الروم، يقتل الغلام، وقبل أن يقع على الأرض يلحق به أبو قدامة، وكان قد اشترط عليه إنْ احتمله أن يشفع له عند الله، إن هو قُتل شهيداً، قبل أن يقع الغلام على الأرض يدفع له جراباً، يقول : أعطه لأمي. قال: ومن أمك؟ ، قال: صاحبة الضفيرتين.

ذرية بعضها من بعض، ثم عندما يذهب أبو قدامة لأمه يسأل عنه، تحكي الأم لأبي قدامة أنّ الولد الصغير كان يقوم الليل فإذا فتر تعلّق بحبل ودعا ربه أن يبعثه حين يبعثه من حواصل الطير.

والبعض موفق مسدد، والبعض عنده رجولة مبكرة، وسواء تجاوزت أنت مرحلة البلوغ أو كنت دونها أنت بالإسلام وللإسلام تعيش، نعمة ربنا لابد من تأدية شكرها، وأجل نعمه علينا هي نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، نرتفع لمستوى إسلامنا، ولمستوى ديننا، سواء كنّا رجالاً أو نساءً، كباراً أو صغاراً، لك هدف في هذه الحياة، ليس دون الله، منتهى هدفك وطموحك لا في الحصول على شيء من المال أو منصب رفيع، أو تكون صاحب وسامة، صاحب موضة ونحو ذلك، وتسريحة شعر، هذه وضاعة ينأى الرجل عنها.

لابد أن نرتفع لمستوى إسلامنا ولمستوى ديننا، لابد وأن نتخلق بأخلاق النّبيّن، ونحرص على التّشبه بالصالحين هم القوم، «نحب الصالحين ولسنا منهم»، لابد من اقتفاء آثار الطّيّبين، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وعسانا إنْ دعوناه سبحانه وسألناه من فضله أن يمنّ علينا، والخير كله في يديه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١).

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(١) غافر (٦٠) .

تأمين المستقبل

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [١].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [٣].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

الخوف من المستقبل ومحاولة تأمينه قاسم مشترك بين المؤمن والكافر، بين البر والفاجر، بين الكبير والصغير، بين المرأة والرجل. الكل يسعى لتأمين مستقبله، وإلاَّ فقد تطول به الحياة، ثم لما كان السلوك مرآة الفكر، وكل إناء بما فيه ينضح، افترق المسلم عن غيره، فالمسلم له شأن وللناس شأن، حتَّى وإن تخوف الجميع في ظاهر الأمر، ولكن الأسلوب والسبيل الذي يسلكه هذا يفترق عن ذاك.

ولذلك كان لابد من نظر وإلاَّ فهذا التخوف دفع شركات التأمين لأن تنتشر هنا

(١) آل عمران (١٠٢).
(٢) النساء (١).
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).

وهناك، وما هي إلاّ ربا وغرر كما بيّن العلماء؛ وذلك لأنها آنست من الخلق خوف على مستقبلهم، والعصر الذي نعيشه عصر مادى، عصر انتشرت فيه الغربة والجهالة، بل هذا الخوف الهالع على الأرزاق هو من جملة مظاهر هذه الغربة التي نعيشها ونحياها، ويا ليتنا إذْ تخوّفنا على أنفسنا أو على أولادنا أو نساءنا يا ليتنا إذ تخوّفنا على البلاد وعلى العباد بزعمنا أن ننطلق انطلاقاً رشيداً، أن ننطلق من كتاب الله ، ومن سُنَّة رسول الله ﷺ، ولكن كان الخطأ في تشخيص الداء، وفي وصف الدواء.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [١] ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلا، ولا أدل على ذلك من هذه الصور التي نشاهدها، والتي يزعم أهلها أنهم يؤمّنون بها المستقبل، وهم في واقع الأمر وحقيقته يدمرون أنفسهم ويدمرون الدنيا معهم، لم يؤمّنوا مستقبلاً، بل دمّروا هذا المستقبل، بل دمّروا الحاضر والمستقبل معه، بل وإلاّ فانظر لهذا الذي يسعى لتأمين بناته، سيزوّج ابنته من رجل عنده سيارة، عنده مال وفير، وهو لا يبالي هل هذا الرجل الذي تقدّم لابنته هل هو مصلي أم لا، حريص على طاعة الله أم لا، هل تواجدت وتوافرت فيه معاني الكفاءة، مثل هذا هو لم يسأل، ولا يبالي به، وإذا ما قيل له: كيف زوجت ابنتك من مخمور، من ملحد زنديق؟ سيقول: كنت أريد تأمين مستقبلها.

وكيف يؤمن هذا المستقبل، بالمال الوفير، بالمنصب الرفيع الذي عليه هذا المتقدم؟ والعلماء يقولون: من زوج ابنته من فاسق،فقد قطع رحمها، وكانت أم المؤمنين عائشة - رضوان الله عليها - تقول: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يسترق كريمته»، والحسن لما سُئل: من أُزوج ابنتى؟ قال: زوجها التقي النقى، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يهنها. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يبعث لولاته: ألا إنّ أهم أموركم عندي الصلاة، ألا إنه لا حظّ في الإسلام لمن ضيع الصلاة. وكان يقول: من ضيعها فهو لما سواها أضيع.

---

(١) الإسراء (٧٢) .

هذا الولي، هذا الوالد الذي زوّج ابنته من ملحد زنديق من تارك صلاة هو من دمّر مستقبلها في واقع الأمر وحقيقته، وإلاّ فما شأن الدنيا حتّى ولو أتت مع هذا العاصي الفاجر، كانت النتيجة أن تخلع حجابها، أن تترك صلاتها، أن تصاحب أصدقاءه، أن تكون على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، ورب العزة ـ جل وعلا ـ بيّن وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) ﴾ (١).

هذا الرجل الذي أخذ ابنته إلى الجامعة تختلط بالشباب في سن احتراق كهذا، في سن مراهقة كهذا، وهي على من التبرج، لو سألناه لماذا صنعت ما صنعت؟ سيقول: أريد أن أؤمن مستقبلها بشهادة جامعية وهو في واقع الأمر يدمر مستقبلها، هذه الصغيرة، وهذه الفتاة، وقد خرجت على مثل هذا النحو لا ينتظر صلاح ولا خير في مخالفة أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في التعدي لحدود الله ـ جلّ وعلا ـ، وإلاّ فالنبيّ ﷺ قال: **«خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»** والشرع قد أمر بالمباعدة.

والفتنة بالنساء عظيمة وكبيرة، والدنيا حلوة خضرة، وأن الله مستخلفكم فيها كما قال الصادق المصدوق ﷺ، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، ولا شك أنّ البلية بالمرأة المتبرجة عظيمة الخطر، هي فتنة لنفسها، فتنة لغيرها.

وهذا الأب الذي يزعم الشفقة والرحمة ويريد أن يؤمن مستقبل أولاده هو في واقع الأمر يدمرهم، بل يؤخر زواجها حتّى تتحصل على شهادة جامعية أو أعلى من الشهادة الجامعية، وهذا في واقع الأمر وحقيقته ما هو إلاّ تدميراً للمستقبل؛ فأنت لما تنظر كيف نؤمّن مستقبل أولادنا وعندنا شفقة مزعومة، وأنت لا تكاد تسمع أبداً من يقول: أؤمن مستقبل والديا، مستقبل أبويا، فتأمين المستقبل، وكأنه للأولاد الصغار فحسب، ما الذي يمنعك حتى بنظرة مادية جرت منك مجرى الدم أن تؤمن مستقبل الوالدين

---

(١) الفرقان (٢٧).

وكأنهما صارا هملاً على هامش الحياة أو كما يعبر البعض ويقول «شبعا من الحياة» وكأنه قد آن لهما أن يموتا، والعصر الذي نعيشه هو عصر العقوق.

انظر لمن يؤمن مستقبل أولاده ما الذي سيصنعه، شهادة تأمين على الحياة، وضد الحريق، وضد الهدم، وضد كذا ... هل هذا هو التأمين ؟! فالتأمين لا يحدث ولا يكون إلاَّ بالاستقامة على أمر الله ، إلاَّ بالعمل بدين الله ، لا يحدث تأمين بربا، بقيام غرر، وهذا الذي سيدخر ماله في البنك إذا ما سئل هو الآخر لماذا تعاملت تعاملات ربوية ؟ ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [١]، ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [٢]، ستجد إجابة واحدة: سيزعم الشفقة والرحمة لأولاده، حتَّى يُؤمن مستقبلهم، والله ، لا مانع أبدا من أن تدخر لهم مالاً مباحًا نستثمره في عمل مشروع، أما أن تتعامل تعاملاً محرماً، أن تتعامل تعاملاً ربوياً، فهذا هو الذي لا يحل لله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [٣] .

لا طاقة لك بها أنت تدمر نفسك، وتدمر عيالك بهذا الصنيع، بهذه الربويات التي دخلت فيها، لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، فهذه الأموال ممحوقة البركة، كيف دخلت فيها، ستجد إجابة واحدة أنه يريد أن يُؤمّن مستقبل هؤلاء الصغار، وكأنه عنده من الشفقة، وعنده من الرحمة ما جعله يدخل في مثل هذا المدخل، كان الواجب عليه أن يكون على بصيرة من أمره وأمر الناس.

بل البعض منا يهاجم على من لا يرحمه، ويقدم على من لا يعذره، هذا هو واقع أمره، وإلاَّ فلو سألنا من ارتشى : لماذا ارتشيت ؟ هذا الذي غش: لماذا غششت؟ لماذا سرقت؟ ستجد إجابة واحدة: أريد أن أُؤمّن مستقبلي ومستقبل عيالي من بعدى، كيف نؤمن المستقبل بمثل هذه المقدمات الفاسدة، فكل مقدمة لها نتيجة، وكل عقيدة لها

(١) البقرة (٢٧٦) .
(٢) البقرة (٢٧٥) .
(٣) البقرة (٢٧٨، ٢٧٩) .

تأثير ولذلك قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾(١) .

كيف انعدمت ثقتك في الله، إنَّ ربي لطيف لما يشاء، هو اللطيف سبحانه بخلقه وبعباده هو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، اطلب الرزق بعزة النفس، اطلب رزقك بطاعة الله ، ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(٢)، هو الذي يرزق النملة في جحرها، ويرزق الطير في سمائه، ويرزق الحيتان في بحورها، هو القدير سبحانه، هو الذي ينزل الرزق للمسلم والكافر، فكيف انعدمت الثقة في خالق الأرض والسماوات.

لما سأل البعض ما مالك؟ قال: لي مالان لا أخاف معهما الفقر: الثقة في ما عند الله، واليأس في ما عند الناس.

ولما سئل أبو حازم قال: أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يدي نفسك.

ولكن اندفع الخلق اندفاعًا همجيًا طلبًا للحرام، وبزعم تأمين المستقبل، كل مقدمة ولها نتيجة لابد لتحصيل الأرزاق والخيرات والبركات من الاستقامة على أمر الله ، ولكن الأمر لا تجده لما تنظر كيف ندمر أنفسنا، والبعض منّا قد يوصي للولد الكبير أو يوصي للذكور دون الإناث، شقي في جمع المال، ثم سيشقى أيضًا بتركه، والإضرار في الوصية من الكبائر ، وكأنه أراد صيانة المال من بعد وفاته، أو أن يؤمّن فلان الفلاني أولاده، فكان الإضرار في الوصية.

والعبد يعمل بطاعة الله ستون سنة، فيضار في الوصية فيدخل النار، فيجب عليك أن ترفق بنفسك، الواجب عليك أن تشفق على هذه النفس، دع الملك للمالك، فإن الله أعطى لكل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، كما قال ﷺ، لكن انظر لما يحدث هنا وهناك ستجد الانحرافات والاعوجاجات، ستجد تدمير المستقبل، إغار الصدور بين الإخوة وبين الأخوات في البيت الواحد، بسبب مثل هذا الصنيع .

(١) سبأ (١٥) .
(٢) الذاريات (٢٢).

ومال يدمر صاحبه آتاه من حرام، كان الواجب عليك أن تدقق، أن تُؤمّن نفسك بطاعة الله ، أن تعمل بدين الله، أن تجمع المال من حله، وتضع هذا المال في حقه، وأنت بين يومين؛ بين يوم قد مضى لا تدري ما الله صانع فيه، ويوم قد بقى لا تدري ما الله صانع فيه، فكان لابد من الرفق بالنفس، وما أكثر صور التدمير التي نشاهدها في عالم الواقع، ما الذي يؤمن مستقبله ومستقبل أولاده تأميناً حقيقياً .

مسألة وكأنها طالتها الغربة التي نعيشها ونحياها، ولقد بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء، أنت لما تنظر في واقع الدنيا يهولك الأمر، وأنت لا تدري ما الذي يُمد في أجله.

مما يُحكى - وهو من جملة الوقائع التي تستلفت الأنظار - هذه المرأة التي أخبرها الأطباء أنها على وشك الموت، أو أنها أدركت ذلك، وأحسته فما كان منها إلاَّ أن كتبت كل التركة، كل مالها لأختها الحنون الشفوق التي تقوم على رعايتها وحتى تمنع بقية أخواتها، وكانوا قُساة، ثم ما الذي يحدث بعد ذلك، هذه الحانية تموت هذه الأخت التي كانت تخدم المريضة، وتصبح هذه المريضة وقد طالت بها الحياة تصبح من جملة الورثة، ويدخل الإخوة جميعًا في ميراث هذه المريضة وهي واحدة منهم بعد أن كان المال هو مالها.

الواجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار للسُّنن الشرعية والسنن الكونية ندمر مستقبلنا بعمل المعاصي والذنوب وندمر حاضرنا، وإلاَّ؛ فانظر في سِيَر الأمم الفائتة كيف دمرها ربنا، كيف أهلكها، وكيف؟ تلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاَّ قليلا، وكنا نحن الوارثين، أقاموا الحضارات والأهرامات، كانوا يُنشأون المصانع، وكانوا يتخذون الجبال بيوتًا فارهين .. إلى غير ذلك من الصور التي ما عملوا بها إلاَّ لتأمين المستقبل، ثم لما طاشت العقول لما كفروا بخالق السماوات والأرض ما عملوه كان وبالاً عليهم دُمروا به في الحاضر والمستقبل، ثم صارت بيوتهم خاوية على عروشها تمر على الآثار

الآن يقولون لك «ممنوع البناء عليها» والأمر كذلك لا داعي للبناء على مثل هذه المواطن فهذا تحقيق وتطبيق لقوله سبحانه: ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١) .

لما كفروا بخالق الأرض والسماوات انتقلوا إلى الدمار لم يؤمّنوا الحاضر ولا المستقبل، بل حدث الدمار هنا وهناك، انظر إلى قوم نوح وعاد وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً، أين هذه الحضارات التي أنشأوها؟، أين هذا البنيان وهذا العمران؟ ما هو سبب الدمار؟ هل تحقق لهم المستقبل الآمن؟ أبداً هذه أوهام عريضة في واقع المجتمعات، وفي واقع الأفراد.

انظروا إلى فرعون وهو يشيد ويبنى، انظروا كيف قال لغيره أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أجراها - سبحانه وتعالى - من فوق رأسه جزاءاً وفاقًا، غرق يوم غرق وهو يقول آمنت، لم ينتفع؛ لأنها توبة بعد فوات الأوان، ولأنه تُقبل توبة العبد ما لم يُغرغر، ثم لو استطعت أن تطلع عليه لوجدت ما حكاه لك ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢) .

هذا هو الذي يعانيه هل أمّن له مستقبلاً؟ هل أمّن الحاضر أو المستقبل؟ أوهام تعيش فيها البشرية، وإلاّ فانظر إلى الزلازل والفيضانات والأعاصير التي يعانيها البشر، لا يستطيعون لها مقاومة، ولا ينهض أمامها تلك الوسائل العصرية التطورية، هل أمّنوا مستقبلهم؟ لا يمكن أن نؤمن مستقبلاً، ونحن نكفر بخالق الأرض والسماوات ، ونحن نعصيه سبحانه، أتعصي ربك وترجو رحمته، كل مقدمة ولها نتيجة.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) القصص (٥٨) .
(٢) غافر (٤٦) .
(٣) الأعراف (٩٧ - ٩٩) .

من طلب أمنًا وأمانًا، من طلب تأمين المستقبل، فعليه بطاعة الله ، إن الأمان غداً لمن باع قليلاً بكثير، ونافذاً بباق، كما قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – :

«ألا ترون أنكم في أسراب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون، وكذلك حتّى ترد إلى خير الوارثين، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تُشيعون غادياً ، ورائحاً إلى الله ، قد خلع الأثياب، وفارق الأحباب، ووجه للحساب، غني عما ترك، فقيراً إلى ما قدم».

لو دامت لغيرك ما انتقلت إليك، وأنت لا تدري ما الذي يُنادى به عليك غداً، أراحل أنت أم مقيم، أنت لا تدري من يرث من؟ وفي واقع الأمر وحقيقته ميت يرث ميتًا، وميت يتطلع إلى تعجيل موت الآخر حتّى يرث هو التركة ، كان يجب على الكل أن ينهض بطاعة الله أن يُسلم وجهه لله، أن يؤمّن مُستقبله بالاستقامة على كتاب الله ، وعلى سُنة رسول الله ﷺ، وإلاّ ففساد الانتهاء من فساد الابتداء، والعبد إذا فسدت بدايته فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته، فلربما هلك، والنجاة غداً بتوفيق من الله وتسديد بالاستقامة على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1]، وقل آمنت بالله ثم استقم، تخوف على نفسك من الذنوب والمعاصي، تخوف من التفريط في طاعة الله ، هذا هو الذي يدمر المستقبل وإلا ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩﴾[2] .

فلابد من تقوى الله في السر والعلانية، في القول والفعل، في الغضب والرخاء والشدة، لابد من عمل بأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ، وهو الذي يحفظ به؛ فاحفظ الله يحفظك، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[3]، حُفظ الأبناء بصلاح الآباء، ولا تحفظ النفوس في الحاضر والمستقبل بمثل طاعة الله، وما عند ربك من خير وبركة وسعة رزق من أمن وأمان لا تناله إلاّ بطاعتك له.

كما قال عمر رضي الله عنه: ليس بينكم وبين الله نسب، أنتم عباده وهو ربكم تنالون ما

(١) هود (١١٢).
(٢) النساء (٩) .
(٣) الكهف (٨٢).

عنده بطاعته، فعليكم بطاعة الله ، واستقيموا يرحمكم الله، تنالوا الأمن والأمان اليوم وغداً بإذن الله تعالى إن كان في العمر بقيّة ونسأله ـ جلّ وعلا ـ بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى أن يبصرنا بمواضع الأقدام، وأن يردنا لدينه رداً جميلاً، وهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.



الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلاّ على الظالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده، وأن محمداً ﷺ نبياً.

أما بعد:

عباد الله، من الذي ربّى نبيّ الله موسى؟! دفعته أمه، ألم تكن خائفة على مستقبله؟!، دفعته أمه وقد أسلمت أمرها إلى الله ، فوّضت الأمر لله ، نحن أولى بك منك، قيل لها: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [1] ، فوضي الأمر إلينا.

حُفظ نبي الله موسى عليه السلام وكان له المستقبل الحق، كان له المستقبل المشرق عندما أسلمت أمه وجهها لله ـ تعالى ـ عندما انقادت لوحي ربها ـ تبارك وتعالى ـ، وهذه آية بيّنة تضمّنت أمرين ونهيين وبشارتين، وهما إعجاز في إيجاز هذه الحيطة الحقيقية هذا هو الحب والخوف الحقيقي أن تُسلم وجوهنا لله، أن نعمل بطاعة الله، احفظ الله يحفظك، احفظ أوامر الله يحفظك في أبنائك وفي ولدك وولد ولدك، بل في الدويرات من حولك، إن كنت حافظاً لأمر الله، هذه هي المقدمة هذا هو السبب الحقيقي لتأمين المستقبل مستقبل البلاد والعباد، لكن تاهت المعاني في واقع الغربة من الذي حفظ هاجر ومن الذي حفظ أيضًا إسماعيل نبيّ الله، تركهما الأب تركهما نبيّ الله إبراهيم عليه السلام ألم يكن خائفًا على مستقبل ولده، أسلم الوجه لله، هل ربنا يضيع أنبياءه؟، هل ربنا يضيع الصالحين من خلقه؟ من ظن ذلك فقد ظنّ ظن السوء، فربك ـ تبارك وتعالى ـ يعطي الدنيا لمن يُحب ومن لم يُحب، أمّا الآخرة فلا يعطيها إلاّ لمن أحب.

---

(١) القصص (٧) .

نشأ وترعرع نبيُّ الله إسماعيل، وكان نبيًا رسولاً صلوات الله وسلامه عليه، حُفظت هاجر وحفظ إسماعيل، وكان ما كان من هذه الخيرات والبركات، كيف تم الحفظ؟، كيف تم تأمين المستقبل؟ لابد من فقه في دين الله لابد من بصيرة بشرع الله، ما الذي ورّثه الأنبياء والمرسلين لأولادهم، إن تركت خيراً فلا بأس بذلك، إن وسعك الأمر وتركت مالاً لأولادك فلا عُتبى ولا حرج، كما قال النَّبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص عندما همَّ بصدقة بكل ماله فقال: **«إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»** ، وقال لكعب بن مالك لما أراد أن يتصدق بكل ماله توبة لله قال: **«أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»**.

فإن تمسك بعض مالك؛ أن تذر ورثتك أغنياء إن وسعك الأمر فلا عتبى ولا حرج أبداً في ذلك، أما أن تعمل بالحرام تأخذ المال من حرام وتنفقه في حرام، تدمر نفسك بزعم أنَّ العمل كفاح والسعي على لقمة العيش جهاد، ثم أنت التارك لصلاتك، لابد وأن ترفق بنفسك وإلاَّ فربنا ـ جلَّ وعلا ـ الذي أمرنا بالسعي طلباً للرزق هو الذي أمرك وقال لك: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[(١)]، وقال: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[(٢)]، ولكن نظرة مادية أوغلت هنا، جرت منَّا مجرى الدم من العروق، أنستنا ربنا، وصارت تهالكاً مريب طلبًا للدنيا، **«ومن كانت الدنيا همه فرَّق الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتي من الدنيا إلاَّ ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغبة»**.

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[(٣)]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[(٤)]، حياة الرضا، حياة القناعة، وتيسر لك الخيرات والبركات، ولكن لا تنسى المقدمات، والمقدمة سهلة يسيرة أن تعمل بطاعة الله، وبسُنَّة رسول الله

(١) النساء (١٠٣).
(٢) البقرة (٢٣٨).
(٣) التغابن (١١).
(٤) النحل (٩٧).

ﷺ والمسألة لا تحتمل ربويات، ولا تأمين على الحياة ولا تفريط في طاعة الله، فثق في ما عند ربك ـ تبارك وتعالى ـ، فما الذي تركه الأنبياء لأولادهم؟ النَّبيُّ ﷺ قال: «**إنَّا لا نورث، ما تركناه صدقة**» لا يورثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، هذا هو الذي تركه الأنبياء، ولذلك لما أرادت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ أن تأخذ نصيبها فيما تركه النَّبيُّ ﷺ والدها منعها أبو بكر الصديق ﷺ؛ لأن ما تركه الأنبياء لا يورث، فهل لم يؤمِّنوا مستقبل أولادهم؟ هل كانوا يضنون على أولادهم، لا يتخوفون عليهم، لا شفقة عندهم؟.

فلابد من فقه وبصيرة يا عباد الله ، فلا داعي أن تنجرف مع من انجرف، وإلاَّ فالبعض مادى، لوثة إلحادية، صارت الحياة عند هؤلاء هي اللحظة التي يعيشها هي الدنيا التي يحياها، أما الآخرة فهو لا يؤمن بها، لا يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ، لسان حالهم ينطق: ما هي إلاَّ أرحام تدفع وأرض تبلع، هذا هو لسان حال الملاحدة من الشيوعيين وغيرهم، وأنت تؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا، أنت الذي أسلمت وجهك لله ، عندك من الإيمان بقضاء الله وقدره ما يجعلك ترتاح حتّى وإن لم تترك لأولادك «مليمًا» فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا، وإلاَّ فما قيمة الملايين أتركها لولدى، ثم يكون فاجرًا، يعمل فيها بمعصية الله تبارك وتعالى، هل أكون قد أصبت؟ هل أكون قد أحسنت أنا إليه ؟.

نظرة للواقع من حولك تدلك على إحسان المسير إلى الله، طريق واحد لا يحتمل أبدًا التعدد، ولا التغيير ولا التبديل ولا حتّى التفكير، سلموا وجوهك لله تعالى، ولذلك لما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز – رحمة الله عليه – وكان صالحًا أتاه مسلمة بن عبد الملك يقول له: إنك أثقلت أفواه ولدك وتركتهم عيالاً لا مال لهم، فلو أوصيت بهم لمثلى، أو لبعض أقاربك فانقعد عمر وانتصب ، وقال لمسلمة: أما قولك أني أثقلت أفواه ولدى، فإني والله ما منعتهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم ما لا

يحل لهم، وأما قولك أن أوصي بهم، فإن ولي ووصي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، بل إن أحد رجلين إما رجل صالح فيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وإما رجل فاجر فما كنت لأعينه على معصية الله . ثم قام ودمعت عيناه - رحمه الله - وجمع أولاده، قال: أما والله إني نظرت في أمري وأمركم فوجدت بين أن تستغنوا وأدخل أنا النار، وبين أن تفتقروا ويدخل أبيكم الجنة، وكان أن تفتقروا ويدخل أبيكم الجنة أحب إليّ من أن تستغنوا ويدخل أبيكم النار.

كان لابد من نظر، لابد من بصر وبصيرة، ترفق بنفسك، وإلاَّ فالكل راجع إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ ﴾ (١)، أنت ستقف بين يدي ربك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، تأتي النفس فتقول: ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (٢) .

فاعمل الآن وأمّن مستقبلك تأميناً حقيقياً، أنت تمتد إلى حياة برزخية ثم حياة أخروية، والأمر كان لابد فيه من نظر، إلاَّ وكيف تكون السلامة؟، كيف تكون النجاة غداً؟، أنا عندما أُريد أن أؤمن مستقبلاً تأميناً واهماً، بل هو في واقع الأمر تدميراً له ليست الحياة عبارة عن لحظات، بل ستمتد بك إلى حياة برزخية وإلى حياة أخروية، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين .

فلابد من عمل بطاعة الله لابد من تربية النفس والأمة على كتاب الله، وعلى سُنَّة رسول الله ، هذا هو الذي يؤمن مستقبل الأفراد والدول والمجتمعات، وإلاَّ فما قيمة اقتصاد قوي، ولكن بُني على ربا، بُني على كُفر وضلال، هذا نذير شؤم، هذا نذير دمار الدنيا، ستُدمر حتماً لا محالة، وإلاَّ فربك لما أهلك قوم لوط بهذه الهلكة وجعل عاليها سافلها، قال: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝ ﴾ (٣)، هذه الهلكة وهذا الدمار

(١) مريم (٤٠) .
(٢) الأعراف (٥٣) .
(٣) هود (٨٣).

يلحق بمن عمل كعملهن، وكان على شاكلتهن لا تأمن زلزالاً يُدمر مليارات، ولا تأمين لفياضانات، لا تأمن الهلكة في العاجل قبل الآجل، ثم لعذاب الآخرة أشد، الواجب عليك أن تنظر بعين الاعتبار إلى ما جاء بكتاب الله، ما جاء في سُنَّة رسول الله ﷺ، ما الذي خلفه الأنبياء لأولادهم وهم أرحم الخلق بالخلق، وأعلم الناس بدين الله وأفقه الخلق في شرع الله، قال نبيُّ الله زكريا: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (١) ، هذه وراثة صلاح، وراثة دعوة، وراثة قيام بالحق في الخلق .

لم تكن مواريثهم أموالاً، وإلاَّ فالأنبياء لا يورثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما يورثون العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر، هل ربيت أولادك على علم نافع، كيف حفظ هؤلاء الأفاضل، ربيعة الرأي كيف حفظ، انطلق والده في الغزو أكثر من عشرين سنة، وأمه حاملاً به، ربّته أمه أنفقت عليه (٣٠) ألف درهم حتَّى صار عالمًا من أكابر علماء الأمة يُشار له بالبنان، يحضر مجلس الإمام مالك وغيره، يتتلمذ ويتعلم منه ، هل كان له أب؟ هل أُمِّنَ مستقبله؟ كانوا فقهاء في دين الله .

كيف أُمِّن مستقبل سفيان الثوري – رحمة الله عليه – ربّته أمه كانت تقول له اطلب العلم، تزوده بالنصائح، يا ليتنا ربَّينا أولادنا تربية شرعية، دمرناهم عندما ربيناهم تربية مادية، كن طبيبًا، كن مهندسًا، حتَّى تنفع نفسك، ولم نكلف أنفسنا أن نقول لهم : صلِّ ، صمْ ، اطلب القرآن، تفقَّه في دين الله، حتَّى تنفع نفسك، صارت الحياة مادية معكوسة على مثل هذا النحو، وأبناء كبر سنهم سيربون أبناءهم على نظرة مادية، والواحد يطيش عقله، لو رسب ابنه في الامتحان، لو تخلَّف عن المذاكرة يومًا، بل هو لو ترك هذا الولد للصلاة سيقول بكل دبلوماسية كل إنسان مُعلق من عرقوبه، ولا يبالي بترك ابنه للصلاة، نظرات مادية تدميرية دمرنا بها الحاضر والمستقبل، بزعم تأمين الأولاد، والرفق والشفقة عليهم كان من الواجب علينا الرفق والشفقة الحقيقية، انظر لوالدة سفيان الثوري كانت تقول له: انظر لكل مسألة لم تزداد بها خشية فاعلم أنها تضرك ولا تفيدك .

---

(١) مريم (٦) .

كان هذا هو شأن تربية الصلاح؛ لذلك كانوا هم السادة والقادة رضوان الله عليهم أجمعين قادوا الدنيا بشرع الله، بعلم نافع بعمل صالح، وكان تأمين المستقبل الحقيقي، كانوا يتخوفون على أنفسهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ الواحد منهم لتقواه ولخوفه من الله يقول: يا ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسيًا منسيًا، هذا هو تخوف الصالحين، وليس التخوف على الدنيا وعلى زوالها كانت أهون في أعينهم من التراب، إقدامها وإحجامها، استوى عند هؤلاء الأفاضل، ولكن انعكست المسألة في هذا الجيل المادي صار الدرهم والدينار هو حياته يضيع المنصب فيضيع مستقبله، أو هكذا نعبر فلان ضاع مستقبله لماذا؟ لأنه خسر الصفقة، لأنه خسر المال، لأنه افتقد المنصب، هل تعبرنا بمثل هذا التعبير على من دخل خمّارة، على من تعامل تعاملاً ربويًا، لا يمكن أن تسمع مثل هذا التعبير.

ما الذي تركه أبو بكر لأولاده، تصدق بكل ماله، صفّى تجارته، وتصدّق بها في يوم واحد، ولما روجع في ذلك، وقيل له: ما تركت لأولادك قال: تركت لهم الله ورسوله، ما ضاع أبو بكر، وما ضاع أولاده ـ رضوان الله عليهم ـ.

وعمر رضي الله عنه يرفض أن يتولى ابنه الإمارة من بعده ولو تولاه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لكان للإمارة خليقًا، ولكن يرفض عمر بن الخطاب هكذا كانوا ينظرون، ما نظروا للدنيا على أنها مغانم، ما نظروا للإمارات على أنها مغانم توزع، بل نظروا إليها على أنها تكليفات كانا يعلمون أنهم سيقفون بين يدي من لا تخفى عليه خافية، أرادوا تأمين المستقبل بحق، وبصدق طلبوا الأمان الحقيقي، وإلاّ فالموت في رقابكم والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله في كل يوم وليلة.

لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحًا، وإنّ أمر هذا الموت آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وإن أمر هذا الموت أوله لحقيق أن يخاف آخره، ولأن تصحب أقوامًا يُخوفونك حتّى تُدرك أمنا خير لك أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتّى تدركك المخاوف، فالأمان الحقيقي في العمل بطاعة الله في إسلام الوجه لله قبل أن يأتي يوم لا مرد له

من الله، القليل سيبارك فيه، الولد الفقير سيبارك فيه، وإن عملت أنت بطاعة الله ، إن استقمت معه على كتاب الله، وسُنّة رسول الله ﷺ هذه المقدمات هي التي يسعك العمل بها لابد من استقامة على كتاب ربنا وعلى سُنّة نبينا، وإلاّ فقد كان عمر بن عبد العزيز يتعجب من ثلاث : من طالب دنيا والموت يطلبه، وضاحك ملء فيه، ولا يدري أرضى ربه أم أسخطه، ومن غافل ليس بمغفول عنه.

والموت يطلب كل حي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١) ، فلابد من عمل واستعداد للقاء الله لابد من إحسان المسير إلى الله، فأنت بحاجة إلى حسنة لثقل الميزان لتسبيحة لاستغفارة لركعة، هذه هي شهوة الصالحين من عباد الله، يشتهون ليلة شديدة البرد، ليلة شتاء طويلة يحيون ما بين طرفيها، يشتهون يومًا شديد الحر يصومونه لله، تغيّرت الشهوات، وتبدّلت وصار حالنا على النحو الذي ترونه، اجتمعت أراذل الدنيا علينا ولا سبب لذلك إلاّ البعد عن منهج الله، إلاّ التخلي عن أمر الله، دمّرنا حاضرنا ومستقبلنا لما تخلفنا عما كان عليه سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

صعد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق: ألا تستمعون من أخ ناصح لكم، كان من قبلكم يجمعون كثيرًا ويبنون شديدًا، ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا.

لابد من رفق بالخلق والنفس، لابد من صحو متأكد في العمل بطاعة الله في إقامة الدنيا على أساس من دين الله، هذا هو الذي سيحفظ حاضرنا ومستقبلنا، وخلاف ذلك ما هو إلاّ سراب يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب.

نسأل الله ـ جلّ وعلا ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعته، ويذل فيه أهل معصيته، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، اللهم إنّا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم دبّر لنا فإنّا لا نحسن

(١) آل عمران (١٨٥) .

التدبير، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فأذله بنفسه واجعل كيده في نحره، واجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، رب انصرنا ولا تنصر علينا، وأعنا ولا تعن علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، وانصرنا على من بغى علينا، واهدنا ويسّر الهدى لنا، اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً ودينًا قيّما وشفاءً من كل داء، ونعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب له.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين.



كلمة بعد الصلاة
من خطبة تأمين المستقبل

بسم الله، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

من جملة الأخبار المثيرة والتي تحتاج تعليق الخبر أن العالم يقترب من نهايته، وأن نهاية العالم في غضون خمسين عامًا، ستنتهي الدنيا، وهذا البحث بحث أمريكي أيضاً كما ذكرنا وعلقنا على ضوء وكالة ناسا في الأسبوع الماضي بأن الدنيا مظلمة إلاّ نقطتين: مكة والمدينة، نفس القضية بحث أمريكي أن نهاية العالم في غضون خمسين عامًا، وأبحاث أُجريت.

هذه الأبحاث استمرت أكثر من عشر سنوات تناقلتها وتخوفت منها الدوائر الغربية هنا وهناك، والبحث مفاده أن الكواكب والنيازك المدمرة تقترب من الأرض بسرعة شديدة من الأرض، وأن الغلاف المعتم حول الأرض هو الآخر، بدأ في الحركة بعد سكونه منذ بلايين السنين الضوئية، بدأ في الحركة في هذه الآونة، الأمر الذي ينذر بخطر كبير وأنّ نسبة الأكسجين ستقل علميًا، هذا عصر العلوم عصر التمدن والتحضر، عصر (١+١ = ٢) .

وبالتالي لما تأتي معلومة من أمريكا تقول هي المعلومة الثابتة واليقينية، انظر نسبة الأكسجين ستقل وهذا الذي يعبرون به وبالتالي الآلاف سيموتون بسبب الاختناق، وأن أمراضًا فتّاكة ستنتشر تتضاءل أمامها، مثل وباء الإيدز، وغير ذلك من الأوبئة التي لم يعرفوا لها علاجًا حتّى اليوم، أوبئة فتّاكة ستنتشر نتيجة التغيرات المناخية، وأنّ شلالات مياه سمائية، انهمار مطرى، لكن المطر الذي تشاهده أنت الآن وتقول المطر شديد جداً ، ولم يحدث من قبل منذ (٢٥) عامًا، العبارة التقليدية التي تسمعها كل سنة هذه شلالات سمائية، انهمار مطري جارف على الأرض.

وأيضًا أن من جملة المخاطر أنّ المخزون النووى، انظر البعض يطلب الأمان، المسألة تتطلب حديثًا طويلاً، للأسف الشديد!! ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ (١)، الأمن كيف يطلب؟، بطاعة الله، بالاستقامة على أمر الله، بإعمال معاني الإيمان، كيف تحقق الأمن في البلد الحرام ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (٢).

الأمان يطلب من الله ، وما عند الله لا تناله إلاَّ بطاعتك له، ونحن نكون جاحدين لما ندمر مستقبلنا بنسيان الماضى، حتّى الماضي والحاضر والمستقبل، تقول: حلقات متصلة لا يمكن تأمين المستقبل إلاَّ بالعمل بماضيه، وماضينا مشرق، والماضي بدأ بنبي مكلم، بنبي الله آدم، وواحد يقول: نريد أن نؤمن المستقبل، إذن ننسى الماضي، لا يسعنا أبدًا أن ننسى الماضى، تاريخ أمة هي خير أمة أُخرجت للناس، لا يسعنا أن نؤمّن المستقبل بنسيان طريق الأنبياء والمرسلين، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدوا، لا يمكن أبدًا تأمين المستقبل بمعصية الله، لابد من عمل بأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

المخزون النووي يُشكل خطرًا؛ لأنه بين الغرق وبين عدم إحسان استخدامه ستنتشر الإشعاعات النووية التي تهدد البشرية، مخاطر كبيرة انطوى عليها هذا البحث.

وهذا هو مجمل البحث ولنا عليه عدّة تعليقات، من جملة هذه التعليقات، فلو كانت نهاية العالم حتى لو توافقت في غضون خمسين عامًا، فما الذي أعددناه لذلك؟ سؤال مطروح.

أسلمنا وجوهنا لله؟ أتركنا الظلم والبغي والعدوان؟ تركنا الكفر والباطل والضلال؟ هذه مصيبة بشرية، هذه انتكاسة عقل، قبل أن تكون انتكاسة حسابات، وإلاَّ فما شأن من علم بدنو شأنه، يظل في العربدة، يظل في الخمّارة، يفيق ينيب إلى الله، يتوب إلى الله؟ انظر يبيض صفحه، وأنت الذي تقول نهاية العالم، وحياتك الدنيا ، هي

(١) الأنعام (٨٢).
(٢) العنكبوت (٦٧) .

كل همّك، ومبلغ علمك، فإذا كانت نهاية العالم في غضون خمسين عامًا، فلا أتردد أبدًا في أن أدين بدين الله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (١)، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ (٢).

وفي الحديث الذي رواه مسلم، يقول رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به، إلاّ وكان من أصحاب النار»**.

فلابد من أن أُسلم الوجه لله، وخصوصًا والأجل قريب، والدنيا ستنتهي كما تُعبر أنت، كما تقول أنت لا كما أقول أنا، الدنيا ستنتهي في غضون خمسين عامًا، هذه النهاية التي يرونها محتومة، والبشرية كما يعبرون تقترب من نهايتها، والله قد تكون أنت بنيت النتيجة على مقدمة، وحتّى لو وافقتك أنت عليها، لو كنت مؤمنًا، والمسألة لا تحتمل حتّى المقدمات المأسوية، أمراض فتّاكة، وانهمار مطري وإشعاع نووى، واقتراب نيازك، والغلاف المعتم صار يتحرك، وبنيت أنت النتيجة على مقدمتك هذه، أن أقول لك: المسألة في كل وقت لا تحتمل حتّى مقدمتك هذه أبدًا لا تأمن، وإلاّ فأنت قد تستدرج حتّى مع بدو الخيرات والبركات في الأفق لا مع بدو آثار الدمار، ومقدمات الدمار.

انظر في قوم عاد يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ (٣)، استبشروا ريح ستأتي بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (٤)، ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ (٥)، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ

(١) آل عمران (١٩).
(٢) آل عمران (٨٥).
(٣) الأحقاف (٢٤).
(٤) الأحقاف (٢٤، ٢٥).
(٥) هود (١٠٢).

إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١) ، فلو أضفت هذه لتلك، وقلت آثار الدمار بادية، والعالم على وشك النهاية، وانضافت هذه من عندك أنت؛ فاعمل عمل رجل لا ينجيه إلاَّ عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلاَّ ما كتب له، تأتيك المنية وينتهي العالم، وأنت على طاعة الله، وأنت تعمل بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، وإنما الأعمال بالخواتيم، وإلاَّ فربك قدير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢)، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٣)، حالة أمن، حالة استقرار ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٤)، وخصوصاً لما نكون عصاة، ظلمة، كفرة، تبجح، وغطرسة وكبر ونحو ذلك، لا داعي لذلك، الموت قريب، وربك قدير سبحانه، يُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٥) .

وهذه مسألة، ومسألة ثالثة أن تحديد وقت قيام الساعة لا يعلمه إلاَّ الله، اختص ربنا تبارك وتعالى به ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (٦)، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٧) .

بل الأنبياء والرسل لا يعلمون توقيتها، بل الملائكة الأبرار لا يعلمون توقيتها، أو متى ستقوم الساعة؛ لذلك لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الساعة قال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»** أنا وأنت سواء، نجهل توقيتها .

---

(١) القلم (٤٤، ٤٥) .
(٢) يس (٨٢).
(٣) الأعراف (٩٧) .
(٤) الأعراف (٩٨ ، ٩٩) .
(٥) هود (١٠٢) .
(٦) لقمان (٣٤) .
(٧) النازعات (٤٢ – ٤٤) .

لما تذكروا أمر الساعة ليلة أُسري بالنَّبيِّ ﷺ ردوا أمرها لنبي الله إبراهيم قال: «**لا علم لي بها**» ردوا أمرها لموسى قال: «**لا علم لي بها ردوا أمرها إلى عيسى عليه السلام**» قال: «**فيما أوحي إليَّ أنَّ الدجال يخرج، وأنزل من السماء**» أخبر بماذا؟ بأنه علامة من علامات الساعة الكبري، ما أخبر بتوقيتها، لا أخبر بما يعمله، وأنه علامة من علامان الساعة العشر الكبري، سينزل قرب قيام الساعة، وتكون هلكت يأجوج ومأجوج، والدجال على يد المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فتوقيت قيام الساعة لا يعلمه إلاَّ الله، الذي نعلمه أمارات وعلامات صغرى وكبرى.

والساعة لن تقوم حتَّى تستوفى جميع الأمارات وجميع العلامات، فأخطأ من قال: أن نهاية العالم في غضون خمسين عامًا، كلام كله تسمعه وتطرحه لا قيمة فيه، لا يصح أبدًا التحديد، نحن نتكلم بما جاء في كتاب الله، وما جاء في سنَّة رسول الله ﷺ، الساعة لن تقوم حتَّى تستوفى جميع الأمارات وجميع العلامات، والقرب المذكور في كتاب الله هو قرب نسبي ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾ (١)، هذا قرب نسبي بما عند الله، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ㊼﴾ (٢).

فأمارات لم تحدث بعد، ولن تقوم الساعة حتَّى تستوفى كل هذه الأمارات، خروج المهدي، نزول المسيح من السماء، خروج الدجال، ظهور يأجوج ومأجوج، علامات كبرى، انظر خراب، حتَّى الكعبة والمدينة ونحو ذلك، خروج الريح، ظهور الدابة، تخرج على الناس ضُحىً تكلمهم، طلوع الشمس من مغربها، خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف جزيرة العرب، عودة بلاد العرب مروجًا وأنهارًا، انحسار الفرات عن جبل من ذهب، علامات كثيرة جدًا، وبداية العلامات الكبرى ـ والبعض ظنَّ أنَّ كل العلامات الصغرى ظهرت، ولما يبقى إلاَّ العلامات الكبرى والتي تتخللها من أمارات ـ وبداية العلامات العشر الكبرى، ظهور المهدي، ونحن نترك الواقع يُفسر لنا العلامات والأمارات ستخرج وتظهر وفق خبر الصادق المصدوق ـ صلوات الله

(١) الأنبياء (١).
(٢) الحج (٤٧).

وسلامه عليه ـ، فكون انهمار مطري، وكون إشعاع نووي واقتراب نيازك، فتبحث في ذلك كله، والله إن كان فيه قدر مفيد، فهو أن أستعد في لحظتي هذه أنظر مع ظهور هذه العلامات أو عدم ظهورها أستعد ، الأعرابي أتى للرسول ﷺ وقال له بصوت جهوري: يا محمد، متى الساعة؟ فأجابه النّبيُّ ﷺ بنحو من صوته وقال له: **«هاؤم، إنّ الساعة لآتية، فماذا أعددت لها»** .

هذا هو القدر النافع المفيد بالبحث الأمريكي وبغير البحث ماذا أعددنا لها؟ خير عدة هي عدّة الإيمان والتقوي، انظر لابد من تقوى الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴿١٩٧﴾ ﴾ (١) ، والله متُّ أنا الأن ومن لم تقم عليه الساعة، ولم يعش الخمسين سنة، ويشاهد الانهمار المطرى، حتّى لو حدثت هذه الأشياء، انظر أنا سأموت الآن، ألقى ربي علي عملي الصالح، وإنما الأعمال بالخواتيم، ماذا هو المطلوب؟ العمل بطاعة الوقت، هذا الخبر ينطوي على معنىً آخر تكلم الخلق وهو أنّ الدنيا ستعود بدائية، وهذا هو الذي ذكروه ضمن البحث أنّ البشرية ستعود إلى حالة من البدائية مرة ثانية، انظر هذا كلام طبعًا، يتخوفون هم في أمريكا أن أمريكا (٨٠٪) منها ستغرق في الأطلنطى، هذا هو بحثهم الذي يقولون أن (٨٠٪) من أمريكا سيغرقها الأطلنطى.

إن أمن مكان بالنسبة للأشياء التي ستأتي هذه المنطقة، انظر لما تقرأ البحث تقول سبحان الله! والله تزداد أنت إيمانًا على إيمانك، ويقينًا على يقينك، حتّى وإن لم تتفقه في دين الله، يعني الخبر الذي سمعته، والدنيا علمية تطورية اليوم، والكل ينبهر، تسمع خبر، انظر يقين عندك ما أنت سمعت أن الدنيا كلها مظلمة ما عدا مكة والمدينة، أسلم، أسلم، عليك بطاعة الله، ما الذي تنتظره؟! اعمل بالوحي المنزّل، نوّرت مكة والمدينة وسط دنيا مظلمة على رأي الولد الصغير يقول لأمه: يا أمي نحن نعيش في الظلمة لا يمكن أبدًا أن تستنير إلاّ بوحي الله، إلاّ بالاستقامة، والأسبوع هذا تسمع الخبر الآخر أن الدنيا سترجع بدائية.

---

(١) البقرة (١٩٧) .

لما تقرأ في أخبار وأمارات وعلامات الساعة، تنظر، تقول: سبحان الله! مثلاً الكعبة يخلبها ذو السويقتين بمسجاته، هو الذي ينقضها حجراً حجراً كما قال النبيُّ ﷺ، هذا من آخر الأخبار التي ستحدث قرب قيام الساعة ، انظر بمسجاته، ولماذا؟! ألا يوجد قنبلة يدوية أو مدفع يدكها؟! لا أبداً سيخلبها ذو السويقتين، الأمر الذي يدلك على أنَّ البشرية يومئذ بدائية، تقرأ في أخبار يأجوج ومأجوج يرمون بنشابهم إلى السماء، وتعود مخضبة بالدماء فيقولون قتلنا وقهرنا أهل الأرض، هلم فلنقهر أهل السماء، فيرمون بنشابهم، سبحان الله، وأين البنادق والمسدسات المتطورة؟ لِمَ لا يضرب الفرد بمسدسه، بمدفع رشاش للسماء ـ مثلاً ـ؟ ما هذا؟!، سيرمي بنشابه هذا يدل على حالة بدائية .

العلماء لما نظروا في نصوص الشريعة، لم تكن النظرة نظرة حفظ فحسب، لا نظرات تفقه، تدبر في كل كلمة وعلى ضوء ذلك يكون استنباط الأحكام، فلما نظروا وجدوا أن يأجوج ومأجوج سيرمون بنشابهم إلى السماء، فهذه صورة تدل على حالة بدائية في قتال الروم وجند النبيِّ ﷺ والحديث يرويه ابن مسعود أن النَّبيَّ ﷺ فيما ذكر أنَّ المسلمين يرسلون بخير فوارسهم يومئذ، انظر بعشرة فوارس يقول: «إني لأعلم أسماءهم وألوان خيولهم» ألوان خيولهم، سبحان الله! لما هو الحرب مع الروم في آخر الزمان ستتم على الخيول وتتم بالسيوف وأين الدبابات؟ وأين الطائرات النفاسة؟ وأين الصواريخ عابرات القارات؟ أين التكنولوجيا؟، لا وجود لها، الحرب مع الروم تتم على الخيول وبالسيوف، الأمر الذي يدلك على أن المسألة ستعود بدائية مرة ثانية.

أتى التعليل كيف تعود الأرض بدائية ونحن نرى هذا التقدم التكنولوجي العصري الذي نعيشه؟ أين سيذهب؟ البعض حلل، وقال: لربما ينضب سلاح البترول تعود الدبابات (خردة)؛ لأن الدبابات والطائرات تريد البترول، فلما يجف البترول تعود الطائرات والدبابات خردة، ولذلك تعود الحرب بدائية، وهذا تفسير.

وتفسير آخر ذكره البعض، قال: لربما تقوم حرب نووية مدمرة، وقنبلة صغيرة على

هيروشيما ونجازاكي دمرت الدنيا، قنبلة صغيرة متخلفة على قدر هذا الوقت، ما بال لو قنبلة نووية اليوم، متطورة كم ستمحق؟، لو كذا قنبلة أُلقيت ما الذي سيكون عليه الحال؟ قالوا لربما: تدمير نووي يحدث تعود بعده البشرية بدائية، ويُضاف لهذا لا يصح لك أن تحدد حتّى لو تكلمت كلمة بترول وكلمة حرب نووية، قل: الله أعلم، على الأقل فوّض العلم لله؛ فإنها مسائل غيبية، ولا يعلم الغيب إلاّ الله ـ تبارك وتعالى ـ، لا داعي للجرأة ولا داعي للاجتراء على مثل هذا النحو.

انظر نحن نترك الواقع يُفسر لنا الأمارات والعلامات ستحدث وفق خبر الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، انظر قد يضاف هذا البحث لو ثبت أنه صحّ ما هو تفسير آخر أنّ النيازك والكواكب تنطلق بسرعة النيازك المدمرة بسرعة تجاه الأرض ـ تدمير ـ تعود بعده البشرية بدائية، ممكن وارد لما لا؟، كلها احتمالات، وعلم ذلك عند الله، وأن الغلاف المعتم حول الأرض الساكن منذ بلايين السنين الضوئية صار متحركًا الآن، الأمر الذي ينذر بخطر كبير جداً، والله قد يكون هذا السبب أو غيره، علم ذلك عند الله، ولكن المتيقن أنّ ما أخبر عنه الصادق المصدوق سيحدث، انظر هذا الذي هو نستيقن لهذا السبب أو لغيره، سيحدث ما أخبر عنه نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كيف نأمن؟، والله لا سبيل إلاّ بالعمل بطاعة الله، إلاّ بالاستقامة على دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، وإلاّ فالبلاء يتنزّل بالمسلم والكافر، يكون للمسلم نعمة، ويكون للكافر نقمة.

محتاجون للعمل بطاعة الله، وهذا الحديث يجرنا ويجركم أيضًا لمسألة البعض كداعٍ إلى الله أحيانًا [illegible] ـنًا يتخوف على دعوته، يريد أن يؤمن مستقبل الدعوة، لا بأس، حرص مطلوب في موضعه، ولكن ما السبيل؟ فالسبيل هو العمل بطاعة الله، هو أن ننهج منهج سلفنا الصالح، أن نقول بلساننا: كل خيرٍ في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

انظر لا داعي للتغيير ولا للتبديل، وإلا فالبعض يزعم تأمين مستقبل دعوته، شرع

يغير ويبدل، يعمل بالخبرة، يقدم الخبرة على الشرع، هذا مرفوض أن تقدم خبرتك على دين الله، لا يجوز أن تبتدع وتخترع، لا يصح أن تمارس الطغاة والطواغيت على حساب دعوتك، هذا ما يحل أن تغير منهجك هذا، أخطر وأشد نكاية أن تُغير منهجك بزعم تأمين مستقبل الدعوة، فبعد ما كان الإسلام هو الحل، تصير الديمقراطية هي الحل، يصير إطلاق نطاق الحريات هو الحل، ما علاقتك أنت بالحريات؟ سيارات تنطلق أشبه بسيارات بدون فرامل، ما علاقتك والحرية؟ الحرية هذه نظام غربي، ما نحتمله، نظام يتصادم مع شرع الله، حرية تملك، تتم بالربا، توافق عليها، حرية فكر وتعبير، إنسان يكفر يرتد على عقبيه قهقراً بزعم أنها حرية شخصية، حرية تعبير، حرية رأي تقبلها؟!، لماذا تهذى بكلمات لا تفهمها؟.

لا داعي؛ هذه مناهج لها أهلها حتّى لو تكلمت بالكلمة المجملة، حتّى ولو لم تتعرف على تفاصيلها، قدّم الكتاب والسُّنّة، قل ذلك واكتفي حتّى وإن تتفقه لا في اقتصاد إسلامي، ولا في سياسة إسلامية، اكتفي بالكلمة المجملة، أما مجازات البشر، فيقولوا حرية شخصية بمقتضاها الإنسان يزني ويزنى به، ومن يعترض يُطرد، حرية شخصية، هل توافق عليها؟ بل الإقرار هو سيد الأدلة، الاعتراف هو سيد الأدلة في القانون الوضعي، لا جرم لو زنا الولد بالبنت، حتّى لو قالت هو فعل كذا، وهذب هو وقال برضاها، انظر، وقد علم أنه برضاها «براءة» حتى لو اعترف على نفسه، هل هذا نُقرُّ به، نوافق عليه؟ لا، الاعتراف، وكيف تم إقامة الحد على ماعز والغامدية بالإكراه، ليس أكثر من الإكراه، لم يحدث شهادة شهود.

انظر الديمقراطية والرأي للأغلبية، فماذا لو الرأي للأغلبية تصادم مع شرع الله؟ توافق عليه؟ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [(1)]، لا تغير جلدك، وهو لو سُئل – للأسف الشديد – التعبيرات سهلة أريد أن أُأمن مستقبل الدعوة، تُأمن مستقل الدعوة بمعصية الله، بالابتداع، بالاختراع، بترك ما كان عليه النّبي ﷺ وصحابته

(1) يوسف (٤٠).

الكرام، أي تأمين هذا؟!، أنت تُدمر الدعوة، نسمي الأشياء باسمها، وإلاَّ فالبعض سيشرب الخمر ويسميها مشروبات روحية، يسميها بغير اسمها، هذا تزييف لا يُقبل، العملة الزائفة لا تروج على الله، احفظ نفسك، والله تريد أن تحفظ دعوتك، أن تحفظ أولادك، أن تحفظ بلدك بطاعة الله، احفظ الله يحفظك بالعمل بدين الله، وأن تعلم أنّ الله يحفظ دينه، وهذا الدين هو دين الله، والله غالب على أمره .

﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ (١) ، احفظ نفسك بإقامة الحق دون تغيير أو تبديل ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (٢) .

نسأل الله جلّ وعلا أن ينفعنا وإياكم بما نقول ونسمع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الصف (٨) .
(٢) يونس (١٥) .

أحسنوا المسير إلى الله

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ (٣) .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

عباد الله، ربكم ـ جل في علاه ـ كل يوم هو في شأن، يخفض أقوامًا، ويرفع آخرين، يؤتي المُلك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويُذل من يشاء، هو سبحانه القدير بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بظلام للعبيد، هو القدير سبحانه ـ جل في علاه ـ، القلوب له مفضية، وما ينبغي على الخلائق إلاَّ أن تتعلق بخالق الأرض والسماوات، بالله جلّ وعلا، الذي بيده الأمر كله، ما ينبغي أن تُنيب لمخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً، والواجب علينا أن نقرأ سُنن الله ـ تبارك وتعالى ـ في خلقه، وإلاَّ فهذا التغيير، وهذا التبديل الذي نراه بأعيننا، ما من يوم يمر علينا إلاَّ ونرى هاذلة فاجعة، هذا العزيز

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١) .

قد صار ذليلاً، هذه الأمة التي تطاولت وطغت قد اندثر أمرها، وإلاَّ فانظر، فانظروا، انظروا أين عاد التي تطاولت، والتي بغت، والتي ادعت أنهم لا أشد منهم قوة؟، أين هم الآن، وأين ثمود الذين جابوا الصخر بالواد؟، وأين فرعون ذي الأوتاد ﴿ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)** ﴾ [(١)] ؟.

هذا الغني قد صار فقيراً لابد وأن نقرأ حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأن نعي عن الله ـ جل وعلا ـ أمره في خلقه، ستزداد إيماناً على إيمانك ويقيناً على يقينك، وإلاَّ فقد قال الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**لم يأتِ على الناس زمان إلاَّ والذي بعده شرٌّ منه حتَّى تلقوا ربكم**» ومن هنا قال معاوية ـ رضوان الله عليه ـ: «نحن في زمن أو معروف زماننا يندر».

وقال البعض : «نحن في زمن إذا ذُكر فيه الموت، حيت القلوب، وإذا ذكر فيه الأحياء ماتت القلوب» .

ولِمَ لا ؟ وإلاَّ فانظر لشأنك ولحالك إذا ما تذكَّرت سلفك الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كيف أظمئوا نهارهم وأسهروا ليلهم، وكانوا ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)** ﴾ [(٢)] ، هم قوم إذا ذُكروا حيت القلوب، وأنت الآن تذكر الأحياء ما بين مغنيًا وراقصًا وممثلا، إذا ما ذكروا ماتت القلوب، لا تكاد تجد إلاَّ مختالاً في بغيه، عتل في نفاقه وكفره وضلاله، إذا ما ذكروا وهؤلاء هم المشاهير إذا ما ذكروا ماتت القلوب.

قال البعض: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلاَّ إدباراً، ولا يزداد الشرُّ فيه إلاَّ إقبالاً، وإذا ما رميت بطرفة لم تجد إلاَّ فقيراً يكابد فقره أو يعاني طرفًا، وهذه هي حياته، وغنيًا قد بدل نعمة الله كفراً ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)** ﴾ [(٣)] .

---

(١) الفجر (١١ – ١٤) .
(٢) الذاريات (١٧، ١٨) .
(٣) إبراهيم (٢٨، ٢٩) .

ثم الشياطين لا تزداد إلاَّ طمعًا في إهلاك الخلق، وفي إهلاك العباد، هل رأيت خلاف ذلك؟، قالوا: «إذا ما أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير» أنت وكأنك تتلمس الخيرات والبركات فلا تجد إلاَّ الشرور، غربة حال وانحراف أوضاع، وقلَّ من يعين على طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولذلك تتبدل الأحوال وتتغير إذا ما تبدَّلت الأحوال وتغيرت، تعرفت على معادن الرجال، الذي سيثبت على طاعة ربه، ومن الذي سينقلب على عقبيه القهقري، كل ذلك ستجده وتراه بعينك، وقد عناه الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: **«لا يأتي على الناس زمان إلاَّ والذي بعده شر منه»** .

فكان الواجب أن نعتصم بحبل الله المتين، وبذكره الحكيم، وبصراطه المستقيم، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١) ، ليس لك أن تميل مع من مال، ولا أن تنحرف مع من انحرف، فلابدَّ من عودة صادقة لكتاب الله ـ تعالى ـ، ولسُنَّة رسول الله ﷺ، وأن تعي عن الله أمره وإلاَّ فتقلُّب الدهر بأهله سُنَّة ماضية، إذا ما نظرت حولك ستجد الكثير والكثير، النَّبي ﷺ كانت ناقته العضباء لا تُسبق، فأتى أعرابيًا على قاعود فسبق ناقة رسول الله ﷺ حتَّى عرفه ذلك في وجوه أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: **«إن حقًا على الله ما ارتفع شيئًا من الأرض إلاَّ وضعه الله»**.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢) ، ما ارتفع شيء من الأرض إلاَّ وضعه الله، ولذلك بكى عمر بن الخطاب حين نزل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) ، بكى عمر بن الخطاب ولما سُئل عن سبب ذلك قال: ما اكتمل شيء إلاَّ دخله النقصان.

هي السُّنن لابد وأن نعي عن الله تبارك وتعالى أن أمره لابد، وأن نقرأ السُّنن

(١) آل عمران (١٠١) .
(٢) طه (١٠٥ – ١٠٧) .
(٣) المائدة (٣) .

الشرعية، والسُّنن الكونية، وأن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس، ما ارتفع شيء من الأرض سواء كان حاكمًا أو زعيمًا مطاعًا أو صاحب سلطان، ولكن الغباء في الانحراف عن منهج الله في أن نتوجه بقلوبنا لضعاف فقراء لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضراً.

كان الواجب علينا أن نُخلص العبودية لخالق الأرض والسموات، وأن نعلم أنَّ كل من فوق التراب تُراب، وأذهلك مما نُسب لرابعة أنها كانت تُنشد وتقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت بيني وبينك عامراً ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الود فالكل هينًا ... ولك من فوق التراب تراب

وميت يعبد ميتًا، ويتوجه إلى ميت، وفقيراً يلتمس النفع من فقير وربك تبارك وتعالى هو الغنيُّ الحميد، سفهت العقول، وضلَّت الأفهام، فعندما انحرفنا عن منهج ربنا، عندما ألّهنا هؤلاء الفقراء، هؤلاء الموتى، فعندما اتخذناهم آلهة من دون الله، وانصرفنا عن منهج ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كان الواجب علينا أن نقرأ الأمور على حقيقتها، وإلاَّ فالدهر يتقلب بأهله، كان ذا القلاع الحميري زعيمًا مطاعًا سيداً وسط قومه، أشرف إشرافًا من كوة في قصره، فسجد له كل من حول القصر، ثم رؤيَ بعد ذلك يركب دابة ويشتري حماراً بدرهمًا، هل هذا فعل الملوك، هذا شأنه يتقلب به الأمر يتغير به الحال على مثل هذا النحو.

كان عبد الرحمن بن زياد والي خراسان، ولما عدَّ ماله قال: لو عشتُ مئة سنة، وأنفقتُ كل يوم ألف درهم يكفيني ذلك. ثم رؤيَ هو بعد ذلك يبيع حلية مصحفه لكي يأكل به، كيف تغير الحال؟، ومازالت الصور ماثلة أمام أعيننا ، هذا يغدو يحسب الملايين، وأنه لو عاش مئة سنة، فإنه سيأكل كل يوم كذا وكذا وأنَّ أولاده وأحفاده سيغتنون من بعده، ثم لا تتعجب إن رأيته بعد ذلك يمد يده بسؤال يسأل الخلق قوت يومه.

والواجب علينا أن نعي وأن تتعلق قلوبنا بخالق الأرض والسماوات، وأن نُحسن

المسير إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، نقول روى أنّ داود ﷺ دخل غاراً فوجد فيه ميتاً وبجواره لوح مكتوب عليه: أنا فلان بن فلان الملك، عشتُ ألف سنة، وافتضضتُ ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وبنيتُ ألف مدينة، ثم آل أمري إلى أن بعثت زنديلاً بدراهم (أي امتلأ الزنديل بالدراهم) في رغيف، فلم أجد فبعثت زنديلاً مملوءاً بالجواهر في رغيف، لم أجده فاستفيتها (أي أكل الجواهر بعدما دقها) ومتُّ حيث أنا».

يقول: «فمن وجد رغيفاً، ورأى أن غيره أغنى منه مات ميتتي هذه»، وكأنها العظة وكأنها العبرة، هل من الممكن أن ننتقل من حياة القصور إلى حياة الحُفر والقبور؟، كلا ليس على الله بعزيز وربك ـ تبارك وتعالى ـ هو القدير، والواجب علينا أن نعرف عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمره وحكمته، وأن ننظر نظرة اتعاظ واعتبار في الكون من حولنا، حكى البعض أنه رأى رأس الحسن بيس يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأى رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأى رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأى رأس مصعب بين يدي أحد الخلفاء. يقول له سفيان: كم كانت المدة بين الأولى والآخرة؟ قال: اثنتى عشرة سنة.

رؤوس بين يدي البعض، فهل من متعظ؟، وهل من معتبر؟، اعمل ما شئت كما تدين تدان، البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا ينام، وستجد ما عملته إن لم يكن اليوم فغداً ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ (١).

قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد، وجلس على فراشه، فاطّلعت عبدة بنت مروان، فقالت له: يا إسماعيل إنّ دراً ملكك من مروان وجعلك تجلس على فراشه، قد أبلغ في موعظته، (أي انتبه لنفسك)، وإلاّ فما عملته في الخلق سيُعمل فيك، وربُّك ـ تبارك وتعالى ـ هو الحكم العدل ليس بظلام للعبيد، فقد ينتقم من ظالم بظالم كما قيل للإمام مالك رحمه الله، وكان يريد نصرة بعض الظلمة، فقال: دعهم ينتقم الله

(١) آل عمران (٣٠).

من ظالم بظالم، ثم لينتقم من كليهما». هي السُّنن لابد من قراءتها قراءة واعية، وإن الله ـ تعالى ـ لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم.

الواجب علينا أن نقرأ سُنن الله ـ تبارك وتعالى ـ في خلقه، وإلاَّ فتقلب الدهر بأهله من جملة المعاني المشاهدة، ولذلك لا ترتكب إلى حولاً ولا إلى طولاً، لا تعول على مال ولا على صحة ولا على جاه، ولا على سلطان، قالوا: عز الولاية لا يقاوم بذل العزل، والبعض سفيه الرأى، والبعض لا يحسن قراءة السنن، ينخدع بزخرف من الأمر لو قرأ الأمور، لو نفذ إلى الحقائق، لو أنه علم أنه على القرب سيرتحل، وأن ما يعمله سبلا فيه حتمًا لا محالة إن لم يتب إلى ربه لكان رادعًا وزاجراً له، لما ارتحل البعض من مكة إلى المدينة نظر إلى الأطلال، إلى البيوت التي كانت عامرة في وقت من الأوقات، فقال:

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يومًا ستُدركها النكباء والحول

فلا داع للشماتة، لا داعي للتطاول، ولا للبغي، لا داعي لأن تعول على نفس سترتحل حتمًا، ومال ليس بمالك على الحقيقة، والنفس إلى موت والمال إلى فوت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ (١)، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ (٢).

والخلائق تعود إلى ربها على النحو الذي وصفه الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «يُحشر الناس حفاة عراة غُرلا» وتلا قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ (٣)، كان علي بن أبي طالب يحلف بالله يقول: «وأيم الله ما انتقل قوم من غنىً إلى فقر إلاَّ بذنوب». وإلاَّ، فما ربك بظلام للعبيد، ولو أنهم انتقلوا إلى فقر فأنابوا إلى الله تبارك وتعالى لرد كل شارد، ولأصلح لكم كل فاسد.

(١) آل عمران (١٨٥).
(٢) مريم (٤٠).
(٣) الأنبياء (١٠٤).

فعادت الأمور إلى الطاعات وإلى المعاصي، من يعقل عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمره، ولو أنك انتقلت من غنى إلى فقر، من عز سلطان إلى وضاعة الحفر، لو أنك انتقلت من هذه إلى تلك فأنبت إلى الله وأخلصت العبودية لله طلبت مصحفًا وهرعت إلى الصلاة لكان في ذلك الخير كله، وإنما الأعمال بالخواتيم، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [١] .

الواجب على العبد حتّى وإن أسرف على نفسه في الذنب، حتّى وإن كفر وعصى ربه أن يُنيب إلى الله، أن يهرع إلى الله، أن يستغفر ربه ـ تبارك وتعالى ـ، سيجده توابًا رحيمًا، وإلاّ فالبعض أشبه بالعصيان، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [٢]، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾﴾ [٣].

فريق من الخلق ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [٤]، بل أنت لو شبهتهم بالأنعام لكنت أخطأت التشبيه، فريق من البشر لا يعي عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمره، سائر في غيّه، الحياة بالنسبة له كأس وغانية، شهوة يحصلها، إن هي إلاّ أرحام تدفع، وأرض تبلي، كما يحلو للملاحدة والزنادقة أن يقولوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [٥]، لا إيمان عندهم بالله ولا بصيرة لديهم، والفارق كبير بينك وبينهم، أنت عن الله ـ تبارك وتعالى ـ لابد من استصحاب سننه في قراءة الحوادث الفاجعة، وإلاّ ما من يوم يمر علينا إلاّ ونرى عزيز قوم ذلّ، ونرى غنيًا قد افتقر.

أمة قد ابتعدت وواراها التراب، كان لابد وأن نعي، وأن نُحسن المسير إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، وإلاّ ففي مسير العباد خلل، لو أحسنّا الأمر لأنزل فينا سبحانه وعده،

---

(١) البقرة (٤٥، ٤٦) .
(٢) الحج (٤٦) .
(٣) الإسراء (٧٢).
(٤) الأعراف (١٧٩).
(٥) الجاثية (٢٤) .

ووعده لا يتخلف عن عباده المؤمنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [١] .

نسأله جل في علاه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل أعيننا تُبصر هذه الحقائق، وأن يفتح آذاننا لسماع داعي الحق، سبحانه على ما يشاء قدير، وهو بالإجابة جدير هو حسبنا وحسبكم ونعم الوكيل.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

---

(١) النور (٥٥) .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلاَّ على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

عباد الله، الابتلاء سنَّة ماضية، ولكن تستعدي أنت البلاء بالانحراف عن منهج الله، ليس لك أن تتعلل وأن تقول الابتلاء هو سُنَّة الأنبياء هم أحسنوا المسير إلى ربهم، فلما ابتلوا كان منهم الصبر الجميل أما أنت عندما تعوج وعندما تنصرف عن منهج ربك، فيكون الابتلاء لا يسعك إلاَّ أن تستغفر ربك، وإلاَّ أن تُنيب إليه **«لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون»** .

أنت بحاجة لإعادة التقييم؛ لإعادة ضبط الأقوال والأفعال وفقًا لما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، وإلاَّ يُخشى منك أن تُكرر الخطأ مرة ثانية مُتعللاً أن الابتلاء هو سنة الأنبياء والمرسلين، ولا داعي للاعوجاج، لا داعي للانحراف، وإلاَّ فما نزل بلاءٌ إلاَّ بذنب، وما رُفع إلاَّ بتوبة، نحتاج لإحسان المسير إلى الله، وإذا ما استقمت وسُلك بك مسلك الابتلاء ومسلك البلاء فاعلم أنه قد سلك بك مسلك الأنبياء؛ لأن هذه هي حياة الأنبياء، **«وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، ويُبتلي المرء علي قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى الابتلاء»**.

كان أحد السلف يقول: «ما نزلت بي مصيبة، فاستعظمتها يوماً إلاَّ وتذكرت ذنبي فاستصغرتها»، يتذكر ذنوبه ومعاصيه، فاستصغر المصيبة التي نزلت به، وقالوا: «ويل أهون من ويلين»، وإلاَّ فأنت لو ضربت بطرفك يميناً ويساراً، لوجدت الابتلاء يعمل في العباد هنا وهناك، فمصيبتك أهون من مصيبة فلان وعلان، والواجب عليك أن تنتبه وأن تُحسن المسير إلى ربك، أن تحيا طاعة الوقت، تزوج مغنٍ بنائحة، فقالت: اللهم أوسع لنا في الرزق. دعت ربها وسمعها تدعو فقال لها: إنَّ الدنيا عبارة عن فرح

وحزن، ونحن قد أخذنا بطرفيها؛ لأنه مغنٍ وهي نائحة، أي أخذ بطرفي الدنيا، وهي عبارة عن فرح وحزن، قال: فإذا كان الفرح دعوني، وإذا ما كان الحزن دعوكي.

وانظر فيما هو أوسع من ذلك، وقد أخذ بطرفي الدنيا، بطرف الفرح، وبطرف الحزن، فأي رزق أوسع من ذلك، وأحيانًا المصائب والنكائب، وكأنها تبعث على الموعظة، على التذكرة، سمع أحد الحكماء أخًا له يدعو لأخيه يقول: ما أراك الله مكروه ، فقال: فكأنك دعوت عليّ بالموت، وإلاّ فما من صاحب دنيا إلاّ ويرى مكروهًا، وكأن هذا تحصيل لحاصل، ولذلك قالوا عن الدنيا وأنها لابد وأن تلاقيك بما تكره، فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء.

وقال سفيان بن عيينة عن الدنيا: «لن تجد فيها إلاّ الغموم، فإذا ما وجدت فيها سرورًا فهو ربح»، وكأن هذا هو الزائد على رأس المال، وإلاّ فالأصل فيها أن ترى الغموم، فوطّن نفسك على ذلك، هي دار ابتلاء ودار اختبار ودار امتحان، هذه هي حقيقتها، لابد وأن تستبصرها وأن تتعرف على طبيعة الغم والهم، وإذا ما ازدادت، وإذا ما تطاول أمره انحسر الدمع والبكاء، ولذلك لا تجد مجلود يبكي، ولا تجد من قدموه إلى ضرب العنق يبكى، وكأن الغم لما زاد إلى هذا المستوى وإلى هذا الحد انقطع البكاء، وانقطع الدمع، فالمسألة لابد لها من نهاية.

تعرّف على سنّته هذه الدنيا هذه طبيعتها ، والتعب كله الحياة، والعجب من راغب في ازدياد، والكل مبتلي، والكل ممتحن، والكل مختبر،فمن الواجب علينا أن نصبر الصبر الجميل، هذا هو المخرج من الفتنة، صبرٌ جميل أمر به نبيكم، ولم يكلف إلاّ ما كلف به أولوا العزم من الرسل ، قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (١) .

لابد من صبر تواجه به الابتلاءات، تمتنع به من لطم الخدود، وشق الجيوب، وأن تدعو بدعوى الجاهلية، تمتنع به من الانهيار، وكأنك كنت تسير في طريق مظلم،

(١) الأحقاف (٣٥) .

هذه هي الحياة، هذه هي طبيعتها، الأصل فيها أن تلقاك بما تكره، ووطن نفسك على العزم، وطّن نفسك على إقامة واجب العبودية في العسر واليسر، هذا شأن الكرام.

يقول حذيفة بن اليمان: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، في المنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلاَّ أن تروا كفراً بلا حق، عندكم من الله فيكم برهان».

فكانت مبايعتهم لرسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والبعض لا يعبد ربه إلاَّ وقت رخائه فقط، وهذا هو شأنه، وكان هو شأن أهل الجاهلية، أن ينيبوا إلى الله في وقت الشدة، وأنت مسلم تحسن المسير إلى الله في رخائك وشدتك، في عسرك ويسرك، في منشطك ومكرهك، وتعلم أن العسر سينتقل إلى يسر، وأن التعب سيتمخض عن راحة، وأن الضيق سينتقل بك إلى سعة، وإذا ما تناهت الشدة وتعاظم أثرها، تنزّلت الرحمة، والموفق من واجه البلاء بصبر، والشقي من جرى به القدر إلى وزر وإلى تعاسة، وإلى كآبة، كان الواجب علينا أن نصبر الصبر الجميل، إذا ما وجدت السنن من حولنا على مثل هذا النحو، الدهر يتقلب بأهله، فقدم الصبر على الصلاة، ثم أمرك سبحانه بالصبر ووضع نفسه مع الصابرين ولم يضع نفسه مع المصلين، قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ (١) وفي هذا ثناء على أهل الصبر، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ (٢).

وأن النصر مع الصبر، وعظم الثواب مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضا فله الرضا، ومن سخط فله السخط، فالواجب عليك أن تصر، وإذا ما أحب الله قومًا عجّل لهم البلاء، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه حتّى يوافي بذنبه إلى يوم القيامة.

فلا داعي للشماتة في فلان المُبتلى، أو هنا أو هناك، وإلاَّ فكان من تعوّذاته

(١) البقرة (١٥٣).
(٢) آل عمران (٢٠٠).

صلوات الله وسلامه عليه: «أعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء وشدة البلاء وشماتة الأعداء» فلا داعي لأن تفرح في بلوى أخيك، فيعافيه الله ويبتليك، لابد من صبر جميل نتأسى فيه بالأنبياء والمرسلين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (١)، كان نبي الله نوح يضرب حتّى يظنون به الموت يلفونه فإذا ما أفاق قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٢)، صبر واحتسب حتّى يلاقي ربه، أُمر بصنع السفينة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (٣)، وخوطب أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن، سيصنع السفينة على اليابسة، والأمر يتطلب صبراً.

قلة مؤمنة وسط غثاء، وسط كفر، يموج موج البحر، وعلى الرغم من ذلك غيروها بدلوها، بل هو الصبر الجميل، وهذا هو سمت الأنبياء والمرسلين هذا هو سمت أولوا العزم من الرسل، الذين أمر نبيكم أن يقتفي آثارهم نبي الله إبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهو يواجه النمرود يواجه قومه، حفروا له وأضرموا له النيران، قُذف فيها فكانت برداً وسلاماً عليه، يأتيه جبريل يقول له: ألك حاجة؟ قال: أمّا لك فلا، وأمّا إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل. فكانت النار برداً وسلاماً عليه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (٤)، صبر واحتسب عندما أُمر بذبح ابنه الوحيد، فامتثل أمر ربه ـ تبارك وتعالى ـ، في هجرته، في حله وترحاله، في حركاته وسكناته، فكان صابراً محتسب الأجر عند الله.

نبيّ الله يعقوب عندما أخذ أولاده يوسف وألقوه في غيابت الجب، فرفع شكواه إلى خالق الأرض والسماوات، وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (٥)، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (٦)، ثم نبيّ الله يوسف صبر على إخوته،

---

(١) الأنعام (٩٠).
(٢) المؤمنون (٢٣).
(٣) هود (٣٧).
(٤) النحل (١٢٠).
(٥) يوسف (٨٦).
(٦) يوسف (١٨).

صبر على الموت، صبر على مواجهة امرأة العزيز، صبر في السجن، وهنا وهناك حتَّى رفع له ربه ـ تبارك وتعالى ـ أمره وأعلى له ذكره.

صبر واحتساب وجد مع نبي الله أيوب، وهو مضرب المثل في الصابرين ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴿٤٤﴾﴾ (١)، هذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا شأن عباد الله الصالحين، هذا شأن عروة بن الزبير قطعت رجله، فأراد البعض أن يسقيه دواء يخفف ألمه، فقال: أخاف أن أغفل عن ذكر الله ـ تعالى ـ. ثم صعد ابنه داراً للوليد فوقع من عليها وسط الدواب صريعًا فمات، فقال: الحمد لله، قد أخذ عضواً، فالحمد لله فقد أبقى لي الأعضاء، وإن كان قد أخذ ولداً، فالحمد لله على كل حال فقد أبقى لي جماعة.

ثم أتى رجلاً من عبس، وكان أعمى، فسئل عن سبب فقدانه البصر فقال: خرجت في ركب مسافرين فأتى السيل فأخذ مالي وولدي وأهلي، أخذ منه كل شيء، وكان أغنى القوم، ثم وكأن الابن الصغير قد انصرف، وانفلتت الراحلة فذهب يبحث عنها فأتى الذئب فما رأى إلاَّ والذئب يأكل في بطن ولده، ثم أتت الدابة فضربته برجليها، فأسقطت بصره. فقال الوليد: خذوه إلى عروة ليرى أنَّ في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

فأنت لا تتسخط قضاء ربك ـ تبارك وتعالى ـ، فانظر للسُّنن وللسِّير نظرة فاحصة نظرة واعية، الصبر الجميل، وإلاَّ فأنت عندما تتسخط القضاء أي أرض تُقلك وأيَّ سماء تظلك؟ ألك رب غيره، هو الذي يرحمهم سبحانه قال: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ**﴾ (٢)، والذي يبتلي هو الذي يرحمهم سبحانه هو الرحيم الودود جلَّ في علاه «**أرحم بعبده من الأم بولدها**».

الواجب علينا أن نقيم واجب العبودية، وكانوا يقولون: العبد إذا أُصيب بالمصيبة كان له ثلاثة، نعم أنها لم تكن بأكبر مما كانت، وأنها لابد أن تكون وقد كانت، وأنها

(١) ص (٤٤).
(٢) النساء (١٤٧).

لم تكن في دينه، خذ الدرس والعظة والعبرة قدر قيمة النعمة، وكلكم معافًا وكلكم في قدر نعمة، والنعمة التي تعيشونها .

كان الثوري – رحمه الله – يقول: «ما يفقه الرجل حتَّى بعد البلاء نعمة، نعمة لأنه سيتمخض عن غفران ذنوب ورفع درجات».

تقدير للنعم إحساس فضل الله على البلاد وعلى العباد، لابد من إحسان المسير إلى الله ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (١) ، لا تنفك عن طاعة الله، وعن أمره سبحانه لابد من الصبر الجميل، صبر لا شكوى فيه، لا تضجّر معه، لا يسعك إلاَّ أن تصبر وأن تحتسب الأجر عند الله، وأن تذكر الدنيا بما جهلته عن دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، وإلاَّ فهي السُّنن لا تعرف المحاباة ولا تعرف المجاملات، ما حدث مع قوم عاد ونوح وقرونًا بين ذلك كثيرًا يحدث المعنى، إن نحن سلكنا مسلكهم، إن نحن حذونا حذوهم يحدث ذلك مع الأفراد، وإن عاشوا حياة كحياة فرعون وقارون وهامان سرعان ما يتنزلون من حياة القصور إلى حياة القبور والحفر يتنزلون من حياة العز والجاه والسلطان إلى الوضاعة والذل والهوان، وربك ـ تبارك وتعالى ـ ليس بظلاَّم للعبيد لابد وأن نرفع رؤوسنا لما رفعنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إليه، وأن نعتز بإسلامنا وبإيماننا ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

نسأله ـ جلَّ في علاه ـ بأسمائه وصفاته العلى أن يُمكّن لدينه في الأرض، وأن يفتح له قلوب الناس، اللهم عجِّل لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك، ويأمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر، اللهم إنَّا نسألك التقوى والعفاف والغني، ربِّ انصرنا ولا تنصر علينا، وأعنَّا ولا تُعن علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، وانصرنا على من بغى علينا واهدنا ويسِّر الهدى لنا.

اللهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا، ودينًا قيمًا وشفاء من كل داء، ونعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها،

---
(١) الحجر (٩٩) .
(٢) آل عمران (١٣٩).

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا أخرانا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اغفر لصغيرنا وكبيرنا وحيّنا وميتنا وشاهدنا وغائبنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منّا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منّا فتوفه على الإيمان ، اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

اللهم وسع على أهل القبور قبورهم، ونوّر على أهل القبور قبورهم، وارحمنا برحمتك إذا صرنا إلى ما صاروا إليه.

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين .



كلمة ما بعد خطبة
أحسنوا المسير إلى الله

السلام على رسول الله أما بعد:

نتكلم في عدّة مسائل تتعلق بقضية الحجاب في فرنسا، وما ذُكر عنها، وهذا ما يتعلق بـ «عمرو خالد» ونسب إليه فيما يتعلق بهذه القضية بالنسبة للحجاب تعلمون فريضته ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ (١) .

نصوص الكتاب والسُّنَّة كثيرة في فريضته وجوب الحجاب، ولكن في الآونة الأخيرة والقضية صار لها عدة سنوات بدأت بفتاة دخلت المدرسة بحجاب، فقامت الدنيا ولم تقعد في فرنسا التحررية، فرنسا صاحبة المبادئ التحررية، وما هي إلاَّ مبادئ ماسونية، إخاء وحرية ومساواة ومسائل، ما تنظر إليها تجدها ما هي إلاَّ تكريس لما سمعناه عن أحوال الطغاة والطواغيت فيما مضى بمعنى السلاح هو هو .

تدافع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين السُّنَّة والبدعة، هو هو لا يكاد يتغير ولا يكاد يتبدل، قد تتغير العصور والأزمنة، البلدان؛ الأسماء والمسميات والطغيان هو هو، قد يظهر بصورة حرية، ففرنسا عندما تمنع الحجاب ترى لو أزالت لافتة الحرية أبداً مازالت بل العكس يقولون هذا دفاع عن الحرية، أي حرية هذه؟!، بل هو الذي فعل الطغاة والطواغيت من أمثال فرعون، انظروا في قصة أصحاب الكهف والطاغية الموجود في قصة أصحاب الأخدود هو نفس الأمر، هو هو نفس الأمر، حَمْلٌ للبلاد وللعباد على مناهج الكفر والباطل والضلال هو المحاربة لدين الله، ولذلك لابد وأن نعي المسائل على حقيقتها بعيداً عن الزيف، بعيداً عن الغش، بعيداً عن الخداع، وإلاَّ عندما يستكرهون المسلمات على خلع حجابها أهذه حرية؟! أي حرية هذه؟!، أي

(١) الأحزاب (٥٩) .

حرية هذه؟!، الحريات دائمًا كالكلمة عندما تسمعها هكذا لا تُعبر إلاَّ عن حرية الباطل، حرية الضلال، حرية الكفر، انظروا لو وجدت من ترقص مثل من تتبرج تقولون حرية واحدة تتحجب، تقوم الدنيا ولا تقعد، وباسم الحرية تمنح حريتها هي طبعًا في أن تكون عبدة لله ـ تبارك وتعالى ـ، وإلاَّ فالحرية في مفهوم المسلمين لا يُمكن أن تتم ولا أن تحدث إلاَّ في قالب العبودية عندما نكون عبادًا لله نتحرر من العبودية للطغاة والطواغيت لنحرر العبودية لشياطين .

انظر نتحرر من العبودية لدنيا لا بقاء لها ولا وفاء، والنَّبيّ ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**».

وقال نبيُّ الله إبراهيم: ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ**﴾ [١]، فالإنسان قد يكون عبدًا لامرأة، عبدًا للافتات، انظر: نظم تسير، مناهج طالما انسلخ من العبودية لله، تنسلخ من العبودية لله، لا يمكن أن تكون حرًا، ستكون عبدًا لبشر لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولذلك قال ربعي لرستم قائد الفرس عندما سأل من بعثكم قال: «ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد» انظر لقول ربعي ما شاء الله «إلى عبادة رب العباد» .

ولذلك أيضًا علي بن حاتم وقد كان قد تنصر في الجاهلية دخل على النَّبيّ ﷺ فسمعه يقرأ ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [٢]، قال: ما عبدناهم، قال: «**ألم يحلوا لكم الحرام ويُحرموا عليكم الحلال، فأطعتموهم، فتلك عبادتكم إياهم**».

فتلك عبادات لو كانت المسألة نابعة من اعتقاد، أن للأحبار والرهبان الحق في التبديل والتغيير، وقلب الحلال حرامًا والحرام حلالاً، وأطعتهم أنت في المعتقد، هذه عبادة لغير الله، بعكس ما لو عصى الله، وهو يعتقد حرمة ما فعله، نقول: هذا له حكم

---

(١) مريم (٤٤) .
(٢) التوبة (٣١) .

أهل الذنوب والمعاصي مع معرفته وإقراره بالتحليل والتحريم حق لله لا ينازعه فيه مخلوق، ولكن هوى وضياع وشهوة منصب.

والحاصل من ذلك هذه البلد التي تزعم الحرية والإخاء والمساواة؛ بدأت أول ما بدأت لو تابعتم مسيرة الضلال بمنع الفتاتان، وقامت الدنيا محاكم وغير محاكم، وللفصل عن مسألة البنتين المحجبتين ـ وطبعاً ربك يحكم لا معقب لحكمه، ويقضي لا رادّ لقضائه ـ، انظر هذا حتّى ما يأخذ بأراء البشر في حكم الله هذا ما لا يجوز، والله ما وافقوا على تحكيم شرع الله، ما يجوز أن يُعرض ابتداء تعريض حكم الله على البشر أتقبلونه أم ترفضونه؟! أتُحكمون شرع ربكم أم تحكمون ـ مثلاً ـ حكماً سواه؟! هذا لا يجوز ابتداءً حتى لو قاموا كلهم وقالوا نحكم شرع الله ربنا، إجماع لا يجوز أن يعرض شرع ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على عقول البشر.

أنت عبدٌ حاكم ولا محكم تقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، إن الحكم إلاّ لله، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (١).

تُحكّم شرع ربك وتستسلم لحكمه سبحانه، ولو كنت فرداً هنا أو هناك، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (٢)، فقامت الدنيا ولم تقعد، ثم المسألة استمرت، ولم تنتهى، كيف يوارون العورات والسوءات، قالوا ممنوع طاقية اليهود وصليب النصارى وحجاب المسلمات، انظر وكأنها مساواة تسوية هذا ـ والله ـ حتّى لو كانت هذه الأشياء حقة، الصليب حق، وكانت طاقية اليهودي حق، ما يجوز مساواة، هذا حتّى لو كانت المسألة هكذا، ما يمنع شرع ولادين ما يوم كانت المساواة في الباطل والضلال، لا أنت لا تساوي حجاب امرأة بطاقية يهودى، وما يحل لك أن تصد عن سبيل الله، وأن تمنع حتّى لو منعت طاقية اليهودي وصليب النصاري، وكيف تساوي حقاً بباطل، وإيماناً بكفر، أتسوي الحجاب مع صليب، ومع طاقية يهودي ؟ ما يستويان ما يستويان

(١) الشورى (٢١).
(٢) آل عمران (١٩).

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ ﴾ (١) ، أتُساوي بين السُّنَّة والبدعة، هذا ما لا يحل هذا ما لا يحل؛ فالصد عن سبيل الله على مثل هذا النحو ما يجوز ، ما يجور.

وكما ذكرنا اللافتات المرفوعة، لافتات ضالة مُضلة، طالما منسلخة عن دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، بل ما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل إلاّ وكان في الدليل ما يرد عليه ويدحض بدعته.

هو الصراع بين العلمانية والإسلام، هم محافظون بزعمهم على راية البلاد العلمانية هناك، أي اللادينية، وبالتالي فكل شيء في نظرهم يخدش هذه اللوحة حتّى لو كان حجاب امرأة، انظروا البعض يستغل البعض، يستخف بخلعه حجاب، يقول لك: شيء هيّن، كله عنده شيء هين، هين، إذاً أطع الله، ما كل شيء هين على مثل هذا النحو أبداً، والله لو كنت أنت مستخفًا بشرائع الله فأنت للواقع تجد كما ذكرنا الهجوم على الوجه الظاهر، هجوم ولم ينتهي الهجوم الظاهر، قيمته كبيرة.

حجاب المرأة هو طاعة في حد ذاته، وأنت كمسلم لا تستخف حتّى بأمر مستحب، فضلاً عن أن يكون واجبًا، ولما تنظر لحال الكفرة الفجرة يضلهم أن تُنفّذ شعائر الإسلام والدين، إغاظتهم عبادة، الثبات على دين الله واجب ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝٨٩ ﴾ (٢)، ليسوا بها بكافرين.

فإن تثبت البنت على حجابها، هذا واجب شرعي لن يقبل المفاصلة، وما يقبل الموازنة ـ للأسف الشديد ـ أحياناً مائعة شائهة، أحياناً تصر أن حالة الاضطرار وحالة كذا.. لابد من تطبيق الحكم على الواقع المساوي له البنت، هذه مضطرة تستسلم، ترفع الراية، لأول وهلة، يُقال لها: اخلعي الحجاب، تخلع ، هل هذه حالة اضطرار؟ هل هذه حالة اضطرار؛ لأن البعض أحياناً يستصحب الكلمات الشرعية، يطبقه على غير الواقع، على غير الواقع، إذاً مضطرة تخلع الحجاب، أهذا مع أول كلمة نسمعها

(١) القلم (٣٥، ٣٦).
(٢) الأنعام (٨٩).

من مُغرض مُلحد منحل؟، احلقوا اللحى، اخلعوا الحجاب، الإنسانُ يبادر، ويقول هذا أنا مضطر، من الآن في الخمارة لو سألته لماذا تعمل في خمارة؟، في مرقص؟، يقول لك: لقمة العيش والسعي على لقمة العيش جهاد، وأنا مضطر، من المضطر؟!، المضطر أرض الله واسعة، أرض الله واسعة، الأصل في الأشياء الإباحة، صيد مباح، ورعي مباح، وزراعة مباحة، وصناعة مباحة، وتجارة، ووظائف، وضاقت بك الدنيا هنا، ارتحل إلى هناك، وماذا جعلك تعمل في خمارة؟!، ضاقت عليك الدنيا أبداً، يقول لك مضطر!.

وكلمة مضطر صارت، وطبعاً الناس حفظوا ليس فقط حتّى المسألة، ليتهم حفظوا الأصول، حتّى يقول لك الضرورات تُبيح المحظورات، صار فقيهًا، الضرورات تبيح المحظورات، صراع بين الإسلام وبين ملل الكفر، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [١]، صراع بين العلمانية وبين الإسلام، صراع يحكي لك الصراع القديم، هو هو نفس الصراع، نفس الصراع.

لما أنت تقرأ في قصة حذافة السهمي مع ملك الروم، وما الذي استنزله عليه، وما الذي طلبه منه، تقرأ قصة أصحاب الكهف، وهذا البعض طلب من البعض أن يقدم حتّى ذبابة للصنم، ذبابة للصنم يستخلص بها نفسه، يسترقي بها روحه، ذبابة حتّى تلقيها للصنم، تخيل يصل الاستنزال لمرحلة هذه في وقت من الأوقات أن تلقي حتّى ذبابة للصنم، انظر ولذلك أنت تقرأ في سورة الكهف ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [٢]، تخيل أهذا الاستكراه؟! هذا عذر لنا، والله هذا من رحمة الله بنا، لضعفنا، ضعف وعجز موجودين، نحن عليه، وإلاَّ فالاستكراه لم يكن عجز في الأمم السابقة بدليل هذه الآية ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ، دول معذورين، دول مستكرهين، انظر الرجل إذا لم يلقي الذبابة للصنم يأخذوه ويقتلوه ، هذا مستكره بمعنى مع الاستكراه والاضطرار،

(١) البقرة (٢٥١) .
(٢) الكهف (٢٠) .

نقول يلقي الذبابة للصنم أبداً هذا الاستكراه عذر لنا نحن، ولذلك في الحديث لو دققت النظر في النص «**إنّ الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» .

هذا دليل على أن الاستكراه لم يكن عذراً للأمم السابقة، دليل قوله سبحانه ﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴿٢٠﴾ ﴾، على كل حال لابد من ثبات على طاعة الله، حرص على كل الحاجات المستحبة، والغير مستحبة، وخصوصاً ما يتعلق منها بهدي الرب، والكفر ملّة واحدة، صورة واحدة قديماً وحديثاً، وجد هنا أو هناك، نفس الحرب، نفس التدافع، فإن ثبت هؤلاء على باطلهم، أفلا نثبت على حقنا حتّى وإن رفعوا راية حرية، وما حرية؟ إن الحرية دائماً كانت كما ذكرنا للمنحرفين تعني لك الحرية، ترقص هذه حرية، إن الحرية كيفما شئت تتعرى المرأة، وتتبرج، تفتح لها الأبواب!!، أما أن تتحجب، أما أن تدخل مسجداً تطيع فيه ربك، تقوم الدنيا ولا تقعد، فسنن التدافع ماضية في الخلق، ولابد من صبر واحتساب، وتأسي بسنن الأنبياء والمرسلين، هذه قضية، مسألة.

قضية ثانية تتعلق بالحجاب، عمرو خالد نُسب إليه أنه قال، سُئل عن المرأة التي تنتوي الحجاب، منيتها تتحجب، ولكن ترجئ ذلك إلى ما بعد الزواج، فماتت، ماتت على ذلك، فنسب إليه أنه قال: إنّ المرأة هذه لها ثواب المحجبة بنيّتها، ثواب من تحجّبت، فهو الآخر قامت عليه الدنيا ولم تقعد، وهذا يستدعي عدّة وقفات، عدة وقفات، تقوم الدنيا عل كلمة نُسبت لعمرو خالد، يعني عمرو خالد صار من الاشتهار بمكان بحيث لما يتكلم كلمة الدنيا تتناقلها هنا وهناك، والله مسألة واقع موجود تتعامل معه لماذا؟ هذه مسألة، وكانوا يقولون «ذلة عالم يُضرب بها الطبل» يُضرب بها الطبل، وهل عمرو خالد صار من جملة ومن عداد العلماء، وهو كذلك، أبداً مسألة مريبة، واقع الدنيا أشبه بقرية صغيرة، بقرية صغيرة، هذه مسألة.

المسألة الثانية : أنه يقول عن نفسه أنه لا يفتي، وهذه إما نسيان منه أو جهل بواقع الأمر حقيقة؛ لأنه يُفتى، واقع الأمر أنه يُفتى، فعندما يقول: لا يفتى، لا أبداً، وإلاّ

فأنت تسأل فتُجيب، سُئل: المرأة لو انتظرت مثلاً عندما تتزوج وانتوت الحجاب، ثم ماتت قبل أن تتحجب، أتُثاب وتكون مُحسنة، أم تكون مسيئة؟ فقال: لها ثواب. هذا ما نُسب إليه، لها ثواب وأجر المحجبة، خطأ هذا الكلام، خطأ، هل هذا فتوى، فتوى أنت تُفتى، إذ لا يشفع للإنسان أن يقول أنا لا أُفتي في الناس.

لا... أبداً ... أنت تُفتي في الناس، أنت عندما تمسك المكرفون هكذا وتتكلم في خطبة وفي درس، كلها فتاوي، بل لا أُغالي لو قلت مسلكك وخصوصاً إذا ما نُسبت لشرع ولدين، أنت تبيع وتشترى، وأنا أُسلط بصري عليك، انظر أنت مثلاً تبيع جراماً ذهب بجرامين، خذ السلسلة وهات الحلق مكانه، وأنا أسلط بصري عليك، أنت أسوتى، أنت قدوتى، أنت من اجترأت على هذا الصنيع وهذا الفعل، إلى الكون حلال، هل هو حلال في واقع الأمر، ذهب بذهب، ربا مثلاً بالمثل.

احتاط وتحري ولا يشفع لك، وطرطرة الكلام إنني لا أُفتي في الناس أبداً، لماذا أقدمت على ما أقدمت عليه؟ لماذا تحجبت البنت؟؟ سؤال مطروح، لماذا لم تساير مذهب فتاة المجتمع؟ لماذا شاذت هي؟ لماذا اختارت هذا المسلك؟ لماذا تدخل أنت المسجد ولم تدخل الخمارة مثلاً؟ لماذا تنادي بحرية وإخاء ومساواة؟ هذا واقع هذا كله حركات وسكنات وأقوال وأفعال لو شئت لقلت أنت، وكأنك وقع عن الله في قول وفي كل فعل، هذا هو شأنك أنت، أنا لا أغالي، وقد كنت أضع الحذاء في يوم من الأيام على مدخل السلالم في مدخل سلم هذا أخ يحذرني، يقول لي أحتاط من تصرفاتك، قلت له لماذا؟ قال لي: أنت تضع الحذاء في هذا المكان، ثم أنا تابعت بعض الشباب وجدتهم يضعون أحذيتهم في نفس المكان، فقلت لهم: لماذا تضعون أحذيتكم .. هاله الأمر، لفت نظره، لماذا تضعون أحذيتكم في المكان الفلانى؟ قالوا: لأن فلاناً يضع حذاءه هنا.

ما رأيكم؟ واقع، فعندما يُسأل هل تكون مُثابة ومأجورة إن هي لم ترتدي الحجاب، ونوت بعد الزواج أن تتحجب، يقول لها: نعم، لها نفس الأجر. فتوي، انظر هذه مسألة.

مسألة أخرى تتعلق بأمور لابد وأن تأخذ منها درسًا وعظة وعبرة، يا ليتنا نتريث، يعني ولا ننقل أحكامًا ونحو ذلك، ونتعلم أمر ديننا كان البعض .. الشيخ الألباني – رحمة الله عليه – كان يذكر عن نفسه أنه كتب كتابًا احتفظ به خمسة عشرة سنة لم يطرحه، لم يطبعه، يُراجع الكتاب، يقف مع كل مراجعه، يُضيف له إضافة، وهذا شأن الخلق ممن يعني عندهم خوف من الله، ورع في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ أنت توقع عن الله أمرًا مع حداثة التدين، وهي مرحلة الكل يمر بها، ما الذي يحدث تكون أهوج رغم أنفك، لا يمكن أن تحكم النظر في المسألة، إنسان سطحي، بتعبير آخر تنظر بطرف من القضية وتُغفل بقية أطراف القضية، رغم أنفك؛ لأنك حديث عهد بتدين، حديث عهد بقراءة، وباطلاع، وهذا شأن عمرو خالد، وغير عمرو خالد.

نحسبه كذلك قرأ واطّلع، ولكن إحكام الأمر، حظر المسألة، ما هو قرأ، مسكين قرأ أنّ نية المرء قد تكون أبلغ من عمله، صحيح والله، عندما أفتى بهذه الفتوى المنسوبة إليه، بلا شك فيها جانب من الصحة، فيها جانب من الصحة ما هو؟ النّبيُّ ﷺ يقول: **«من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء»** ما هذه سطحية القراءة، ولذلك قالوا من سعادة الحدث إذا نُسب أن يوفق لصاحب سُنَّة، يحملوا عليه .

انظر لحالك مع اليوم الأول الذي خطبت فيه في المسجد، وانظر لحالك مثلاً بعد سنة، بعد سنتين، تقول سبحان الله، هذا الواحد لماذا كان يتصرف هذا التصرف مع والده ومع أمه ومع إخوته، سطحية، ما هو؟ لماذا حتّى قام وكسر الخمارة من كسرها، وقتل فلان، سطحية، قرأ النص **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»** منكر ولا فقه عنده، ولا بصيرة لديه، ينكر منكر بمنكر أعظم، ينكر المنكر فيثبته، ويأتي بمنكر آخر، ولا فقه عنده، سطحية، يأخذ طرف من مسألة، ويترك بقية أطراف المسألة، رغم أنفه مع حداثة التدين ومع السطحية والعاطفية، ولذلك قالوا: أن يوفق لصاحب سُنّة يحمله عليه.

ممن يتكلمون، قفرأوا قراءة سطحية مع الأيام الأولي، لابد من تخبيط، لابد حتمًا

لا محالة، فهو قرأ ضروري النص «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**» صحيح «**وإن أقوامًا ما سرتم مسيرة ولا سلكتم مسلكًا ولا واديًا إلاَّ سبقوكم الأجر**» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**حبسهم العذر**» منعهم العذر من الخروج، وشاركوهم في الأجر بالنوايا الطيبة، فنيّة المرء قد تكون أبلغ من أعماله، وهذا كنَّا ما نقوله الأسبوع الماضي وقبل الأسبوع الماضى، أي يا ناس انووا الحج، انووا الطاعات، والقربات، واسألوا الله من فضله، حتّى لو حيل بينكم وبينها كنتم معذورين، وقع الأجر على الله، والله لم تجد المال الذي تصل به لتأدية الفريضة حاجز ومانع يقع أجرك على الله بالنيّة الطيبة، لا تبخل على نفسك بها، ولكن هذه النوايا التي نتحدث عنها الآن وما سُئل عنه هو في فرق؛ **لأن هذه الشابة عندها طول أمل**، هذه البنت لا يحجزها حاجز عن ارتداء الحجاب، هذه البنت أمّلت بعذر زواجها **أن تتحجب** هي مُخطئة مُقصّرة، الواجب عليها **أن تُطيع ربها في لحظتها هذه، أن تتلبس بطاعة الوقت**.

كان علي بن أبي طالب يقول: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل**» وخصوصًا الطاعة في استطاعتها، هذا واقع فتيات كثيرات أنها لن تتحجب إلاَّ بعد الزواج، هذا لابد من تخطئته ، فإن تقول لها لو متِّ على نيتك هذه تتساوين مع من تحجّبت، لا، أنت بذلك وكأنك تبيح للعباد المعاصي والذنوب تُبيح للعباد طول الأمل، تُهوّن من شأن الطاعات والقُربات، ومن شأن المطيعين معًا تساوي بين المطيعة والعاصية، وإلاَّ فالواجب عليها في لحظتها، وقد خوطبت أن تقول سمعنا وأطعنا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ﴾ ، روت أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ، قالت وهي تثني على نساء الأنصار: «أنهن لما أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [1] ، تقول: «عمدت نساء الأنصار إلى مروتهن المرحلة، فاعتجرن به، تنفيذًا لما أنزل الله من كتابه». تنفيذًا لـ ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [2]، البنت ما يحل لها أن تسوف، ولا أن

---
(١) النور (٣١) .
(٢) طه (٨٤) .

تراخى؛ فامتثال الحجاب يعني انتظاراً للزواج وغير زواج، قبل موت اللحظة، إنما الأعمال بالخواتيم، الفارق كبير بين من يموت على الطاعة، وبين من يموت على المعصية مع تذكّرنا بهذه المسائل.

نحن لا يفوتنا ولا ننسى أن الخلق انتفعوا بعمرو خالد، حقيقة، وبأمثاله، أن يُبسط النص أن يُخاطب الناس بلسانهم، فائدة كبيرة، ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء، وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول الله ﷺ ونحن لا نحجر واسع، نتمنى له ولعموم الخلق الخير والتوفيق والسداد، وأن ينفع بهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ .

نحن لا نقول الدعوة لابد وأن تخرج من جيوبنا الخاصة، لا، هذا تحجير واسع، لابد من استمرارية، لابد من امتداد، لابد من وعظ وتذكير، فإن ينفع به ربنا هنا أو هناك، أن يُبسط الوعظ للخلق، والله لا تسمع منك ولو سمعت ما فهمت ما نقول، انظر قد لا تأتينا ابتداء، ولكن يسمعوا من عمرو خالد، خير ما نمنع أن ينتشر الحق والخير على يديك، على يدي غيرك، ولكن كما ذكرنا لابد من إتقان، أنت توقّع عن الله، أنت تبلغ أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ للخلق، فلابد من اقتفاء لآثار الأنبياء والمرسلين، وإن الله يُحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه.

ونسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن ينفعنا وإياكم بما نقول ونسمع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الاعتصام بالله

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ (٣).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

عباد الله، آية ذكّر بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عباده المؤمنين فقال: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ (٤)، دالة على فضل اليقين، دالة على أن من توكّل على ربه واعتصم بجنابه سبحانه، واستمسك بحبله المتين، وفّقه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لكل خير في مآله وميعاده، في دنياه وآخرته، و لحظة وفاته، هذا كله إنما يحدث لمن تعلق بجناب الله ـ تبارك وتعالى ـ وتوكّل عليه وأناب إليه، أُمر بذلك رسول الله ﷺ فقال له سبحانه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا ﴾ (٥).

اعتصم بها رسول الله، وكانت منه الاستقامة على أمر ربه ـ تبارك وتعالى ـ حتّى

(١) آل عمران (١٠٢).
(٢) النساء (١).
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).
(٤) آل عمران (١٠١).
(٥) هود (١١٢).

أتاه اليقين، عبد ربه - تبارك وتعالى - حق عبادته، وتيقّن أمره حقّ تيقنه، عرف ربه تبارك وتعالى حق معرفته ، ولذلك رفعه ربنا تبارك وتعالى درجات عليّة، وكان هو سيّد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه، ولنا فيه أسوة حسنة، وقدوة طيبة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ (١) .

لابد وأن نحرص على الاعتصام بالله، أُمرنا بذلك في شخص نبيّه ﷺ كما أُمرنا بالاستقامة. فلابد من حرص على كل ما يُرضي الله - تبارك وتعالى - وأنت عندما تبدأ مسيرك ورحيلك إلى ربك - تبارك وتعالى - تحتاج إلى زاد، ولابد لك من معرفة بطبيعة الطريق، وإلاّ فوساوس الإنس والجن ستنتابك من هنا ومن هناك، تدعوك لتذكر هذه اللحظات التي عشتها مع قرناء السوء تُحبب لك المعصية تُذكرك بحلاوتها.

وأنت في ذلك محتاج لمجاهدة ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ (٢)، محتاج لأن تُنيب إلى ربك، وأن تفر إليه سبحانه، بل وأن تضرع إليه، وتشكو حالك وضعفك وفقرك بين يديه سبحانه، تُحسن التأسي بأنبياء الله ورسله، انظروا في قول نبيّ الله يوسف - صلوات الله وسلامه عليه - عندما جاءته الفتنة قال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ (٣) ، فاشتكي حاله لربه تبارك وتعالى وتعلّق بجنابه سبحانه وقال: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ .

نتحسس ضعفنا وفقرنا بين يدي ربنا، وأنه لا تحول من حال إلى حال إلاّ بفضل الله، وتوفيقه، لا ثبات على معاني اليقين إلاّ بتثبيت الله - تبارك وتعالى - لك، فتنيب إلى ربك - جلّ وعلا - تحسن التأسّي بهؤلاء الأفاضل الذين اصطفاهم سبحانه لصحبة نبيه كحالة سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، وإلاّ فأنت عندما تبدأ طريق الاستقامة وطريق الهداية ستُفتن من قبل الأهل، ومن قبل الجيران، والأصدقاء، هذا الوالد قد

(١) الأحزاب (٢١) .
(٢) العنكبوت (٦٩)
(٣) يوسف (٣٣) .

يشتمك وهذه الأم قد تجزك، وقسْ على ذلك بقيّة المقربين منك، كلهم يَحول بينك وبين هدايتك في الوقت الذي لم يكن واحد من هؤلاء يرفع رأسًا عندما كنت تنتقل من غيّ إلى ضلال، كانوا يقولون لك: «شباب، والشباب طيش»، وهكذا كانوا يصورون لك الذنوب والمعاصي على أنها مرحلة ولابد وأن تحيا حياتك، أما إذا أردت طاعة ربك تبارك وتعالى، فدون ذلك عقبات، فتن ومحن لابد من التعرف عليها، ولابد من الثبات تجاهها ولابد في ذلك كله من الاعتصام بجناب الله تبارك وتعالى.

سعد بن أبي وقّاص ﷺ جاءته أمه عندما أسلم، وجلست في الشمس، وامتنعت عن الأكل، حتّى إذا ما ماتت عيّر بها؛ رجاء أن يرجع عن إسلامه، أن ينتكس، وأن يعود سيرته الجاهلية مرة ثانية، فجاءها عندما تخوف عليها الموت، وقال لها : يا أمّه تعلمين أني لا أترك ديني هذا لشيء، والله لو كانت لك مئة نفس خرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، وكان شأنه في ذلك كشأن مصعب بن عمير، وكشأن غيرهم ممن ثبت على أمر ربه ـ تبارك وتعالي ـ وفّقه سبحانه واعتصم بجنابه.

ولابد من مجاهدة، كم مُحيت ذنوب، وكم غُفرت خطايا؛ بسبب الحرص على طاعة الله جلّ وعلا، بل أنت إذا ما ذكرت يومًا بحلاوة المعصية، أعتبرها أشقى ساعة عشتها في حياتك، ساعة الإعراض هذه عن أمر الله، وعن ذكر الله، هذه الساعة التي أورثتك مرارة، إن كان في قلبك بقية من حياة ستحسها، وما لجرح بميت إيلام، لابد من تحسس لمرارة المعصية، هي عذاب دهر، وهذا هو أصدق توصيف لها، حتّى وإن صورها هذا وذاك بأنها لحظة طيش أو شباب يعيشه، هذا أو ذاك، ولابد فيه من الإعراض، ولابد فيه من الانتكاسة والمعصية، أنت لك شأن وللناس شأن، لاب من إنابة إلى الله، لابد من اعتصام بجناب الله ـ تبارك وتعالي ـ وربنا سبحانه لا يضيع من لاذ بجنابه وتعوّذ به، وتوكل عليه ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [(١)].

إذا كان يفعل ذلك سبحانه بالعباد في الدنيا، وإذا ما أرادوا مخرجا منها، فكيف بفتن الدين التي تنتاب هذا وذاك، إذا ما لاذ بجناب الله وتوكّل عليه، وحنّ إلى إيمانه،

(١) النمل (٦٢) .

وتخوّف على نفسه الفتنة، تداركته الرحمة، وكان معه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بفضله وبتسديده وبتوفيقه فقط أخرج كل شيء من قلبك سوى الله تبارك وتعالى تعلّق به، كنْ مع الله ـ جلّ وعلا ـ يكن الله معك، كنْ مع الله وكن لله يكن الله لك، والجزاء من جنس العمل، واعمل ما شئت، كما تدين تدان، هو جبار السماوات والأرض، وملك السماوات والأرض ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (١).

لا يُخيب رجاء من توكّل عليه، وتعلق به سبحانه، لابد من إحسان التأسي، لابد من ضراعة بين يدي خالق الأرض والسماوات، إذا ما أحييت بالفتن تموج من حولك وتتنابك من هنا ومن هناك، إذا ما تخوفت على إيمانك الضياع، فعليك أن تتعلق بجناب الله تدعوه سبحانه، هو الذي يجيب المضطر، ويكشف الضر، هو الذي نصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢)، فعليك أن تُظهر الضراعة.

تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها افتقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة في جوف الليل، تقول: فتصفحت قدمه وهو ساجد ﷺ يدعو ربه ويقول: **«اللهم يا مُقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك»**.

هكذا يُظهر الضراعة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، يقوم لله ـ جلّ وعلا ـ في جوف الليل، يدعوه ويتوكل عليه، فأحسنْ التأسّي به تجأر إلى ربك تنظر في عواقب المعصية، وأنها سبب الإعراض عن الله ـ تبارك وتعالى ـ هي من أعظم الأسباب المردية والمهلكة، وإلاّ فهذه الساعة التي تعصي فيها ربك تورثك الردى والهلاك في الدنيا قبل الآخرة، لابد من عقل نافذ عند حلول الشهوات، لابد من عقل وبصر نافذ، إذا ما أحلت الشبهات، لابد من ثبات على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ، لابد وأن نحسن التوكل على ربنا وأن نستشعر قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ (٣).

(١) يس (٨٢).
(٢) غافر (٦٠).
(٣) الفاتحة (٥).

ذكروا أنَّ الإمام البغوي عندما ألَّف تفسيره، وكانوا فقراء الحال - رحمهم الله تعالى - سمع برجل من أثرياء الهند يُنفق على العلماء، فطلب من ينسخ له كتابه، واكترى سفينة، استأجرها لكي يذهب إلى الهند لهذا الرجل، حتَّى ينسخ له كتابه التفسير، وبينما تسير السفينة على شاطئ دجلة إذا رأى رجلا فطلب من قائد السفينة أن يوقفها حتَّى يأخذ هذا الرجل معه، فسأله الرجل من أنت؟ قال: البغوى. قال: المفسر. قال: نعم. قال: إلى أين؟ فقال له البغوي عن قصَّته وأنه ذاهب لهذا الرجل لكي ينسخ له كتابه التفسير، فقال له الرجل ببساطة شديدة: ما الذي قلته في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾، فأجابه البغوى، وبعدما أجابه، وكأنه انتبه لهذا السؤال؛ سؤال لم يُلق هكذا على عواهله، له دلالته، فطلب من قائد السفينة أن يرجع به مرة ثانية، ورجع البغوى، وجاءه رجل من قِبَل هذا الغني يقول له: إن فلانًا سمع بأن عندك كتاباً تُريد نسخه، فوزنه له بقيمته ذهبًا، أعطى له الذهب وأخذ منه هذا الكتاب لطبعه.

هكذا لا يُخيب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ رجاء من توكَّل عليه، وصدق في إيمانه ويقينه، يرجع الإمام البغوي لهذه التذكرة، نعم فيها نوع من التعريض، ولكنه استوضحها، كانوا عندهم بصيرة وفطنة في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ وإلاَّ فما معنى قوله سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ .

والكثير منَّا يُجرب هذا وذاك وينتقل من مخلوق إلى آخر، يتعلق قلبه بالمخلوقين من دون الله، وهذا هو واقع حاله، حتَّى وإن نطق بكلمات إيمانية، حتَّى وإن تعلم معاني التوحيد، حتَّى وإن أعطى درسا في التوكل إلاَّ أنَّ حقيقة ورصيد ذلك غائب من نفسه، وهذا هو واقع الأمر والحال، وهذا لا نشكره إلاَّ لخالق الأرض والسماوات، يعلم ضعفنا وعجزنا، وفقرنا، نحتاج لترجمة معاني التوحيد، نحتاج لأن نعمل بمقتضى هذه المعاني الإيمانية، هذا هو الذي ينقصنا، وإلاَّ فالكثير منَّا تعلَّم الكثير والكثير من المسائل، ولكن أين ترجمتها؟ أين واقعها ورصيدها؟، هل توكَّلنا على ربنا؟، هل أنبنا

إليه؟ هل تعلّقنا به سبحانه؟، كما ذكرنا؛ نأخذ بهذا السبب وبغيره، بل ونتعلق بالأسباب من دون الله ونُفرط في معاني الإيمان في الوقت الذي كان يجب علينا فيه أن نعتصم بجناب الله ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ (١) .

ومن يعتصم بالله ـ سبحانه ـ في عسره ويسره، في منشطه ومكرهه، في أقواله وأفعاله، يرجع لكتاب الله، ولسُنَّة رسول الله، يقتفي آثار الأنبياء والصالحين هؤلاء الذين عملوا بمعاني إيمانهم لحظات الكرب والفتنة كحالة نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما اتبعه فرعون بجنوده بغيًا وعدوًا، ما الذي حدث؟، كان البحر أمامهم وفرعون خلفهم، ولذلك قال أصحابه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ (٢)، كلمات الواثق المؤمن، كلمات المتيقن، أنَّ الله تبارك وتعالى لا يضيّع أهله، ولا يضيع أولياءه، قال: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ ، ويأتي الأمر مباشرة بعد فراغه من قوله ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾(٣)، ضرب بعصاه فانفلق البحر فكان كل فرقٍ كالطود العظيم.

هكذا يفعل سبحانه بأوليائه الذين يعتصمون بجنابه ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ ، هُدي إلى صراط مستقيم في الدنيا قبل الآخرة أيضًا، وانظروا في حالة نبيّ الله يونس ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾(٤)، وهو في ظلمات ثلاث ، في ظلمة البحر والليل، وفي ظلمة الحوت، أدب نبويّ نحتاجه، عندما ينسب هذا الذي حدث لنفسه، فما حدث له ما حدث إلاّ من قِبَل نفسه ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، تتداركه الرحمة ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ (٥)، ولم تكن له خاصة، بل كانت للمؤمنين عامة، هؤلاء الذين يستقيمون على أمر ربهم ويعتصمون بجنابه.

(١) آل عمران (١٠١) .
(٢) الشعراء (٦١، ٦٢) .
(٣) طه (٧٧) .
(٤) الأنبياء (٨٧) .
(٥) الأنبياء (٨٨) .

وانظروا في حالة هؤلاء الذين قصَّ علينا سبحانه من أخبارهم ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (١)، وتأتي هذه «الفاء» التعقيبية، وسرعان ما يأتي الفرج بعد الشدة إذا ما ثبتت الأقدام على طاعة ربها، إذا ما كان الإيمان واليقين، إذا ما كان صدق التوكل على الله، هل واجهوا هؤلاء بسلاح فتَّاك نقول: نعم، وإلاَّ فلا أمضى من سلاح الإيمان، لا أنفع أبداً من سلاح الدعاء، أدعية إيمانية وأحوال ملؤها التوكل على الله، واجهوا بها هؤلاء الأعداء، واجهوا بها الفتن ما ظهر منها وما بطن، فكانت معاني النجاة التي نتحدث عنها، نحتاج لثبات وليقين، واعتصام بجناب الله.

ثم انظر في حالة الأولياء عندما يُنيبون إلى ربهم ويتوكلون عليه سبحانه تجد عجائب التدبير، وليس في أمر الله عجيب، لما تنظر ستجد أن الله يسلمهم لإحدى الحسنيين إذا ما عملوا باليقين، إما أن يمتن عليهم بيقين راسخ تتزلزل الجبال ولا تتزلزل أقدامهم وإما أن يُفرج كربهم ويُسلمهم لفرحة لا يحسون معها بألم المصيبة والفتنة التي نزلت وحلَّت بهم.

انظروا في حالة هذا المشلول الذي ما سألته كيف حالك؟ يقول: الحمد لله، هذا والله يقين، وإلاَّ فغيره من البشر ممن لا يعيشون حياة الإيمان ولا يتوكلون على ربهم أصحاء أقوياء في ظاهر الأمر ينتقلون من مطعم إلى مشرب، هنيئ في ظاهر الحال، ولكن أين اليقين، نفوسهم متضجرة، لا توكُّل عندهم ولا إنابة لديهم، نفوسهم متمزقة بسبب الإعراض عن الله ـ تبارك وتعالى ـ، أما هذا المشلول تسأله عن حاله يقول لك: الحمد لله، وكأن الكلمات تخرج من قلبه قبل أن ينطق بها لسانه، ثم انظر لتفريج الكربات، وكيف تنتهي هذه المصائب من العباد؟، لا يحسون بألمها وكأن الله فرجها عنهم سبحانه بمنّه وكرمه وعظيم توفيقه، بل ويزيدهم، وهذا هو شأن الكريم يعطي وزيادة.

ولذلك حكى لنا قصة نبيه أيوب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذي قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم

(١) البقرة (٢٥٠، ٢٥١).

﴿ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١)، ردَّ عليه ما كان عنده وزيادة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وفضله سبحانه لا تحده أبدًا الحدود، فقط نتعلق بجناب الله ننيب إليه، نسأله سبحانه من فضله، نضرع إليه ـ جلَّ وعلا ـ، نُحقق معاني الإيمان في نفوسنا، سيُغيِّر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حالنا لأحسن الأحوال، فقط أعطيه قلبك، توكل عليه، هذا هو المطلوب، وليس لنا أن نبخل .

يحكي أنَّ رجلاً كان مريضًا وكان ثريًا، تعلق بكل سبب وبحث عن كل دواء، ولا بأس بذلك؛ فالنبيُّ ﷺ يقول: «**تداووا عباد الله، ولا تتداووا بحرام**» ولكن أنت إذا ما أخذت بسبب عليك أن تتوكل على ربك، وإلاَّ فالسبب بمفرده لايقوم محتاج لفضل من الله أكبر، وخالق الأسباب قادر على تعطيله، فكان الأمر بداية ونهاية مُتعلق بخالق الأرض والسماوات، هذا السبب، وهذه الوسيلة إن جعلت فيها الغاية، فقد شفا وكفي، وإلاَّ فلا عليك أن تتعلق بمعاني الإيمان، وتحسن التوكل على ربك. هذا الرجل سأل بعض الصالحين، فقال له: أنت أخذت بكل سبب، وجربت كل دواء، فاسأل ربك من فضله، وقد كان ، ذهب واعتمر ودعا ربه ـ تبارك وتعالى ـ، فما أمسى إلاَّ وحاجته موجودة عنده، كأن مرضه انتهي، هل تستبعد ذلك؟ بالقطع لا، وإلاَّ فالداء والدواء من الله ـ جلَّ وعلا ـ، هو خالق كل شيء، والقادر على كل شيء و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢) ، هو الذي قال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٣) ، هو الذي يُجيب المضطر سبحانه ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٤) .

فإذا أُلهم العبد الدعاء فإن الإجابة معه، علينا أن نُحسن التوكل على ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، ننيب إليه، لا نتعلق بالمخلوقين من دون الله، وإلاَّ فهذه آفة ونحن في حياة الغربة هذه، ومع جريان الصور المادية الطغيانية منَّا مجرى الدم، نسينا ربنا، وهذا هو واقع

(١) الأنبياء (٨٣، ٨٤) .
(٢) يس (٨٢) .
(٣) النمل (٦٢) .
(٤) غافر (٦٠) .

حالنا نقدر كل سبب مادي بينما إذا ذُكّرنا بأمر الله يكون لسان حالنا مثل مقالنا نقول: سنُجرب نأخذ الأمر بكل توهين، وبكل ضعف، فلا يقين عندنا، ولا توكّل لدينا.

انظروا في حالة نبيّ الله إبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقد أوقدوا له النيران سبعة أيام، ولذلك ما استطاعوا أن يقتربوا هم منها قذفوه فيها بالمنجنيق ويأتيه جبريل يقول له: ألك حاجة؟ يقول له: أما لك فلا، وأما إلى الله، فحسبي الله ونعم الوكيل، فكانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، هل أضاعه ربنا جلّ وعلا؟ بالقطع لا.

وانظروا في حالة سيد الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يوم أُحُد، يوم حمراء الأسد، نطقوا بهذا القول أيضًا، نطق به هو وصحابته الكرام، يقول سبحانه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ (١).

نبيّ الله إبراهيم كان بمقدوره لو لم يكن مُطبّقًا لمعاني التوحيد، لو لم يكن متوكلاً على ربه عارفًا به، لقال لجبريل، كما نصنع نحن هنا وهناك، واليوم والأمس وغدًا، نقول لهذه الأسباب المادية فعل كذا وسوّى كذا، وتتعلق قلوبنا بها، جبريل لو أشار بطرف جناحه إلى النار لانطفأت، لربما لو كان واحد منّا لقال لجبريل وقد أتاه يواسيه يقول له: أنقذني. أما نبي الله إبراهيم فيقول: أما لك فلا، وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل. هل ضاع؟ أبدًا، خلّد ربنا ذكره وجعله أمة فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾ (٢)، كان أمة بمفرده، لما تعلق بجناب الله، لما حقّق معاني التوحيد، لما توكّل على ربه وتعلّق قلبه به سبحانه من دون المخلوقين، لما دعاه وأناب إليه لم يضيعه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ، وهذا شأن من اعتصم بالله ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ (٣).

---
(١) آل عمران (١٧٣، ١٧٤).
(٢) النحل (١٢٠، ١٢١).
(٣) آل عمران (١٠١).

ولذلك لا يسعنا إلاّ أن ندعوه سبحانه أن يرزقنا إيمانًا راسخًا، أن يجعلنا من جملة المتقين، وأن يجعلنا من عباده المنيبين، سلوا الله العافية، فإن أفضل ما يؤتاه العبد العافية واليقين، لابد من حسن التوكل على الله، لابد من يقين، ولابد من صدق التوكل عليه سبحانه، لابد من حسن التأسي بأنبياء الله ورسله، فلا خير فينا، ولا سعادة لنا، ولا فوز في الدنيا قبل الآخرة إلاّ إن اعتصمنا بجنابه، واتبعنا شريعته، واستقمنا على أمره سبحانه، فكونوا لله يكن الله ـ تبارك وتعالى ـ لكم، وكونوا مع الله يكن ربنا جل وعلا معكم و ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [١].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.



(١) النحل (١٢٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

عباد الله، علينا بالاستقامة على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ، والنبيّ ﷺ وعظ وذكر فقال لمن سأله: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**» ، ومن استقام هنا سهل عليه أيضاً أن يستقيم هناك، لابد من الاستقامة على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ حتّى ييسر لك ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حسن الخاتمة، وإلاَّ فالجزاء من جنس العمل واعمل ما شئت كما تدين تُدان، بل أنت محتاج أيضاً للمرور على الصراط، والمرور على الصراط لن يسهل إلاَّ لمن استقام على أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في دنياه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** (٣٠) ﴾[١] .

محتاجون لحسن التأسي، ومحتاجون لأن نتذكر طريق الأولياء، كيف كان اعتصامهم بأمر ربهم تبارك وتعالى، بل إذا دعوناه سبحانه ندعوه جلّ وعلا كالمجربين أو كالممتحنين، لربنا هذا هو شأننا، كيف تُستجاب مثل هذه الدعوات التي خرجت من قلوب خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وكان شأنها شأن المجربة لربها ـ تبارك وتعالى ـ.

حال غريب والله، لا ندعوه ونحن مستيقنين بالإجابة، لا نثق في وعده سبحانه، لا نُكرر الدعاء، لا نتخير وقتاً من أوقات الإجابة، فقط نتعلق بالأسباب، نتعلق بصور مادية لا تقوم بنفسها فضلاً عن أن تقوم بنا وتُلبي احتياجاتنا، محتاجون كما ذكرنا للتوكل على ربنا، هذا الشاب الذي ضاقت به الحـال بحثاً عن عمل ووظيفة، فلم يجد، وهنا كأن ذهنه قد تفتق عن طلب الواسطة، واسطة من شأنها أن تُؤثر على هذا الرئيس، رئيس الإدارة هذا، وذهب لبعض الصالحين، فقال له: أعلم من يؤثر على الرئيس وعلى غيره،

(١) فصلت (٣٠) .

فقال: دُلني عليه. فقال: إما أن تُكلمه أنت وإما أن أكلمه أنا، قال: بل كلمه أنت. فقال له الصالح: بل أنت بوسعك أن تحادثه وأن تكلمه . قال: ومن هو؟ قال له: الله.

فاعمل عمل رجل لا يُنجيه إلاّ عمله، وتوكّل توكل رجل لا يصيبه إلاّ ما كُتب له، عليكم بطاعة الله ـ جلّ وعلا ـ، اعملوا قبل أن يأتيكم الموت ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [١].

اعمل ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [٢] ، ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٣].

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين.



(١) ق (١٩ - ٣٥) .
(٢) الشورى (٤٧) .
(٣) الروم (٤٤) .

إلى أهل الكتاب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [(١)].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [(٢)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [(٣)].

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد ﷺ، وإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله، الحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيراً، فالله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا، جزى الله عن نبيّنا خير ما جزى نبيٍّ عن أمته، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وفتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، احتاط لجناب التوحيد.

كما احتاط لجناب التشريع، فقال: **«لو كان عيسى حيًا لما حلّ له إلاّ أن يتبعني»** وفي مرض موته ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ أخذ يقول: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد،**

---

(١) آل عمران (١٠٢) .
(٢) النساء (١) .
(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).

إني أنهاكم عن ذلك» يُحذر ما صنعوا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولما دخل البعض يمتدحه ويغلو في مدحه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**» صلوات الله وسلامه عليه.

وكان يقول: «**أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، ليس بيني وبينه نبيّ**» هكذا كان شأنه، ولنا فيه أسوة حسنة ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)** ﴾ (١) .

وكلنا بحاجة لأن نحتاط لجناب التوحيد، وكلنا بحاجة لنحتاط أيضًا لجناب التشريع، كلنا بحاجة لأن يُسلم وجهه لله، وإنه إن لم تدعو أنت، إن لم تدعو الآخرين لدين الله، صرت حتمًا لا محالة محلاً لدعوات الآخرين، غزو تنصيري وتبشيرى، سيحدث في قناة الحياة وغيرها مع جحافل هذا العدوان، الأعداء يأتون من هنا ومن هناك يرفعون هذه الشعارات، وكأنهم يُجددون هذه الحملات الصليبية وكبيرهم يزعم أنه مبعوث العناية الإلهية، أصحاب عقائد، وكذلك الأمر بالنسبة للفنانين، فالواحد يُخرج فيلمًا عن آلام المسيح، ثم يدر عليه دخلاً كبيراً يفوق ما أنفقه، ولما سُئل عن ذلك قال: لن أرضى حتّى يتنصّر كل من شاهد الفيلم.

هكذا يكون الأمر والحال، أنت حر كربان تنهض على ساق حزمك تعبد الدنيا بدين ربها ـ تبارك وتعالى ـ، تدل الخلائق على طريق الله ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ (٢)، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ (٣) .

أنت بحاجة لأن تنهض وتُعبد الدنيا، وتقول للخلق اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره، تثبت أنت على دعوتك وتنتقل بها لدعوة الخلق كافة ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (٤)، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١)** ﴾ (٥) .

---

(١) الأحزاب (٢١) .
(٢) آل عمران (١٩) .
(٣) آل عمران (٨٥)
(٤) الأعراف (١٥٨) .
(٥) الفرقان (١)

أنت بحاجة لأن تحتاط لنفسك من هذه الشبهات، ومن هذه الانحرافات، وهذه الاعوجاجات، وأنت عندما تطل ببصرك لا تجد إلاَّ عقائد منحرفة أرضية وضعية مادية، كالديمقراطية يتنادى بها الملايين الآن، ثم تنظر في الشق الآخر تجد عقائد منحرفة منسوبة للسماء، غُيِّرت وبُدلت، عاب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على أهلها فقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [١]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٢].

فكفرهم سبحانه بهذه المقالات التي خالفوا فيه الأنبياء والمرسلين، ووصفهم سبحانه بأنهم ما أخذوا عقائدهم المنحرفة المُغيَّرة والمبدَّلة إلاَّ من الأمم السابقة التي سبقتهم في الضلالة وفي الانحطاط، وإلاَّ فنبيّ الله عيسى لم يدعو قومه إلاَّ لعبادة الله وحده ـ جل في علاه ـ كان يناظر على ذلك، وكان يحاور الكتّاب والكهنة والفارسيين ويدعوهم لله وحده كان هذا هو شأنه، ولذلك يتبرأ يوم القيامة من هؤلاء الذين عبدوه من دون الله عندما يُقال له: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [٣]، فيقول: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾ [٤].

يتبرأ من هؤلاء الذين عبدوه من دون الله، وما أخذوا ذلك إلاَّ من عقائد الوثنيين، لم يأخذوا ذلك إلاَّ من عقائد الهنود في بوذا وكرشنا، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [٥]، فوصفهم سبحانه ـ جلَّ في علاه ـ بالشرك وقال: ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [٦].

فهذا هو شأنهم وهذا هو حالهم، عقائد منحرفة مسلوخة ومأخوذة من آخرين، وإلاَّ فما وجه المضاهاة ووجه الشبه بين عقيدة النصارى في عيسى وعقيدة الهنود في بوذا،

(١) المائدة (٧٣).
(٢) المائدة (٧٢).
(٣) المائدة (١١٦).
(٤) المائدة (١١٧).
(٥) التوبة (٣١).
(٦) التوبة (٣٠).

تربو على الأربعين وجه شبه وتقارب الخمسين شبهًا؛ وذلك لأنهم أخذوا عقيدتهم هذه من غيرهم ممن سبقهم لم يأمرهم بها المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولم ينزلها ربنا ـ تبارك وتعالى عليهم ـ، بل هم ابتدعوا هذه النصرانية، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ (١)، فهم الذين قالوا ذلك.

قال تعالى: ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢)، كما ابتدعوا الرهبانية ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾(٣)، فهم أهل ابتداع، أهل اختراع، يؤلفون ما لم ينزل به الله ـ تبارك وتعالى ـ سلطانًا، ولذلك قال جلّ وعلا عاتبًا على أهل الكتاب: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ (٤).

عاب عليهم بأنهم ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ (٥)، فهذا هو شأنهم وهذا هو حالهم، حذّرهم سبحانه من اتباع سبيل قوم قد ضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، فشارة الصليب هذه ابتدعها لهم قسطنطين، وعقيدة الناسوت واللاهوت ما ابتدعها لهم إلاّ بولس وما جمعهم قسطنطين إلاّ على عقيدة الأقلية مخالفًا بذلك عقيدة الأكثرية، عملهم على عقيدة الأقلية الذين يقولون بألوهية المسيح، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، كان ذلك هو شأنهم وهو حالهم، وقد قرّع الله ـ تبارك وتعالى ـ من نسب له صفات النقص والعيب ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ (٦)، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) ﴾ (٧).

(١) المائدة (١٤).
(٢) المائدة (١٤).
(٣) الحديد (٢٧).
(٤) النساء (١٧١).
(٥) البقرة (٧٩).
(٦) الصمد.
(٧) المؤمنون (٩١، ٩٢).

نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، فما أحب ربه ـ تبارك وتعالى ـ من نسب صفات القصور والنقص والعيب، وإلاّ فأيّ إله هذا الذي يُمكن أعداءه من نفسه حتّى يصلبونه؟!، وحتّى تذرف الدموع على ذلك؟!، وتنبهر وتكون الفتنة لكل مفتون، أي إله هذا الذي يُمكن أعداءه من نفسه حتّى يصلبونه على الخشب ويُسمرونه بالمسامير؟! يبصقون في وجهه يكللون بإكليل الغار، يقولون له يا ابن كذا، أيّ إله هذا؟!، أيّ إله، وأيّ عقائد هذه؟!، ما تملك إلاّ أن تحمد الله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، عقائد تقوم على الصلب، وعلى الفداء، وعلى أن الرب نزل ودخل في رحم امرأة وخرج من مجرى البول، أي إله هذا؟!، أي إله هذا؟!، هو أيضاً قد قالت عنده لماذا لم يغفر للبشر الخطايا، أيمكن الأعداء من نفسه ، حتّى يصلبونه على هذا النحو ويقتلونه - بزعمهم -؟! كيف كانت الدنيا تُدار؟! من الذي كان يحكم العالم أثناء غيابه؟! - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

عقائد موجودة يدين بها الملايين ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [١]، ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)** ﴾ [٢]، ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)** ﴾ [٣].

الواجب علينا أن نتعرف على دعوة الحق، وهؤلاء يقولون «الله محبة» فهم لا يحبون ربهم ـ تبارك وتعالى ـ، وإلاّ فمن نسب لله الصاحبة والولد، هو لم يحب ربه،و من خالف أمر مولاه هذا لم يحب ربه عندما يدّعي أنّ اللاهوت حلّ في الناسوت، وأنّ الله ـ جلّ وعلا ـ قد حلّ في عيسى ابن مريم، وتفترق العقائد وكلها ضلالات مُضلة، وأنّ المسيح هو الله، أو هو ابن الله في الفرقة الثانية، أو هو عبارة عن ثلاثة، فالثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، مقالات كفرية، كفّرهم بها سبحانه وتعالى، ألاَ والصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ، ثم لا يؤمن بما أُرسلت به فهو من أصحاب النار**».

---

(١) الأنعام (١١٦) .
(٢) يوسف (١٠٣) .
(٣) يوسف (١٠٦) .

فالواجب عليهم أن يقتفوا أثر رسول الله ﷺ، وأن يسلموا وجوههم لله، ولو أنصف الرجل لم يكن من يشاهد الفيلم ولم يوصي حتّى يتنصر كل من رءآه، لو أنصف من نفسه لقال: يجب عليّ وعلى الدنيا بأسرها أن تدين بدين الله، أن تُسلم وجهها لله من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، بدلالة الكتب التي بين أيديهم فيها إشارات لتوحيد الله ـ جلّ وعلا ـ، فيها إشارات لنبوة عيسى بن مريم، وأنه عبد رسول، فيها إشارات أن المستقبل لدين الله بغلبته وبظهوره على الأديان كلها، وأنّ النّبيّ ﷺ هو الذي بشّر به عيسى كما بشّرت به الأنبياء من قبله، فيها بشارات كثيرة، فكان الواجب عليه أن يُسلم وجهه لله ...

العقائد تجري من خلقه مجرى الدم من العروق، ينتفضون لأجل عقائدهم، يبذلون من أجلها الغالي والرخيص، يحملون أرواحهم على أكفهم من أجل نشر هذه العقائد، الأمر الذي يدعوك لأن تنهار إذا ما انتُهكت محارم الله، إذا ما حدث التغيير أو التبديل، إذا ما رأيت الفتنة تُطل برأسها في وقت غربة، وقت جهالة، والناس ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه، أوشك مفهوم الولاء والبراء أن يتغير وأن يتبدل.

الواجب علينا أن نقوم لله بحقه نصحًا وبيانًا، وإلاَّ ما أحب ربه من اجتمع في كل مجتمع، وكان منهم التلاعن، ما اجتمع في مجتمعٍ إلاَّ تلاعنوا فيه، لعنوا من سبقهم ومن سيأتي بعدهم ممن يُخالف مقالتكم فكلهم لاعن وكلهم ملعون، وتبقى الشعارات والهتافات عن المحبة وغيرها، قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١)، هذا هو حكم الله فيهم؛ لأنهم غيّروا وبدّلوا، وضاهئوا قول الذين كفروا من قبل، أعطوا الأحبار والرهبان حق التشريع والتبديل والتغيير، تحريم الحلال، وتحليل الحرام، ولذلك عندما دخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وكان قد تنصر وسمعه يقرأ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢)، فقال له: ما عبدناهم. فقال له

---

(١) المائدة (١٤).
(٢) التوبة (٣١).

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**ألم يُحلوا لكم الحرام، ويُحرموا عليكم الحلال، فتلك عبادتكم إياهم**» فهذه هي عبادتهم للأحبار والرهبان، عندما يُغيرون ويبدلون لهم ثم يطيعونهم على حساب دينهم، وهل العبادة إلاَّ الطاعة .

كان الواجب علينا أن نقوم لله بحقه نصحًا وبيانًا، وإلاَّ فنحن عندما نهادنهم، عندما نضايفهم، عندما نعودهم في مرضهم، نرحمهم برحمة العامة، لنعدل معهم، فعدل معهم، نتزوج من نسائهم، نبيع ونشتري معهم، كل ذلك نفعله امتثالاً لأمر الله، ونحن من تمام محبة الخير لهم لابد وأن ندلهم على طريق الله، هذه هي المحبة الحقيقية، إن وجدت تدل الخلق على دين ربهم ـ تبارك وتعالى ـ أن تحب لهم الخير، تحب لهم السلامة والنجاة مما هم عليه، ولذلك لما عاد النَّبيّ ﷺ الغلام اليهودي قال له: «**أسلم**» فقال له أبوه: أطع أبا القاسم.

أسلم الغلام وفاضت روحه من ساعته فقال لهم النَّبيّ ﷺ: «**صلوا على صاحبكم**»، وكذلك الأمر عندما نمتثل لأوامر ربنا، هي دعوة لهم دلالتهم على طريق الله ـ تبارك وتعالى ـ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، قد يتزوج العبد من كتابية ويحسن إليها ويُعاشرها بالمعروف، وفي ذلك إعانة لها على إسلام الوجه لله ـ تبارك وتعالى ـ، وكذلك الأمر عندما أخبرهم ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ ﴾ (١).

فالبر شيء والمودة شيء آخر، البر من في عطية في الدنيا ونحو ذلك، وتمنع قلبك عن كل كافر، ولذلك لما وردت أم أسماء راغبة فيما عندها، ذهبت تستأذن رسول الله ﷺ، فقال لها: «**بري أمك**» ونزل قوله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ ﴾.

فمن محبة الخير لهم أن ندلهم على طريق الله، أن نقول لهم الحق، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢)، قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أنزلهم

(١) الممتحنة (٨) .
(٢) الأعراف (٥٩) .

بالمسجد، حاوروه وناظروه، نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ (١)، فأمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده لا شريك له ـ جل في علاه ـ، فدعاهم النبي ﷺ بدعوة التوحيد، خاطب الأكاسرة، والقياصرة، خاطب هرقل عظيم الروم، فقال له: «**أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين**».

هذه هي محبة الخير لهم، أما أن تدلس عليهم وتزيف عليهم، وتتركهم فيما هم عليه، هؤلاء يوردون أنفسهم موارد الهلكة بعقائد مغيرة مبدّلة لم يأذن بها الله، ولذلك قال سبحانه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٢).

فهم ليسوا على شيء نافع، حتّى يُقيموا التوراة والإنجيل المُنزّلة لا المُغيّرة ولا المبدّلة، أناجيل كثيرة تربوا على المئة، اختزنوها في أربعة، لا يدرى من كتبها، لا يدرى من الذي ترجم، وكيف ترجم، يغلب بعضها بعضاً، حتّى فيما يتعلق بنسب المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلابد أن تدعهم إلى أن يحتكموا لدين الله تبارك وتعالى، فهم ليسوا على شيء حتّى يقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم، لابد من إقامة لدين الله، وحينئذ سيسلمون وجوههم لله سيتابعون رسول الله ﷺ، ألا فكافر من زعم أنه يؤمن بالمسيح ثم كذب برسول الله ﷺ، وأخذ ينتقص من شخص رسول الله ﷺ، مثل هذا لم يؤمن بالمسيح، ولم يؤمن بالإنجيل؛ إذ لو آمن بالمسيح وبالإنجيل لتابع النّبي ﷺ، بشّره المسيح وأمره بذلك ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (٣).

وهو الفارقليط في كتبهم يكذبون بإنجيل بارنابا، ويزعمون أنّ كاتبه كان؛ ولذلك طردت وهو أقرب الأناجيل إلى الحق، فيه البشارة برسول الله ﷺ، فيه الدلالة على أنّ عيسى بن مريم كان عبداً رسولاً، لم يكن إلهاً، ولم يكن ابن الله، هذا من جملة الغلو

(١) آل عمران (٦٤).
(٢) المائدة (٦٨).
(٣) الصف (٦).

الذي عابه ربنا تبارك وتعالى عليهم فقال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾(١).

كان لابد من عدل واعتدال، والعدل أساس الملك، وبه قامت السموات والأرض، نحن نوقر المسيح ونؤمن به، ونؤمن بالإنجيل المنزّل عليه، عقيدة صافية ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) ﴾(٢)، وفي هذه الآية وفي كلماتها الوجيزة ردًا بليغًا على الغلاة على من تطرف، ردًا على اليهود من جهة، وكل النصارى من جهة أخرى، طرفي نقيد جفاء وغلو، إفراط وتفريط ، وإسراف وتقصير.

وهذه هي حالة البشر، فاليهود ينسبون عيسى إلى أنه ولد زنا، هذا هو شأنهم في التنطع، هذا هو كفرهم، ومن صور كفرهم هذا التنطع، وهذا التكذيب للأنبياء وللمرسلين، وفي الجهة الأخرى خرج النصارى كطرفي نقيد يألهون المسيح أو يصفونه بأنه ابن الله – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا – فوردت الآية البيّنة ترد على هؤلاء وعلى أولئك ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ ، هو رسول، يكفيه شرفًا هو أحد أولوا العزم من الرسل، تكريم لنبيّ الله عيسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وأمه صديقة، إنصاف لمريم ابنة عمران وتكريم لها، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، ومن أكل الطعام كان ذلك دلالة على أن يجوع وفيه من عوارض الأهلية، فيه من أمارات الضعف والعجز والفقر والقصور ما في البشر، فمن احتاج إلى إخراج فكيف نصفه أنه الله أو هو ابن الله – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ، كيف يمكّن أعداءه من نفسه بعد ذلك كيف؟!!!، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) ﴾(٣).

فلابد أن ندور مع إسلامنا حيث دار، وأن نرجع في هذا وغيره إلى كتاب ربنا

(١) المائدة (٧٧) .
(٢) المائدة (٧٥).
(٣) النساء (١٧٥) .

وسُنّة نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، كتاب حفظه سبحانه ، قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ (١) ، حُفظتْ السنّة كذلك لحفظ الله لها كما حفظ من يقوم بدين الله، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة **«ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، أو من خذلهم، حتّى يأتي أمر الله وهم على ذلك»** .

دين محفوظ بينما لم تحفظ التوراة ولم يحفظ الإنجيل لأمر؛ لأمر ذكره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقال: **«كان كل نبي يُبعث لقومه خاصة وبُعثت للناس كافة»** فدعوته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، دعوة عالمية ولذلك لابد أن نرتفع بمستوى إسلامنا، ولمستوى ديننا، لو لم نُعبد الخلائق لدين الله صرنا كالمستنقع الآسن، كالماء الراكد، سرعان ما يتعفن، تغزوه الجراثيم، تغزوه الميكروبات، سُنن كونية تتوافق مع السُّنن الشرعية، إن لم تعبد الخلائق لله صِرت أنت محلاً – لا محالة – محلاً لدعوات الآخرين، هم الذين يغزونك بدعواتهم المشبوهة، فالواجب علينا أن نرتفع لمستوى إسلامنا، وأن نبلّغ الحق للخلق، نقول للناس أسلموا وجوهكم لله من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.

ونسأله ـ جلّ في علاه ـ بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى أن يُثبّت الأقدام على دينه حتّى نلقاه غير مغيرين ولا مبدّلين، وسبحانه هو ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.



(١) الحجر (٦٠) .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

عباد الله، بُعث نبيّ الله عيسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، نُبّئ وهو في عمر الثلاثين، واستمر يدعو في بني إسرائيل ثلاث سنوات، لقي خلالها ما لقاه من أذيً ومن عذاب، والنّبيّ ﷺ يقول: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المرء على قدر دينه وإن وجد في دينه صلابة زيد له في الابتلاء»**.

ونبيكم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نُبّئ في الأربعين، واستمر ثلاثة وعشرين سنة يدعو، ولقى من البلاء والأذى والعنت ما لقاه، حتّى حوصر في شعب أبي طالب ثلاث سنوات كاملة، حتّى كان عقبة بن أبي معيط يلقي سلا الجزور على ظهره الشريف ويخنقه، وتارة أخرى يحاولون قتله والفتك به ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ (١) .

انتقل ﷺ إلى المدينة، وهناك ما كانوا يبيتون إلاَّ في سلاحهم صفتهم الدنيا عن قوس، واحتمل بلاء هنا، وابتلاء هناك، كانت حياته بلاء وكرباً صلوات الله وسلامه عليه، وكان نعم العبد الصابر الشاكر حتّى لقي ربه، رفع له ذكره وأعلى له أثره صلوات الله وسلامه عليه، مات ﷺ وهو يدعو ويعبد الخلائق بدين الله ويقول: **«الله، الله في النساء، اتقوا الله في النساء، الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»** يحذر الخلائق من صرف العبادة لغير الله عزّ وجل وهو على فراش الموت صلوات الله وسلامه عليه، كان هذا هو شأنه، يوعك كما يوعك الرجلان منكم، تصيبه الحمى... إلى غير ذلك من الابتلاءات التي عاناها، أُوذي في الله وما أوذي أحد صلوات الله وسلامه عليه، مثل أذاه.

---

(١) الأنفال (٣٠) .

لابد أن نتعرف على سيرته وعلى سُنَّته، لا نقول ذلك انتقاصاً من شخص نبي الله عيسى صلوات الله وسلامه عليه، ولكن الابتلاء سُنَّة ماضية، خرج نبيّ الله عيسى يعبِّد الخلائق لله يدعوهم بدعاية الإسلام، وما من نبيّ إلاَّ وقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١)، وهو أحد أولي العزم من الرسل، رُفع في سن الثلاثة والثلاثين، رُفع إلى السماء لم يقتلوه صلوات الله وسلامه عليه، أُلقي شبهه على يهوذا المسخيروتي، هذا المنافق الذي كان يحضر مجلسه، دلّ اليهود على لقاء دريهمات معدودات، فدخل على مكان المسيح، أُلقي شبه المسيح عليه، فأخذه يهود وقتلوه، وأصبح النصارى في حيرة شديدة، يقولون إذا كان صاحبنا قد قُتل فأين المسيح، وإن كان المسيح قد قُتل فأين صاحبنا؟!، واحد صُلب والثاني رُفع إلى السماء.

رفع ربنا تبارك وتعالى نبيه عيسى ورسالته لم تكتمل بعد، سينزل إلى السماء إلى الأرض حكمًا عدلاً مُقسطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويحكم بحكم الإسلام، سينزل في آخر الزمان، وسيموت صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (٢)، سيموت ويُصلي عليه المسلمون، ويدفن في مدينة رسول الله ﷺ، هو علامة من علامات الساعة العشر الكبري.

عقائد قامت على الصلب، وعلى الفداء، وهذا هو صلب العقيدة النصرانية، لماذا؟ لماذا يتحمل رجل خطايا البشر؟!، أليس قديراً سبحانه على مغفرة الذنوب؟!، ألم تقرأ: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾﴾ (٣) ؟! ألم تقرأ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (٤) فمن عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ ؟ لماذا يتحمل خطيئة آدم وخطيئة بني آدم بعد ذلك، ربك تبارك وتعالى قدير ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾﴾ .

ومن عجيب الأمر أن ننسب الغلو على القساوسة والرهبان فيكون الغلو في

(١) الأعراف (٥٩).
(٢) مريم (٣٣).
(٣) النجم (٣٨ - ٤٠) .
(٤) فصلت (٤٦) .

الأشخاص، فإذا ما زنت المرأة ذهبت إلى الرجل ليطيبها ولكي يطهرها إلى زوجها، ولا تدري من يُطيب من، ومن يُطهر من ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [١].

عقائد كُفرية، عقائد شركية، كان الواجب على العبد أن يتوب إلى الله - تبارك وتعالى -، وأن يُسلم وجهه لله، وفارق كبير بين نبيّ الله عيسى وأمه، ومن صدق في الإيمان به، ومن كفر وبدّل، إذا كان الحب ورد في أهل الكتاب، الذين غيّروا وبدّلوا فأنت عندما تقرأ في كتاب الله وفي سُنّة رسول الله ﷺ لا تجد إلاّ ثناء عطراً على مريم وعلى المسيح وعلى الحواريين على من تبعوه بإحسان يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [٢].

انظر ربنا تبارك وتعالى يصف مريم بالصديقة ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝٤٢ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝٤٣﴾ [٣]، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [٤].

ثناء عطر على مريم ابنة عمران، أبوها هو سيد القوم، وأمها قد كانت نذرت لله ما في بطنها مُحرراً قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [٥].

نشأت نشأة الطهر ونشأة العفاف، وتقبلها ربنا بقبول حسن، انظر هذا هو شأنها، وما من مولود إلاّ يولد واستهل صارخاً إلاّ مريم وابنها، يستهل لركض الشيطان له على خلاف أنف الأطباء، وما يُفسرون به الحقائق، انظر فما من مولود إلاّ ويستهل صارخاً؛

---

(١) التوبة (٢٨).
(٢) المؤمنون (٥٠).
(٣) آل عمران (٤٢).
(٤) المائدة (٧٥).
(٥) آل عمران (٣٥ - ٣٧).

بسبب ركض الشيطان له إلاّ مريم وابنها تقبلها ربنا بقبول حسن وانبتها نباتًا حسنًا، وكفلها زكريا هو الذي قام على شأنها بعد موت والدها عمران، وكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] ، يدخل عليها فيجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا من إكرام الله لها، نبتة طيبة، نبتة حسنة، نبتة إيمانية ترعرعت في كنف بيت المقدس، ترعرعت ترعرعًا إيمانيًا، فربك تبارك وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، ضُرب بها المثل في الطهر والعفاف، لما رأى نبي الله زكريا ذلك ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [2]، دعا زكريا ربه وكان لا يولد له، فولد له يحيى ابنه وهو ابن الخالة لعيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو الملقب بيوحنّا المعمدان.

نشأ نبيّ الله عيسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أم بلا أب، وربك قدير ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [3]، فخلق آدم وخلق حواء، وخلق يحيى بن زكريا أبلغ من خلق عيسى صلوات الله وسلامه عليه، وربك لا يعجزه شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [4]، ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [5].

أن يولد إنسان بلا أم وبلا أب، خُلق آدم مما وصف لكم خلق من تراب، وخُلقت حواء من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وخُلق يحيى ابن زكريا من أبوين شيخين كبيرين عقيمين لا يولد لمثلهما، وربك ـ تبارك وتعالى ـ قدير، وكانت مريم قد سارت وأخذت تجاه المشرق عندما أحسّت بحملها، تخوفت على نفسها من الغواية ومن الفتنة ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

(١) آل عمران (٣٧) .
(٢) آل عمران (٣٨) .
(٣) آل عمران (٥٩) .
(٤) يس (٨٢) .
(٥) الشورى (٤٩) .

شرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾ [١]، بشرها بغلام، كيف يحصل ذلك طباع بشرية تأنف، وخصوصًا مع امرأة تتخوف على نفسها الفتنة تُتَّهم في عرضها وهي الشريفة الطاهرة العفيفة، هذا هو شأنها ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) ﴾ [٢].

فحملته كما تحمل النساء، وكما ذكر العلماء حملته ، فنفخ في درعها فوصلة النفخة إلى فرجها، فحملت بنبيّ الله عيسى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [٣].

أُمرت أن تذهب إلى هذه الشجرة وأن تلوذ بها وأن تقف عندها، وآلام المخاض عسيرة، أسقط ربنا الرطب عليها، وأجرى النهر تحتها في مكان لا ماء فيه، قيل: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) ﴾ [٤].

وما وجدت أسرة من التهمة مثل هذه الأسرة، وما اختلق خلق بشأن المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) ﴾ [٥] .

---

(١) مريم (١٦ – ١٩).
(٢) مريم (٢٠ – ٢٢) .
(٣) التحريم (١٢) .
(٤) مريم (٢٥ – ٢٨).
(٥) مريم (٢٧ – ٣٠) .

وكثير من تكلموا في المهد، تكلم ابن ماشطة ابنة فرعون، تكلم صاحب جريج، تكلم الشاهد المذكور في قصة يوسف، تكلم الغلام الذي قال لأمه: يا أُمَّه، اصبري فإنَّك على الحق .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ (١)، وهذا هو شأن جميع الأنبياء والمرسلين في البر بالأبوين ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ ، قال: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ (٢) .

وهو لم يمت بعد؛ لأنه في السماء الثانية، علامة من علامات الساعة العشر الكبرى، ينتظر الأمر بالنزول فينزل ويحكم بحكم الإسلام، وهو تابع لرسول الله ﷺ في ذلك، فينزل من السماء حكمًا عدلاً مقسطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقيم الحجة على هؤلاء الذين ألَّهوه، وعلى هؤلاء الذين جعلوه ابنًا لله ـ جلَّ وعلا ـ، وقالوا بالتثليث كما ردَّ على اليهود أيضًا الذين افتروا وعتوا عتوًا كبيرًا، فينزل من السماء فيموت، ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ (٣) على النحو الذي تشاهده وتراه وكلهم يكفر بعضهم بعضًا .

والواجب علينا أن أن نتعرف على دعوة الحق، اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا، يستمر إلى أن يأذن الله تبارك وتعالى أن يرث الأرض ومن عليها، والكل يرجع إلى ربه سبحانه وتعالى، خلق الخلق وأحصاهم عددًا وقال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ (٤) .

---

(١) مريم (٣٠ – ٣٢) .
(٢) مريم (٣٣) .
(٣) مريم (٣٤ – ٣٧) .
(٤) مريم (٩٣ – ٩٥) .

يتبرأ نبيُّ الله عيسى ممن كان قد غلا فيه ممن ألّهه مع الله تبارك وتعالى؛ ولذلك قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**يأخذ بأقوام على الحوض، فأقول أصحابي أصحابي، فيقولون: ليسوا بأصحابك إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقًا لمن بدّل بعدى، وأقول كما قال العبد الصالح** - يقصد عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه - **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**» ثناء عطر على مريم وعلى المسيح صلوات الله وسلامه عليه وعلى من آمن به من الحواريين والأصحاب.

﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)** ﴾ [١]، وهي هي الكلمة التي نرددها حتّى نلقى ربنا تبارك وتعالى غير مبدّلين ولا مغيّرين ولا مفرطين، ﴿ **رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾.

نسأله ـ جل في علاه ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يتوفّنا وإيّاكم مسلمين، وأن يُلحقنا بالصالحين، اللهم إنّا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا أخرانا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم دبّر لنا، فإنّا لا نُحسن التدبير، اللهم ومن أرادنا وأراد المسلمين بسوء فاشغله بنفسه، واجعل كيده في نحره، واجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء، اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، ويُكذبون رسلك ولا يؤمنون بوعدك، اللهم خالف بين كلمتهم، وألقي في قلوبهم الرعب، اللهم نجي المسلمين المستضعفين في كل مكان، اللهم اربط على قلوبهم، اللهم ثبت أقدامهم، اللهم عجل لهم بنصرك الكريم يا أرحم الراحمين.

(١) آل عمران (٥٢، ٥٣).

اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً ولا تُغادر منهم أحداً، اللهم دمرهم تدميراً، والعنهم لعناً كبيراً، اللهم إنَّا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وديناً قيماً، والشفاء من كل داء، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين .



كلمة بعد خطبة إلى أهل الكتاب

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

الدين واحد، وإنما تعدد الشرائع بمعنى لا يصح أن يقال أديان سماوية، هذا خطأ هو دين واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (١)، لو قلت أديان، تقصد بذلك المعرفة المغيرة المبدّلة هذه كثيرة، هذه كثيرة عديدة، أديان أرضية، البعض يؤلّفها ويخترعها، يبتدع ديمقراطية وغير ديمقراطية، دين عند أهلها وأشياء منسوبة، فالإنجيل منزّل، والتوراة منزّلة، ولكن طرأ عليها التغيير والتبديل والتحريف، ولذلك عاب ربنا - تبارك وتعالى - على أهل الكتاب، وهذا الذي تقرأه أنت، وهذا الذي يذكرونه، ولذلك لماذا كان تكفيرهم بعضهم للبعض الآخر؟، بروتستانت وكاثوليك ونحو ذلك وأرثوذكس، الطريقة الملكوتية، والطريقة اليعقوبية، والناسطورية ونحو ذلك من الأشياء، يُكفر بعضهم بعضاً، ويُبغض بعضهم بعضاً.

وهم يذكرون أن التبديل والتحريف في الكتاب الذي بين أيديهم لأنه كُتب بعد ذلك بسنوات، كانوا أكثر من مئة إنجيل، أكثر من مئة إنجيل، ليس عندهم سند متصل، إلاّ في تحريم الطلاق، وفي سنده كذلك مسند واحد متصل، ولذلك عندما يؤلّف فيلم - مثلاً - من أين استقال أشياء غير ثابتة، لا يستطيع توثيقها، لماذا يصر مثلاً على تصوير الاثنتا عشر ساعة الأخيرة من حياة المسيح - صلوات الله وسلامه عليه -، لغرض في نفس يعقوب، ماهو السا ـة الأخيرة عند هؤلاء؟ هي الساعة الحاسمة في عقيدة الصلب والفداء، في عقيدة الصلب والفداء، في تحمل الخطيئة، وفي ذلك يكثر في حديثهم الخطيئة، وأن نبيّ الله عيسى عليه السلام هو الذي يحمل خطايا

---

(١) آل عمران (١٩).

البشر، ونحو ذلك، ويصورونه وهو قد صُلب على هذا النحو، تصويراً، طبعًا غير صحيح، فلذلك أنت لا تسمح بعقائد تغزوك أو تغزو غيرك، يعني إن كان البعض يتكلم على رقابة وغير رقابة.

الواجب على المسلم ألاّ يسمح بالعقائد الكفرية أن تشوش على المسلمين، إذ المسيح لم يقتل، ولم يصلب، وهم يعبدون مسيح لا وجود له، ويهود ينتظرون المسيح الدجال لا مسيح الهدي، لا مسيح الهدي، لابد أن نتعرف على الواقع من حيث هو واقع، لما تنظر ـ أنت ـ تجد العلماء ميّزوا بين المبتدع الساكت، وبين المتبدع الذي يجهر ببدعته، الأول قد يرون عنه في كتب السُّنّة، الثاني لا يرون عنه، ولابد من التحذير من أهل البدع، وخصوصًا إن كانوا رعاة لهذه البدعة، وإلاّ قد يتأثر كثير من الناس بهذه البدعة، وهذا حدث للبعض، انبهار شديد بآلام المسيح ونحو ذلك، والله أنت عندما تتألم لآلام المسيح تتعرض على طريق مسلوك حتّى لا يقتصر على الأنبياء والمرسلين كل أتباع الرسل، دعوة نبي الله عيسى لبني إسرائيل كانت في ثلاث سنوات، ثلاث سنوات، رفع بعدها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وسينزل لاستكمال رسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فهذه هي دعوته، يعني التاريخ يسكت عن سبعة عشر سنة، فحياة المسيح سبعة عشر سنة كاملة لا يذكر فيها التاريخ شيئًا في حياة المسيح، ثم نبّه وهو في عمر الثلاثين دعوة.

فنحن نؤمن بالإنجيل، نؤمن بنبي الله عيسى ﷺ، ولكن أن نسمح بعقائد كفرية ضلالية تنتشر بيننا لتصوير ولإخراج بارع ونحو ذلك، فارق بين أن تتألم لآلام المسيح وبين أن تتابع ما عليه النصارى من غلو ومن انحلال وانحراف، لابد من تفريق، لابد من تفريق، دعوة نبي الله عيسى مكملة لدعوة نبي الله موسى، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، انظر ولذلك بيّن له أنه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (١)، وقال أيضاً: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٢).

(١) الصف (٦).
(٢) آل عمران (٥٠).

فشريعة الإنجيل مكملة لشريعة التوراة ، وهذا هو العهد القديم، وهذا هو العهد الجديد، ولذلك لما تنادت الجن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ولم يقولوا من بعد عيسى، ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [(١)]، شريعة كاملة كشريعة القرآن هي التوراة، أما الإنجيل عبارة عن بعض الأحكام المكملة، ولذلك إذا قيل لهم ما تقول شريعتكم، لا شريعة عندهم.

ولذلك أيضًا هي مسلمات معرفة الواقع، من باب معرفة الواقع، ليس أكثر لا تطيقون أي شريعة لو قيل يطبق الإسلام سيقبلوه؛ لأنهم لا شريعة عندهم، لا شريعة عندهم، الإنجيل بعض الأحكام المكملة للتوراة، عهد قديم، وعهد جديد، فنحن كما ذكرنا، نحن نحفظ لهم حقهم، والحفظ فيهم وصية رسول الله ﷺ، فنحن لا نعالج مواجهة الخطأ بخطإ، ونحن لا ندور في معالجة الجور للحفظ لهم ذمة ورحمة ، كما أوصانا الرسول ﷺ، ونقوم بحق الله فيهم، دعوة وبيانًا لنخبرهم، لابد من تبصيرهم بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، لابد من ردهم إلى أخية الإيمان، فمعرفتنا بذلك تدعونا للقيام بحق، لتجد اليوم لما تخلينا عن شريعتنا، ـ للأسف الشديد ـ الوضع ضعف أو استضعاف، جعل أعداء وكأنهم هم الذين يسعون لنشر ما هم عليه من كفر وباطل وضلال، تأتي جحافل الصليبية المعارك، وتأتي أيضًا جيوش معهم من المبشرين المنصِّرين أصحاب دعوة، أصحاب دعوة يعلنوها صليبية، لا بأس بذلك، هذا واقع يجب التعرف عليه من باب عرفت الشر لا للشر، ولكن لتوقِّيه، يدعون ذلك للرجوع لعقيدتك للاستمساك بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ .

تأتي قناة الحياة وهي للأمانة أقرب قناة، تزعم أنها كانت مسلمة وتنصرت، أبدًا هي نصرانية، وما أيسر اليوم، ما أيسر حوادث قد تُرتكب، واحدة تنتقب، رجل يُطلق لحيته؛ لأنه يعلم مسبقًا كشف الفداء من الذي تقام إليه النُصرة، نفس النظام في قناة الحياة، البنت نصرانية تزعم أنها كانت مسلمة وتنصَّرت وتُحاور رجلاً خبيثًا، والقناة كلها طعن في الإسلام، وفي دين الله وفي نبي الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، من

(١) الأحقاف (٣٠) .

الذي يقبل ذلك، كما ذكرنا كان لابد أن ننهض لله بحقه نصحاً وبياناً، نتعرف على طبيعة هذه الدعوة لا نكتفي بالحماسات، لا نكتفي بالعطافات، الإسلام حلو، والإسلام جميل، والإسلام كذا.. ثم غزو من كل صنف ولون، لابد كما ذكرنا من رد الخلق للحق، لابد من دلالتهم على طريق الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (١).

ونحن نبرّأ اليهود من دم المسيح، نعم هم سعوا في قتله، يعني هو صلوات الله وسلامه عليه أول ما ولد...، وهذه قصة وتاريخ طويل انتقلت به أمه مريم وخطيبها يوسف النجار، ويوسف النجار أنجب المسيح، ينسب له عندما يذكرون المسيح يقولون يسوع ابن يوسف النجار، لا هو ليس أبوه لا أب له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وكان يوسف النجار صالحاً متعبداً، قريباً لمريم ابنة عمران، لما رأى عليها مخايل الحمل خطبت ليوسف النجار، وكانت فتنة، وهي عندما قالت: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)، تتخوف على نفسها من الفتنة في الدين، فهي طاهرة، بريئة، انظر فلما تخوفت خطبت ليوسف النجار.

وكان واحد اسمه هيرودس هو الذي يحكم الكهنة، ذكروا له أنّ الهلاك وأن الاستيلاء على بيت لحم سيكون على يد ولد سيولد، وسيدين له اليهود، فلما شرع يقتل الأولاد المولودين ما عمل يوسف إلاّ أن أخذ مريم وأخذ صغيرها نبيّ الله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وانتقلوا إلى مصر، حتّى هلك هيرودس، ثم رجعوا مرة ثانية، وسكنوا في بيت لهم، وانتقلوا إلى الناصرة وإليها نسب النصارى يقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾.

انظر للتكريم، انظر للتشريف، لا داعي للغلو بعد ذلك ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٣)، فانتقلت إلى بيت لحم، وأيضاً لما ترعرع

(١) المائدة (٥١).
(٢) مريم (٢٣).
(٣) المؤمنون (٥٠).

نبيّ الله عيسي، قبل: كان يُناظر الكهنة، ويُناظر أيضًا الفراسيين والكتاب ويحاجهم بدعوة الحق، فتخوفوا من دعوة نبي الله عيسى، والابتلاء حاصل والتدافع بين الحق والباطل وارد، قالوا: يعني نقتل رجل ولا يهلك الشعب فتدعوا إلى قتل نبيّ الله عيسي، فألقى شبهه على يهوذا المسخريوتي، أخذوا يهوذا وصلبوه، اليهود فعلاً براء من دم المسيح، قالوا: باطل كله كفر بدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولكن لابد من وضع النقاط على الحروف هم لم يقتلوه، آذوه نعم، عذبوه نعم، ولكن لم يقتلوه، نقول لا وألف لا، لم يقتلوه، ولذلك هم سعوا في السنوات الأخيرة لاستصدار وثيقة من الفتيكان تبرأهم من دم المسيح.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ (١).

فلابد من تبرئة اليهود، وهذا إنصاف منّا نحن نُبغضهم، ولكن لا يُمكن أن نجور عليهم، ولا على نصراني، لا يمكن، العدل أساس الملك، ذهب عبد الله بن رواحة يخرس نخل يهود خيبر، أرادوا رشوته، فقال: يا أعداء الله، تعلموني السحت؟ فوالله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ – أي يقصد من عند رسول الله ﷺ – وأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني حبي إياه وبغضي إياكم إلى أن أعدل بينكم. قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

عدل، العدل أساس الملك ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ (٢)، إنصاف، انظر حتّى ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ (٣)، نزلت في من آمن برسول الله ﷺ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٤).

القرآن يحكي لك الواقع من حيث هو واقع، بلا مغالاة، فنحن عندما نبرأ ساحة

(١) النساء (١٥٧).
(٢) المائدة (٨).
(٣) المائدة (٨٢).
(٤) المائدة (٨٢).

يهود من قتله؛ لأنه لم يُقتل، الذي قُتل هو يهوذا، أخذوه وقتلوه، أما اليهود فلم يقتلوه، ولنا في قصة ابن أبيرق دروس عظيمة القدر، حذّر النبيّ ﷺ وقيل له: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾(٢).

همّ النبيُّ ﷺ أن يدافع وأن يجادل عن هذا المنافق الذي زعم أنّ اليهودي زيد بن سمين هو الذي سرق الدرع، وما كان زيد بن سمين اليهودي هو الذي سرق، ابن أبيرق هو الذي سرق ووضعها في دار اليهودي، وهمّ النبيُّ ﷺ أن يجادل عن هذا المنافق، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾(٣).

انظر إلى ابن أبيرق وبرأت الآيات البينات ساحة اليهودي، انظر إلى العظمة، هل تجد أكمل من ذلك؟، لا يمكن أن تجد درساً في العدل والإنصاف أعظم من ذلك، لا تجد، لا تجد تبرأة لليهودي، وهم الذين قالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾(٤)، فلابد من رد الحق لأهله، اليهود لم يقتلوا عيسى بن مريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، رسالته لم تكتمل، ولا يصح أبداً أن نقول: المسيح بن مريم قُتل وصُلب، هذا لا يجوز....

تنبهر تشاهد الفيلم، ينبهر به البعض يسأل الممثل، والمخرج يخرج على الملأ، لم يُقنع، الكل صاحب دعوة، والكل صاحب عقيدة، محتاجون كما قلنا أن نغار على دين الله، أن نُبلغ دين الله، وندعو الله أن ينفعنا بما قلنا وسمعنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



(١) النساء (١٠٨).
(٢) النساء (١٠٥).
(٣) النساء (١٠٧).
(٤) المائدة (٦٤).

الخاتمة

وكأني برسول الله ﷺ وقد جمع قومه وحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «**إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلاّ هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً**» (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» لبطون قريش حتّى اجتمعوا فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلاّ صدقاً. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» قال أبو لهب: تبًا لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد] (٢).

لقد قام لله يُبلغ الحق للخلق، ويُواصل الليل بالنهار في طاعة ربه وإقامة واجب العبودية، وحاولت الجاهلية صده ومنعه، وسلكوا معه مسالك الترغيب والترهيب، والإغراء والتهديد، فكان لسان حاله ينطق: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتّى يظهره الله أو أهلك دونه**»، فأوذي في الله وما أوذي أحد، واضطره المشركون إلى الهجرة من أحب بلاد الله إلى الله، ومن أحب بلاد الله لنفسه الشريفة ﷺ، فواصل الجهاد والوعظ والتذكير، وكانت أول خطبة له بالمدينة في أول جمعة صلاها في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم قال فيها: «الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس،

(١) «جمهرة خطب العرب» عن السيرة الحلبية (٢٧٢/١)، والكامل لابن الأثير (جـ٢/٢٧)، وسيرة الخضري (ص٥١).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي

وانقطاع من الزمان، ودنو الساعة، وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلاّ وجه الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك، فإنه تعالى يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩] واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٥]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] ولا قوّة إلاّ بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله، يكفه الله ما بينه وبين الناس، وذلك بأنّ الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم»[(١)].

أين ميراث النبوة في حياتنا ؟! ولماذا لم نقف على مشاعرنا؟! ولماذا لم نرجع لديننا عندما تكالبت علينا الدنيا، وصرنا نهبة للأمم ؟! لقد أصبحنا أذلة بعد عزة، وأشتاتاً بعد وحدة، وضعفاءً بعد قوة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦] ووجد

(١) أوردها ابن جرير، وفي السند إرسال، «البداية والنهاية» لابن كثير.

البعض ممن هو من جلدتنا ويتكلم بلساننا، صار يستخف بالخُطب الوعظية، ويستهزأ بالفقهاء والخطباء!! وكأنّ العداء والاستخفاف قد تسرب إلى فريق منا بسبب الجهل وغربة الحال، وانقسم المسلمون على أنفسهم وصاروا حرباً ووبالاً على بعضهم البعض!! فإلى الله المشتكى من هجران الدين والسُّنن، والغفلة التي رانت على القلوب مما سمح بتسرب داء الأمم، ومتابعة اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل، حتّى لو دخلوا جحر ضب لدخلناه وراءهم.

وكأني برسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - ونفسي له الفداء قبل موته، فلما دنا الفراق جمع أصحابه في بيت أم المؤمنين عائشة ؓ، فنظر إليهم ودمعت عيناه، ثم قال: «**مرحبا بكم، وحياكم الله، حفظكم الله، آواكم الله، ونصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم نذير مبين أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنّ الله قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾** [القصص: ٨٣]، **وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾** [الزمر: ٦٠] ثم قال: «**قد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنّة المأوى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى**».

قال ابن مسعود ؓ : فقلنا: يا رسول الله فمن يُغسلك إذاً؟ قال: «**رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى**» قلنا: ففيم نكفنك؟ قال: «**في ثيابي هذه إن شئتم، أو في حلة يمنية أو في بياض مضر**» قال: فقلنا فمن يصلي عليك منّا؟ فبكينا وبكى، وقال: «**مهلاً غفر الله لكم وجازاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني، ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، فاخرجوا عني ساعة، فإنّ أول من يصلي عليّ خليلي وجليسي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده، ثم الملائكة صلّى الله عليهم بأجمعها، ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا، فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بباكية، ولا صارخة، ولا رانة، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي، ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من إخواني فأقرئوه مني السلام، ومن دخل معكم في دينكم بعدي فأقرئوه مني السلام، فإني**

أشـهـدكـم أني أقـرأ عليـه وعلى كل من تابعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيـامـة» قلنا: يا رسـول الله، فـمن يدخلك قـبـرك منّا؟ قـال: **«رجـال أهل بيـتي مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم»** [1].

إنّ الأنبيـاء لـم يورثوا ديناراً ولا درهمـًا، وإنما ورّثوا العلم، فـمن أخـذه أخـذ بحظ وافـر، ولـم ينتـقـل صلوات الله وسـلامـه عليـه إلى الرفـيق الأعلى إلاّ بعـد أن أكـمل له سبحانه الدين وأتم عليه النعمة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، فعاد أمرنا إلى نقـصـان وردى، بعـد كـمـال وهدى، واستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فصار ديننا وراءنا ظهرياً ينادينا من مكان بعيد، من يوم بدر وأحد ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وبعد الجهاد في الحياة وعند الممات والتذكير بتقوى الله والوعظ بالاستقامة على شرع الله، وصبغ الدنيا بدين الله، انقلب الحال، وتغيّر وتبدّل الأمر، فالرقص والغناء صـار فنّا، والربا فـائدة، والخـمـر مـشـروبات روحيـة، والكفـر والزندقة والإلحـاد حرية شخصية.. !!، مما جعلنا في ذيل الأمم، نعاني حياة المذلة والمهانة والضياع، ومصيرنا في الآخرة ظاهر معلوم، إن لم نرجع إلى ربنا ونحكم شريعته ونستقيم على أمره، وبداية الأمر توبة وصدق مع الله، وحينئذ يعود لنا عزنا المفقود، ونصبح سادة وقادة، ويغير بنا ربنا وجه الأرض ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

فاللهم بك نستجير، وبك نستغيث، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسماعيل الأحمس وهو ثقة. «مجمع الزوائد» (ج٩)، (ص١٤).

فهرس